الإلحاد دوافعه وموانعه

دراسة حول جذور الإلحاد وأسبابه ،

وردودٌ على مزاعم الملحدين المعاصرين

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتـــاب: الإلحاد دوافعه وموانعه
المـــؤلـــــف: محمد عبد الفتاح إسماعيل
موضوع الكتاب: فكر إسلامي
عدد الصفحات: 198 صفحة
عدد المـــلازم: 12.3 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17*20
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-90-0

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

الإلحاد دوافعه وموانعه

دراسة حول جذور الإلحاد وأسبابه ،

وردودٌ على مزاعم الملحدين المعاصرين

تأليف

محمد عبد الفتاح إسماعيل

دار البشير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

تقدمة للكتاب

الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الشاكرين ونصلي ونسلم على سيد الخلق أجمعين، النبي العربي الأمين، أرسله ربه بالكتاب المبين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،،،

فالإلحاد مذهبٌ شيطانيٌّ انتحله بعض الغاوين، وعموا عن الحق المبين؛ فأنكروا وجود رب العالمين، ونسبوا العالم إلى الصدفة والعشواء، وكفروا بكل ما هو غيبي بحجة أنهم لا يدركونه بالحواسِّ التي حكَّموها، والعقول التي ألَّهوها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1]

لقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ العالم وأرسل الرسل، تدعوا للإيمان به، وتشهد بوحدانيته، وتنطق بدلائل قدرته، وآيات عظمته، ولو أعمل الملاحدة حواسَّهم وتفكروا وتبصَّروا؛ لوجدوا شواهد التوحيد بادية متجلية في كل ذرة من ذرات الكون، وكل خلية بل كل حبة رمل، وقطرة ماء، ونسمة هواء .

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لجين شاخصات ... بأحداق هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

ولو نظروا في القرآن وهو الكون المقروء، لبلغوا هُداهم، ونالوا تقواهم، ولكن الهوى أعماهم، والشقا غلبهم وأرداهم، والمكابرة منعتهم، والغرور أصمَّهم وأهواهم .

وهذا الكتاب الذي أتشرف بتقديمه رسالة علمية نال بها شيخنا الفقيه المفكر درجة التخصص في العقيدة الإسلامية، والمذاهب الفكرية، كتبها بقلمه وسطرها رسائل من قلبه وعاطفته، قلبًا يعتصر ألما وقلمًا يحترق أسى؛ لحال أولئك الذين جنحوا للإلحاد، وأوصدوا كل منافذ التفكّر، وقنوات التبصُّر، وجحدوا بآيات الله، وصدوا عن سبيله، وأعرضوا عن دعوة رسله، وصدفوا عن كتبه، وتعلقوا بأهداب فلسفات مادية نفعية وتمسكوا بشبهات وأباطيل وهمية، وتركوا البرهان والدليل، وهجروا الوحي والتنزيل، وآثروا اللذة الحاضرة، والسعادة الآنية على نعيم خالد، وسعادة أبدية.

---

(١) سورة الجاثية الآيتان:(٢٣ – ٢٤) .

وشيخنا الكريم قد جال كثيرا في أقطار العالم، وحاور كثيرا من أهل الأهواء، مما دفعه إلى معالجة هذه القضية في أطروحته العلمية، والتي شرفت بمتابعتها من خلال مدارسات دارت بيننا، كما شرفت بمناقشتها، فاستفدت منها أيَّما استفادة، نفعنا الله بعلم شيخنا وبارك في عمره.

وإني لأوصي الباحثين والداعين والمربين بقراءتها، كما أنها رسائل موجهة لمن سلك طريق الإلحاد، هذا الطريق الموحش الذي لا ينتهي بصاحبه إلا إلى شقاء أبديٍّ، وعذاب سرمديٍّ، فيخسر آخرته كما يخسر دنياه، وهل يحتاج وجود الله إلى دليل أو برهان وهو الذي يتجلى في كل ذرة من الذرات!

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وختاما! جزى الله فضيلة الشيخ العلامة خير الجزاء على هذا العمل الذي بذل فيه غاية الجهد ونفع به كل من قرأه وكتب له القبول .

أ.د/ أحمد محمد الشرقاوي سالم

استاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر

وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة

والأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقا

٤/ ٣/ ٢٠٢٤م

١ رمضان ١٤٤٥هـ

مقدمة المؤلف

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى....وبعد :

يعاني العالم المعاصر من مشكلات كثيرة، فبالرغم من التقدم المادي الهائل الذي وفره العلم لحياة الإنسان ورفاهيته، إلا أننا نعيش في ظل مشكلات خطيرة، ومن هذه المشكلات: القلق والاضطراب النفسي، وانتشار الجريمة، وضعف الأخلاق، والانحلال والفساد، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ولا يكاد يخلو بلد من بلدان العالم من هذه المشكلات، ولم يستطع تقدم الإنسان المادي أن يقضي أو يخفف من هذه المشكلات ، بل كلما ارتقت حياة الإنسان المادية كلما ازدادت مشكلاته الفكرية والسلوكية.

ولا يمكن صلاح حال الإنسان سلوكيا وفكريا بمجرد نظريات ودراسات يعارض بعضها بعضا، ولا تعدو أن تكون نتاجا لمؤثرات بيئية أو أيدلوجية معينة، وتعالج مشكلات خاصة في بيئة محلية أو إقليمية خاصة، كما أنها نتاج بشري أرضي محدود، لا ترتقي بالإنسان وإنما تهبط به إلى الأرض.

بعيداً عن المكابرة والعناد المصطنع لابد من الخضوع والتلقي من قبل قوة أكبر واقدر، قوة أحاطت بكل شيء علما وأحصت كل شيء عددا، قوة لا يغيب عن علمها مثقال ذرة، قوة خلقت الإنسان وتعلم خبيئة نفسة ووساوس صدره... ذاك هو الله... الذي ظهرت حكمته وتجلت قدرته في الكون والإنسان والقرآن .

ولقد أُصيبت البشرية قديما وحديثا بمن نظروا للأديان السماوية على أنها سبب للجرائم التي ترتكب، والحروب التي تدمر، وأنها مرجعٌ لكل شرور العالم، وأنه لا إله إلا الطبيعة. وهدفهم: التحلل من كل المحرمات، وفعل كل المحظورات وإفساح المجال للجسد لينعم بما شاء بدعوى الحرية والإبداع...

ويحاول المعاندون والملحدون بكل وسائلهم، ابعاد الخالق عن الخلق، ابعاد الإنسان عن ربه، فصل السماء عن الأرض.

وروَّج هؤلاء لفكرهم بنظريات ومسميات: كالتنوير، والنهضة والعلمانية... وغيرها، فانخدع بها قليل التحصين، ضعيف اليقين، راغب في التحلل من قيود الدين، أو منبهر بحضارة الغرب رافضٌ لما آلت إليه أحوالُ المسلمين في الشرق، ولأسباب عدة يأتي على رأسها الهزيمة الداخلية للنمحرف فكريا والهارب من الفشل، مع جملة من الأسباب الاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والتعليمية، والنفسية، والإعلامية...

ومما زاد من خطر التيار الإلحادي حديثاً ظهور الفضائيات، ووسائل التواصل الاجتماعي، حيث أطل الملحدون عبرها، وخلعوا عن أنفسهم أقنعة الخجل المصطنع، واحتفت بهم المجلات، وحلوا ضيوفا على الفضائيات، لينفثوا عبرها سمومهم، ويعلنوا صراحة عن إلحادهم، فألصقوا بالإسلام كل نقيصة،

وعدوه أول أسباب الرجعية، والإرهاب، وتفننوا في استخدام مصطلحات ونظريات، وشعارات أَخْفَوْا خلفها هدفهم؛ لينخدعّ قليلُ الخبرة بمكرهم.

أمَا وقد تحول الملحدون من حالة الخفاء، إلى الإعلان عن أنفسهم بشتى وسائل التواصل الحديثة بأسماء مستعارة أو حقيقية، وأضحت لهم غرف للحوار، ومواقع وصفحات تحوي أفكارهم وتلح في دعوة غيرهم، ويزداد خطرهم في أن بعضهم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، فقد صار الأمر خطيراً، ويحتاج إلي مواجهة علمية مدروسة؛ لبيان خطر الإلحاد علي العقيدة، والأخلاق، والانتماء للوطن والأمة.

وحيث إنه لا يمكن لمؤسسة واحدة أن تتحمل مسئولية مواجهة التيار الإلحادي بمفردها، فلابدّ من تضافر جهود المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية والاجتماعية والثقافية والرياضية لمقاومة وبيان زيف تلك الأفكار وخطئها وخطرها...

من أجل ذلك وللقيام ببعض ما يجب على العلماء والباحثين فعله عزمت – بعون الله- على دراسة نشأة الإلحاد وأسبابه وخطره على العقيدة والأخلاق، والرد العقلي والعلمي على أهم مزاعم الملحدين المعاصرين ، والرد على طعنهم في بعض أحكام الشرية الإسلامية.

والله حسبي ومعيني.

محمد عبد الفتاح إسماعيل

القاهرة في ١٠ يناير ٢٠٢٤م

تمهيد: حول مفهوم الإلحاد

- أولاً: أصل كلمة الإلحاد .
- ثانيا: مفهوم الإلحاد في القرآن الكريم .

أولاً: أصل كلمة الإلحاد

من خلال مراجعة مادة (لحد) في المعاجم تبين أن معاجم اللغة حددت الإلحاد في الدين بأنه الميل أو العدول عنه، أو الكفر، وكان تفسير الإلحاد بالكفر واضحاً في القواميس الحديثة.(١) .

والمفهوم الاصطلاحي للإلحاد ينبني على معناه اللغوي، فإذا كان أصل كلمة الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد والجور عنه، والإعراض، فالإلحاد اصطلاحاً: «هو الكفر والشك في الله، ولكن الناس يطلقون هذا اللفظ تارة على إنكار وجود الله، وتارة على إنكار علمه وعنايته، أو قدرته وإرادته، ويكفي أن ينكر المرء أصلا من أصول الدين، أو اعتقادا من الاعتقادات الشائعة، حتى يتهم بالإلحاد» (٢). وجاء أيضاً أن الإلحاد: « مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله».(٣) ويرى ثالث أن المراد بالملحدين: « من أنكروا وجود رب خالق لهذا الكون، متصرف فيه، يدبر أمره بعلمه وحكمته، ويجُري أحداثه بإرادته وقدرته، واعتبار الكون أو مادته الأولى أزلية، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار الحياة – وما تستتبع من شعور وفكر حتى قمتها الإنسان – من أثر التطور الذاتي للمادة «(٤).

والذي يبدو من خلال عرض بعض تعريفات الإلحاد اصطلاحاً أن مفهوم الإلحاد يكاد يتمحور حول النقاط الخمسة التالية :

١ – عدم اسناد الخلق للخالق- عَزَّوَجَلَّ-، وعزو الموجودات للصدفة، أو الطبيعة، والتطور، أو الدهر .

٢ – إثبات وجود الله مع انكار الحشر والبعث، وهذا مذهب عدد من الفلاسفة.

٣- إنكار وجود الرسل والملائكة والوحي، والاعتماد على العقل.

٤ – إثبات وجود الله وقطع علاقته بالكون.

٥ – إثبات وجود الله والعدول عما يجب له نحو ذاته وصفاته وأسمائه وآياته ، ومن تنزلت عليه الرسالة

---

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ص (١٩٩٦-١٩٩٧). وانظر: المعجم الوجيز ص ٥٥٢ ، وانظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج٨، ص ٣٢٩، دار الفكر، بيروت.

(٢) المعجم الفلسفي ، دجميل صليبا، ص (١١٩-١٢٠)، دار الكتاب اللبناني، (١٩٨٢م)

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، ج٢، ص ٨٠٣، الندوة العالمية للشباب المسلم، ط٤، الرياض .

(٤) كواشف زيوف، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٤٣٣، ط٢، دار القلم ، دمشق، ١٩٩١م .

ثانيا: مفهوم الإلحاد في القرآن

لا يختلف مفهوم الإلحاد في القرآن عن أصل مفهومه في اللغة، ولكن الشرع قد خصه بالميل عن الحق، والانحراف إلى الباطل.

وقد ورد لفظ الإلحاد في القرآن في عدة مواطن، من ذلك:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١] أي: يجورون في أسمائه (عز وجل)عن الحق، ويميلون بها عن معانيها، وعن كمالاتها.

قال الطبري[٢]: وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها، ونقصوا منها، فَسَمُّوا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو «الله»، وسموا بعضها «العُزَّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز»[٣].أ.هـ

٢- وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: يميلون عن الحق في أدلتنا)[٥]. أي يُحَرِّفُون في دلالاتها ومقاصدها، ويميلون بها عن الحق، والهدى الذي جاء فيها بتفسيرات يتبعون فيها أهواءهم ومذاهبهم.

٣- وقول الله (عز وجل): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦] أي: ومن يرد فيه عملا مصحوبًا بميل عن صراط الله بظلم في حق الله، أو حق عباده، كالصد عن سبيل الله، والعدوان على حقوق عباد الله، فجزاؤه أن يذيقه الله من عذاب أليم.

---

(١) الأعراف :١٨٠.

(٢) محمد بن جرير الطبري، ولد بآمُل عاصمة إقليم طبرستان، وتوفي في بغداد (٢٢٤- ٣١٠ ه)، مفسر، ومؤرخ، وفقيه، له التصانيف العظيمة منها تفسير القرآن. انظر: طبقات المفسرين - أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر هـ -(ص٥- ٤٨)

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري ص ٢٨٣ ج ١٣

(٤) فصلت: ٤٠.

(٥) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ).

(٦) الحج جزء من الآية : ٢٥ .

« والمراد بالإلحاد في الآية:» الميل والحيدة عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك الكفُر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه، وترك شيء مما أوجبه»[١].

٤- وقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [٢] «أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل فتميل إليه عن غيره، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه»[٣].

« ويلاحظ أن فَهم المفسرين لمادة «لحد» في القرآن الكريم: بأنه ميل عن دين الله إلى درجة الكفر، إلا آية واحدة في سورة الحج، فسروا الإلحاد فيها بأنه معصية في الحرم، وهي أشد من المعصية في غيره»[٤] . بينما «اطلق ابن عاشور :الظلم في آية الحج على الإشراك والمعاصي لأنها ظلم للنفس» [٥].

(١) أضواء البيان (٥/ ٦٢)، محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى١٣٩٣ ه)، دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة (١٤٣٣ هـ).

(٢) الجن جزء الآية (٢٢).

(٣) بدائع الفوائد؛ (١/ ١٦٩)، شمس الدين ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ).

(٤) جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة الفكر الإلحادي، د محمود عبد الحكيم عتمان، ص ٢٣.

(٥) التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ج١٧ ، ص ٢٣٩ .

الباب الأول:
أسباب الإلحاد وجذوره عند الغرب والمسلمين

ويشتمل على ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول: أسباب إلالحاد قديمًا**
- **الفصل الثاني: جذور الإلحاد في الغرب**
- **الفصل الثالث: جذور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية**

الفصل الأول: أسباب الإلحاد وخصائصه

مدخل: بداية لم يثبت أن أمة من الأمم الماضية انتهجت الإلحاد مسلكا وتخلت عن مظاهر التدين أيا كانت صورته، إذ كل الحضارات القديمة تشهد لها معابدها بمكانة الدين في نفوسهم، وتأثيره في قيام حضارتهم، وما من أمة من الأمم إلا ونلمس فيها ظاهرة التدين.

يقول (هنري برجسون)[١]: (توجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة)[٢].

ويقول ول ديورانت[٣]: (ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعا اعتقادا سليما، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية)[٤].

أما الإلحاد فقد عُرِف عند أفراد قلائل لم يمثلوا ظاهرة، فضلاً عن أن يكونوا أمة من الناس. وأكثر فلاسفة العالم القديم، كانوا يقرون بألوهية الله، ومنهم أشهر فلاسفة اليونان مثل سقراط[٥]، وأفلاطون[٦]، وأرسطو[٧]، ولم يكن الإلحاد إلا مذهب قلة من المدرسة المادية كما سيأتي.

والحق: أن الإنسان نشأ موحدا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ثم طرأ عليهم الشرك والوثنية، فكان التوحيد هو الأصل، والوثنية والشرك طارئان عليهم، وليس العكس.

---

(١) هنري برجسون (١٨٥٩- ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي، فاز بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢٧م.

(٢) الدين د/ محمد عبدالله دراز صـ٨٣ دار القلم الكويت.

(٣) وِل ديورانت: مؤرخ وفيلسوف وكاتب أمريكي، وفاته (١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م) .

(٤) قصة الحضارة ج ١ صـ ٩٩.

(٥) سقراط: فيلسوف إغريقي، أستاذ فلاطون، ت ٣٩٩ ق. م .

(٦) أفلاطون: فيلسوف إغريقي، أستاذ أرسطو، وتلميذ سقراط، كان موحداً يقول بأن للعالم صانعًا أزليًا واجبًا بذاته، ينكر عبادة الأصنام ويقول بحدوث العالم، من مؤلفاته: (الجمهورية الفاضلة) و (الدفاع عن سقراط)، ت ٣٤٨ ق.م الوفيات والأحداث (ص: ٣).

(٧) أرسطو: فيلسوف إغريقي، ملقب بـ (المعلم الأول)، ويُسمى (أرسطوطاليس)، ومعناه: محبة الحكمة وقيل: محبة الفضيلة، أستاذ الإسكندر المقدوني وتلميذ أفلاطون، كان بارعًا في الطب لكن غلب عليه علم الفلسفة، أول من قال بقدم العالم، وكان يرى أن (الإنسان حيوان اجتماعي) من مؤلفاته: (ما بعد الطبيعة) ت ٣٢٢ ق. م الوفيات والأحداث (ص: ٤).

المبحث الأول: أسباب الإلحاد قديمًا

ونستخلصها في الآتي:

١- التصورات المشوشة عن مفهوم الألوهية:

حيث قل وجود تصور معقول عن مفهوم الإله الخالق -(جل جلاله)- فكانت القبائل والأمم تتخذ آلهة متعددة ولوظائف معينة، ويمكن استبدال إله بآخر، والموازنة والترجيح بين الآلهة المتعددة.

يقول أ/ العقاد: (يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة، مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب وهي[١]:

أ- دور التعدد ب- دور التمييز والترجيح ج- دور الوحدانية

ويشير إلى أن القبائل الأولى في دور التعدد، تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور، وتقبل الصلوات والقرابين.

وفي الدور الثاني: وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها.

وفي الدور الثالث: تتوحد الأمة، فتجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها).

ثم يشير أ/ العقاد إلى السر في ظهور تلك الثنائية بعد الوحدانية: (أن الإنسان يترقى هذا الطور، فيحاول تفسير الشر في الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير... فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى، بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله، والارتفاع لصفاته إلى أرفع صورة الكمال)[٢].

وكان على أستاذنا- العقاد- أن يبدأ بطور التوحيد الفطري الذي أشار إليه القرآن، قال تعالي:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٣]، قال ابن كثير: « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ...قال قتادة: كانوا على الهدى

---

(١) وهذا التقسيم فيه نظر فالأصل هو التوحيد الخالص، ثم كانت الوثنية قال تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾. إلا إذا كان المراد المراحل التي تلت مرحلة التوحيد الخالص.

(٢) انظر: الله، أ/ العقاد صـ٢٨، ٢٩ (بتصرف) ط٤ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ٢٠٠٥ م.

(٣) البقرة، جزء من الآية: ٢١٣ .

جميعا»[١]،فالبداية كانت توحيداً وإيمانـًا بالله.

ولم يكن ذلك التصور حول الإله خاصا بأمة دون أخرى، ولا بحضارة دون حضارة، بل كان ذلك التصور المشوه قاسما مشتركا بين كثير من الأمم، وفي كل الحضارات قديما. لكن اللافت أن تلك الآلهة- ربما- كانت تمثيلا للظواهر الطبيعية تبعا للمكان الذي يعيش فيه الناس، فكانت البيئة المحيطة حاملا لذلك التنوع والتعدد قديما.

(تنوعت الأديان وتعددت كما تعددت الآلهة والمعبودات، فنجد من يعبد جبلا أشم، ومن يعبد الحيوانات المفترسة أو الأليفة، ومنهم من يعبد الأنهار والبحار... أما سكان الصحاري من القبائل، فلم يجدوا لهم هاديا ولا مرشدا في الطريق إلا النجوم فعبدوها، وتنوعت عبادتهم للنجوم، فمنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الشمس أو القمر، أو كليهما معا، وحاكوا من حولها الأساطير، والخرافات التي تشيد بعظمة هذه الكواكب الآلهة، ومن لا يجد هذا ولا ذاك، صنع لنفسه تمثالا يرمز لعزيز عليه مات من زمن، أو ملك عظيم اندثر في التراب، ويطلب حمايته، أو جبار في الأرض يتمنى رضاه)[٢].

وكان من نتيجة ذلك التخبط: أن اخترع الإنسان لنفسه معبودات أعطى لها أشكالا مختلفة، واندفع في ذلك الاتجاه اندفاعا لا إراديا وفق البيئة التي تحيط به، والهواجس التي تنتابه. يقول أدولف إرمان: (ولقد كانت الصدفة وحدها هي التي شكلت هذه الآلهة، فترى الإنسان يتمثل معبودا معينا على أنه إله واحد، وأحيانا يتمثل معبودا آخر على أنه عدة آلهة، كما أعطى البعض لمعبوداته شكلاً مجسمـًا، ورأى: في البعض الآخر أنها أشياء روحانية غير مجسدة...، وديانة أي شعب تتأثر بطبيعة البلاد التي يسكنها، والحياة التي يحياها، فبيئة الإنسان الذي يسكن شواطئ البحار، تختلف كل الاختلاف عن بيئة الذي يسكن الغابات أو السهول، وليس من شك في أن الشعب الذي يعيش مستقرا في حقوله الخصبة، يفكر في آلهة تختلف في كنهها عن تلك التي يتخيلها شعب فقير»[٣].

يبدوا لي أن هذه التحليلات وذلك التأريخ للأديان قائم على إنكار الرسالات الإلهية ونفي الوحي.

ويبدو: أن ذلك التخبط في تصور الإله كان بسبب شيوع الجهل وتوارث الأجيال لتلك التصورات، ثم الطبيعة والبيئة، والحب والكره، والخوف والأمن، والجدب والخصب، فكل بيئة أسهمت في تصور الإله بصورة لها ارتباط بحاجة ما في صدور أهل تلك البيئة، ولا شك أن ذلك التصور يصاحبه في كثير من

(١) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، ج١، ص ١٨٧، دارالقرآن الكريم، بيروت ط٤، ١٤٠١ هـ.

(٢) أشهر الديانات القديمة، لطفي وحيد صـ١٠، المركز العربي للنشر والتوزيع، الإسكندرية ٢٠٠٤م.

(٣) ديانة مصر القديمة، أدولف إرمان، صـ٢٠ ترجمة د/ عبدالمنعم أبو بكر، د/ محمد أنور شكري.

الأحيان وصف الإله بالعجز والنقص مما ترتب على ذلك من رفض بعض الناس لهذه الفكرة، واتجاههم نحو الإلحاد في تصور الإله، ولو بشكل جزئي.

٢- انتشار الأديان الوثنية وما صاحبها من خرافات:

انتشرت تلك الأديان عند الفراعنة، واليونانيين، وغيرهما من الأمم والحضارات، وكانت حافلة بالخرافات والأساطير، ومحاطة بهالة من الأكاذيب، والقصص المختلق المتوارث، حول أوثانهم التي شاركت معهم في الحروب، وحمتهم من عدوهم، وأغاثتهم من القحط والجدب.

يقول د/ خان: (وإذا رجعنا إلى بعض أبيات وأساطير الأدب الجاهلي رأينا الصنم «يغوث» يشترك في حروب القبيلة، كما نرى العربي يستغيث ويستنصر (هبل) في غزوة أحد[١])[٢]. (وكما في أسطورة أوزيريس في مصر القديمة، والذي قتله أخوه (ست)، ودفن أعضاءه في أماكن متفرقة؛ فاستطاعت زوجته (إيزيس) أن تجمع أعضاءه، وتعهدتها بالصلوات حتى دبت فيها الروح؛ فحملت منه بابن وهو (حورس) فأنكره عمه؛ لما نازعه المُلك لكن الآلهة أنكرت دعوى ست...)[٣]

والأساطير الدينية اليونانية جعلت ملوكهم (آلهة يتحكمون في الأرض، ويعطون الأوامر للرعد، والبرق، والصواعق؛ لتدمر أعداءهم، وتصوروا آلهتهم جبابرة، وعمالقة، وأن أحدهم بعين واحدة، وخمسين رأسا، ومئة قدم ومئة يد...)[٤].

ولذلك: يهتم الملحدون عبر مواقعهم، وكتاباتهم، بسرد ونقل تلك الأساطير باعتبارها مصدراً لتوهم وجود آلهة، وأن الأديان ما هي إلا جملة من الخرافات- من وجهة نظرهم -.[٥]

٣- شيوع الفلسفات والنظريات المادية:

لقد أثرت النزعةُ المادية الطبيعية في الفلسفة اليونانية القديمة ، فذهب الفلاسفة مذاهب شتى في بيان المبدأ الأول الذي تكوَّن منه الكون.

---

(١) جاء في الحديث (عن البراء (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال: لقينا المشركين يومئذ... وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ... قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: « قولوا: الله أعلى وأجل « قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم»...) أخرجه البخاري (٤٠٤٣)، كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد.

(٢) الأساطير العربية قبل الإسلام، د/ محمد عبد المعيد خان صـ٣٩ ،

(٣) انظر: الله / العقاد، ص٦٥ «بتصرف»، مرجع سابق.

(٤) انظر: الأسطورة اليونانية، الأب: فؤاد جرجي بربارة صـ ٧٠، ٧١»باختصار»، الهيئة العامة السورية للكتاب/ ٢٠١٤م

(٥) انظر موقع: شبكة الملحدين العرب، مقال بعنوان/ من أساطير اليونان القديمة.

(ذكر (طاليس[١]) (٦٢٤- ٥٤٦ ق.م) أن الماء هو: المبدأ الأول الذي تتكون منه الأشياء، وذكر (أنكسمندريس[٢]) (٦١٠- ٥٤٧ ق.م) أن المبدأ الأول: لا يمكن أن يكون معينا، وإلا لم نفهم أن أشياء متمايزة تتركب منه، فدعا المادة الأولى باللامتناهي، وقال: إنها لا متناهية بمعنيين: من حيث الكيف أي لا معينة ومن حيث الكم أي لا محدودة، فهي مزيج من الأضداد.

وذكر: (أنكسيمانس) (٥٨٨- ٥٢٤ ق.م) أن المادة الأولى هي: الهواء، وأن الهواء لا متناه يحيط بالعالم، ويحمل الأرض[٣]، ونجد أيضا هذه النزعة المادية في المذهب الذري في الفلسفة اليونانية ما قبل السقراطية عند: (لوقيبوس)[٤] (القرن الخامس قبل الميلاد) و (ديموقريطس[٥]) (٤٦٠-٣٧٠ ق.م)، وفيه: أن كل شيء مكون من أجسام صغيرة غير قابلة للتجزئة، والأجزاء هذه متشابهة من حيث مادتها، ولكنها تختلف فيما بينها من حيث الشكل، والوضع، والترتيب، ومن تَجَمّع الذرات تتكون مختلف الأشياء)[٦]، وأنصار النزعة المادية لنشأة الكون قالوا بأزليتها واستمرار بقائها.

(لقد ظل الماديون طوال قرون في أمر مختلف بالنسبة لأزلية المادة، ظنوها بادئ الأمر هذه النجوم والكواكب الضخمة التي يشاهدونها، والتي يخيل لمخلوق ضعيف معدود الأيام كالإنسان أنها أزلية؛ لأنها فيما يظن بقيت على حالها التي عرفها آباؤه وأجداده، وكل البشر قبله، فما المانع إذن من أن تكون قد كانت على هذه الحال منذ الأزل؟ وما المانع من أن تظل هكذا إلى الأبد؟ وإذا كانت أزلية فإنها لا تحتاج

---

(١) من ملطية - مدينة تركية تقع شرق الأناضول- كان حكيما، تنبأ بالكسوف الذي وقع، وقد نظم تحويل مجرى أحد الأنهار، وتضمنت اكتشافاته الرياضية والفلكية طرائق القياس كقياس ارتفاع الأهرام مثلا، وجمع سجلا بالنجوم ليستخدم في الملاحة. انظر؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة (١٩٩)، جوناثان ري، وج. أو. أرمسون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م.

(٢) من ملطية، كان من بين جهوده العلمية أن وضع خريطة مشهورة للعالم، وله نظرية في نشأة الحياة مسايرة لنظريته في نشأة العالم: فالكائنات الحية الأولى التي تولدت من مادة مخاطية أولية بتأثير حرارة الشمس ، وانتقلت إلى الأرض الجافة، وقد نما الإنسان في البداية في جوف نوع من أنواع السمك . انظر؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة (٧٣).

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية (١٦-٢٢) د/ يوسف كرم، مكتبة الثقافة الدينية ط٢، ٢٠١٣م القاهرة.

(٤) من المحتمل أنه مواطن من مدينة أبديرا ببلاد الإغريق، وعلى الرغم من أهميته العظمى باعتباره أول من وضع النظرية الذرية، فإن شخصيته غامضة لا نعرف عنها الكثير من التفصيلات، ولم يبق من عمله كله غير جملة واحدة مشكوك في صحة نسبتها إليه. انظر؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة (٢٧٠).

(٥) ولد في أبديرا باليونان، أحد مؤسسي النظرية الذرية، وهو لم يكتب في النظرية الذرية العامة وفي علم الكون فقط، بل كتب أيضا في الإدراك الحسي، وعلم الحياة، والموسيقى وموضوعات أخرى كثيرة. انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة (١٤٦).

(٦) انظر؛ أطلس الفلسفة: (٣١)، بيتر كونزمان، فرانز بيتر بوركارد، اكسل فايس، ترجمة:دكتور جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الثالثة(٢٠١٢).

إلى خالق، وهذا ما عناه الفلاسفة الذين قالوا بأزليتها، فإن آخرين - منهم البابليون الذين جادلهم سيدنا إبراهيم (عليه السلام) قد قالوا بألوهيتها وعبدوها[١].

وتعد تلك النظرة المادية لنشأة الكون وبدايته، هي الأساس الذي بنيت عليه الفلسفات الوجودية، ونظرية التطور، وما يستند إليه الملحدون حديثا، والذين يردون بداية الكون للمادة والصدفة، نافين يد القدرة الإلهية عن إنشاء الكون، والإنسان.

٤ - عدم وصول الرسالات السماوية:

فعدم وصول الرسالات السماوية، أو وصولها وعدم اتباعها، أو وصولها وتحريفها كل هذا يضاف لأسباب الإلحاد قديما، ومما يدعم هذا السبب أيضا أن الرسالات قبل الإسلام كانت محلية، ولم تكن عالمية.

ثم إن كثيرا من الأقوام الذين بعث فيهم المرسلون ظلوا على كفرهم، أو آمنوا متأثرين بما كانوا عليه قبل إيمانهم من خرافات وأساطير، فاختلطت العقائد السماوية بالأساطير، والخرافات الأرضية، فوصول الرسالة يعنى تصحيح الأفكار والمفاهيم المتعلقة بمفهوم الألوهية، ومن الأمثلة لدور الرسالات في تصحيح الفكر وتقويمه، أن العرب المشركين الذي بعث فيهم رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانت ألسنتهم تجري بما تعودت عليه من الكلام والحلف، فكان بعضهم يحلف باللات والعزى فنهاهم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن ذلك، وقال (من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله)[٢].

والخلاصة: أننا نلتمس عذرا لباحث عن الحق بغير هدى من رسالة سماوية، ما دام لم تصله تلك الرسالة لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [٣]

لكن لا عذر لبشر في أن يعتقد في الله بغير ما أنزله على رسله (عليهم السلام) بعدما بلغته الرسالة.

٥-الخلل العقدي في تصور الإله عند اليهود والنصارى:

من أسباب الإلحاد قديمًا، الإلحاد اليهودي والمسيحي في تصور الإله، فقد وصف اليهود الذات الإلهية بصفات توحي بالتجسيد، والبشرية، وقد عدد القرآن كثيراً من ذلك كقولهم فيما حكاه القرآن عنهم

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق، د/ جعفر شيخ إدريس صـ٧٢ ط١، ٢٠٠١م - الناشر مجلة البيان، الرياض

(٢) رواه البخاري (٦٦٥٠) من حديث أبي هريرة، كتاب: الإيمان والنذور، باب: باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت، وأخرجه مسلم (١٦٤٧)، كتاب: الأيمان، باب: باب من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله.

(٣) الإسراء جزء الآية (١٥)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (١)، وقولهم ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾(٢) ، وقولهم ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾(٣).

وقول اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (٤)، وقول النصارى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٥).

ذلك الشطط في تصور الإله مثَّل دافعا وعاملاً من عوامل الإلحاد في البيئات اليهودية والنصرانية، ولقد اكتفيت ببعض النصوص القرآنية،علمـًا أن كتبهم الموجودة في أيديهم تحوي كثيراً من الأمثلة لذلك التصور الخاطئ(٦)

ما سبق يمثل اجتهاداً وتصوراً لأسباب الإلحاد قديما لدي كافة الأمم، والشعوب، والحضارات.

(١) آل عمران، جزء من الآية: ١٨١ .

(٢) المائدة، جزء من الآية: ٦٤ .

(٣) النساء، جزء من الآية: ١٥٣ .

(٤) المائدة، جزء من الآية : ١٨ .

(٥) المائدة، جزء من الآية : ١٧ .

(٦) انظر:سفر الخروج ٩:٢٤ – ١١، سفر القضاة ٦: ١١-٢٥، وانظر: إنجيل يوحنا١: ١-١٤، ورسالة بولس لأهل فيلبي ٢: ٦-١٠ .

المبحث الثاني: الخصائص العامة للإلحاد قديمًا وحديثاً

يتصف الإلحاد قديما بعدة خصائص تميزه عن الإلحاد المعاصر ومنها:

١- في غالبه لم يكن إلحادا بالمفهوم الاصطلاحي، والذي يعني إنكار وجود الله ورفض الأديان، وإنما كان اجتهادا فلسفيا فكريا من قبل الحكماء والفلاسفة حول نشأة الكون وبدايته، أو كان خليطا من الخرافات والأساطير المحلية المتوارثة لدى العامة.

٢- الإلحاد القديم كان أعمق طرحا، وأدبا وانفتاحا، خاصة من قبل الفلاسفة، بخلاف الإلحاد المعاصر، والذي يمثل حالة سطحية غوغائية لا تمت لأدب الحوار بصلة، كما كانت الأفكار الإلحادية شخصية فردية، لا تمثل مذهبا فلسفيا، بخلاف الإلحاد الحديث، فهو أكثر تنظيما، ويمثل ظاهرة في بعض المجتمعات الغربيه، وجماعات تدعوا له وأحزاب تنصره.

٣- الإلحاد القديم -غالبًا- كان مرده اجتهادات يكون هدفها الوصول للحق دون إسفاف، بخلاف الإلحاد المعاصر، والمبني على جملة من الأكاذيب المتمسحة بالعلم كذبا، والافتراضات التي لا يقبلها عقل، ولا يصدقها واقع، والتوهمات التي تنتهي إلى لا شيء. فالإلحاد اليوم محاط بهالة من الافتراءات والأكاذيب، والدعايات الإعلامية المبالغ فيها.

٤- لم تظهر روح العداء لدى الفلاسفة الأقدمين للإله ولا للأديان - غالبا - بخلاف الإلحاد المعاصر، والذي بذل كل جهده للصق كل نقيصة بالأديان، وزعم أنها سبب الكوارث، والشرور التي تجتاح العالم، وأن أتباعها مجموعة من الجهلة كقول ماركس «إن الأديان أفيون الشعوب، وإن الناس يُقْبِلُون على الدين؛ لأنه يُخَدْرِهُم ويُلْهِيهم عن شقاء الحياة» [(١)]، ومواقع الملحدين وكتاباتهم طافحة بتطاولهم على الأديان السماوية، والذات الإلهية [(٢)].

٥- وسائل نشر الأفكار الإلحادية قديما كانت عبر المؤلفات، والتي تحوي أفكارا تتعلق بنشأة الكون، أما اليوم فأصبحت للملحدين قنوات تلفزيونية، وموجات إذاعية ووسائل دعائية، ومحاضرات، ومناظرات ومطبوعات، ومواقع إلكترونية، ومنتديات، وجهات تمويل ودعم.

يقول شيخ الأزهر (إن الإلحاد في القرن الثامن عشر وهو القرن الذي نشأ فيه الإلحاد، كان يعرض نظرياته بشيء من الأدب، واحترام المؤمن، بخلاف الإلحاد المعاصر الذي تبجح بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وأعلن حربا على الأديان، وخاصة على الإسلام...، وأضاف: هناك شركات ومؤسسات تدعم الاتجاه الإلحادي الجديد، وتمده بالأموال، وتطبع أبحاث الملحدين وكتبهم، ومن هنا ظهر إلحاد

(١) الدين أفيون الشعوب، عباس العقاد، ص٧، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة .

(٢) مثل موقع ، الحوار المتمدن ، واتحاد الملحدين العرب، وقناة الملحدين العرب، والملحدين المصريين...

له أنياب وأظافر ومخالب يتسلط بها على الأديان وعلى الإسلام بالذات، وأصبح له مراكز وبرامج ومناهج ومفكرون ومواقع إلكترونية وأفلام وثائقية تُنتَج على أعلى مستوى، حتى أفلام للأطفال لنشر الإلحاد والتبشير به في العالم كله)[1].

هذه أبرز خصائص الإلحاد القديم، وأهم الفروق بينه وبين الإلحاد المعاصر.

(١) البوابة نيوز، ١٥/ ٦/ ٢٠١٦، بيان لفضيلة الإمام د/ أحمد الطيب: نواجه حربا من شركات ومؤسسات تدعم الإلحاد.

الفصل الثاني: جذور الإلحاد في الغرب

المبحث الأول: جذور الإلحاد في الغرب

من الصعب معرفة تاريخ محدد لظهور الإلحاد في الغرب[١]، لكن ذلك لا ينفي وجود عدد، ولو قليل من الملحدين من الفلاسفة وغيرهم.

وتكمن الصعوبة في أن المفاهيم العقدية النصرانية[٢]، واليهودية كانت متأثرة بغيرها من الأديان والأساطير البشرية، إضافة إلى أن مفهوم الإلحاد لم يكن محددا، وإنما كان فضفاضا واسعا يعني جملة من التهم الدينية الوثنية وغيرها مثل: الزراية بالآلهة، أو المروق الديني، أو الهرطقة[٣]، وكان الإلحاد بمعناه الضيق والذي يعني إنكار وجود الله، مختلطا بغيره من المفاهيم.

يقول د/ رمسيس عوض[٤]: (قبل ظهور المسيحية اتهم الإغريق عددا من فلاسفتهم وأدبائهم ومفكريهم بالهرطقة، منهم «سقراط»[٥] الذي حكم عليه بشرب السم عام ٣٩٩ ق.م، فضلا عن أن الأثينيين ألصقوا الهرطقة بعدد من الأدباء والفنانين مثل النحات (فيباس) نحو (٥٠٠ ق.م) والكاتب التراجيدي (يوربيدس ٤٠٧ ق.م)[٦]. كما كان الملحد الحقيقي مشمولا مع غيره من الربوبيين و اللاأدريين و اللادينيين وغيرهم من منكري الآلهة.

ومما يرجح وجود الإلحاد في الغرب في العصور الوسطى، أن البيئة الغربية كانت حُبلى بالفلسفات اليونانية المادية وغيرها من الأساطير والخرافات، والتي أثرت على اليهودية والنصرانية، مما جعل تلك البيئة أكثر تقبلا وإقبالا على قبول الفكر الإلحادي، بجانب عدم اقتناع كثير من الفلاسفة، والمفكرين

---

(١) الغرب : أوربا الغربية ، والبلدان الأمريكية . انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ص ١٦٠٣ .

(٢) ينظر بتوسع: الأصول الوثنية للمسيحية، أندرية نايتون، إدغارويند، كارل غوستاف يونغ. ترجمة سميرة عزمي الزين، صـ١٧-٧٥ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت - سلسلة من أجل الحقيقة - عدد رقم ٤

(٣) الهرطقة: عبارة عن رأي ديني مدان كنسيا ومناقض لتعاليم الكنيسة. انظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر صـ١٧ ترجمة جمال سالم، الناشر: دار التنوير بيروت ٢٠٠٧م).

(٤) رمسيس عوض: مفكر موسوعي ومترجم وأكاديمي مرموق، عمل أستاذاً للأدب الإنكليزي في كلية الألسن جامعة عين شمس، تعددت اهتماماته وإسهاماته الأدبية والثقافية والفكرية، كما أنه ناقد ومؤرخ قدم للمكتبة العربية ٨٠ كتاباً يتناول بعضها الأدب العربي المعاصر. ينظر مقال منشور بموقع الحياة بتاريخ ١٦/ ٦/ ٢٠١٥م .

(٥) سقراط: فيلسوف وحكيم يوناني (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) يعد أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك كتابات وجل ما يعرف عنه من خلال تلامذته. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيش صـ٣٦٥.

(٦) الإلحاد في الغرب، د/ رمسيس عوض صـ٧ سينا للنشر ١٩٩٧ م القاهرة.

ببعض العقائد والطقوس الكنسية.

ومما يرجح أيضا وجوده وإن لم يتحول إلى ظاهرة، أن الملحدين كانوا لا يجاهرون به عادة لسببين -كما يبدو -:

١- أن الملحد كان منبوذا من قبل مجتمعه بسبب إلحاده .[١]

٢- الأذى البدني والنفسي بسبب الملاحقة من قبل محاكم التفتيش.

ومن خلال البحث وتتبع بدايات ظهور الإلحاد في الغرب من قبل أفراد وشيع جاهروا به حيث كان ذلك في بداية القرن الحادي عشر الميلادي .

يقول ول ديورانت: (ففي عام ١٠٠٠م ظهرت شيعة في تولوز وأورليان (مدينتان فرنسيتان) تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب، وتنكر وجود المسيح في القربان المقدس، وتأثير صلوات القديسيين، ونشأت شيع ملحدة أخرى شبيهة بهم، وتم إحراق بعضهم، وزاد عدد تلك الشيع على مائة وخمسين شيعة في القرن الثالث عشر...

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر كانت بلدان أوربا الغربية مرتعـًا للشيع الملحدة، حتى قال أحد الأساقفة في عام ١١٩٠م (إن المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين)، وكان من أهم الشيع الملحدة شيعة (البتريائيين) نسبة لأحد الأحياء في مدينة ميلان الإيطالية)[٢].

ويدلل ول ديورانت: على وجودهم بقوله (فمن أشد القوانين ذلك القانون الذي سنه فردريك الثاني فيما بين عامي (١٢٢٠-١٢٣٩م)، وجاء فيه: يُسلَّم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى اليد الزمنية - أي ولاة الأمور المحليين - وأن يحرقوا...)[٣]، فحرق البشر، وهم أحياء وسجنهم من مؤكدات وجود إلحاد في الغرب في العصور الوسطى، وأن ذلك لم يكن قاصرا على الفلاسفة، ولا حتى عوام الناس، وإنما وصل إلى رجال اللاهوت، والذين تبنى بعضهم أفكارا مانوية ، وطعن في العهد القديم.

يقول ج.ويلتر (في نهاية القرن العاشر أبدى رئيس أساقفة رايمز (جليبيردورياك) أفكارا مانوية ورفض العهد القديم، وفي العام (١٠٢٢م) عمد (روبيرالتقي) في أورليان إلى حرق بعض المؤمنين بقوانين

---

(١) حيث كانوا يطردون من مدنهم ، ووظائفهم، ولا يتم توظيفهم، . انظر بتوسع : قصة الحضارة، ج ١٦، ص: ٧٨ ، ٨٤، ٩٠، ٩١.

(٢) انظر: المرجع السابق، جـ١٦ صـ٧٦، ٧٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، جـ١٦ صـ٧٨ ، وانظر الإلحاد وأسبابه - الصفحة السوداء للكنيسة - د/ زينب عبدالعزيز صـ٨١.

الصليب المقدس الذين كانوا يدافعون عن أفكار (ثنوية)[١]، وهم أحياء، وفي السنة نفسها أُعدم (مانويون) في تولوز، ثم يضيف ويلتر (وقد كانت العقائد الزائفة تدخل إلى أسقفية (أراس) بواسطة مرسلين قادمين من إيطاليا والبلقان، وغيرها،...). ومما يؤكد تنامي أعداد الهراطقة، أو الملاحدة في جنوب فرنسا يضيف ويلتر (في العام ١١٤٧م عندما أتى البابا أوجين الثالث إلى فرنسا للدعوة إلى الحرب الصليبية الثانية صدم بعدد الهراطقة الذين يملأون الجنوب). ثم يضيف، (ولقد بلغت الهرطقة نموا مهددا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ولقد دعا البابا إسكندر الثالث في عام ١١٦٣م إلى انعقاد مجمع في تور، بناء على طلب الملك لويس السابع وأطلق اللعنة على هراطقة غاسكونيا ومنطقة تولوز)[٢] .

ثم في بدايات عصر النهضة، وظهور الطباعة ظهرت بعض الآراء الفلسفية والتي حوت إلحادا حقيقيا، أو تمهيدا للإلحاد كظاهرة.

حيث (إن بعض المفكرين من المؤمنين بالدين أو بالله، أو بالدين والله معا، مهدوا دون أن يدروا إلى انتشار الفكر الإلحادي)[٣]، وذلك قبل الثورة الفرنسية ومن هؤلاء:

١-ديكارت[٤] (١٥٩٦-١٦٥٠م): (والذي أتى بنظرية للطبيعة، ومن ثم للعلوم الطبيعية – فحواها: أن الطبيعة بعد أن خلقها الله، صارت مستقلة تماما بقوانينها التي أودعها الله إياها، ولم يعد الخالق يتدخل في شئونها، أو يوقف فاعليتها)[٥] .

قال:عنه (دالمبير)[٦] (ديكارت هو: الذي رسم خط الفصل بين العلوم القديمة والحديثة، وهو الذي غرس الراية التي انضوى تحت لوائها الطبيعيون ليهاجموا اللاهوتيين)[٧].

٢-سبينوزا[٨] (١٦٣٢-١٦٧٧م)، وقد بنى فلسفته على وحدة الوجود، والتحام الطبيعة والله في كيان

---

(١) الثنوية: هم أصل المجوس الذين يقولون بإلهين اثنين هما النور والظلمة، أو الخير والشر، انظر: الملل والنحل صـ٢٩٠ مرجع سابق).

(٢) الإلحاد في الغرب صـ٦٤.

(٣) المرجع السابق صـ٦٤.

(٤) رينيه ديكارت: فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي، أبو الفلسفة الحديثة، من أشهر كتبه «تأملات في الفلسفة الأولى ١٦٤١» يعد من رواد المذهب العقلاني في القرن السابع عشر. انظر: معجم الفلاسفة صـ٢٩٨.

(٥) الفيزياء ووجود الخالق - د/ جعفر شيخ إدريس صـ٢٥ ط١، ٢٠٠١م، الناشر مجلة البيان الرياض.

(٦) رياضي فيلسوف، وموسوعي فرنسي،اشرف على إصدار موسوعة العلوم والفنون والحرف، كما اشتهر بأبحاثه في الرياضيات حول المعادلات التفاضلية والاشتقاق الجزئي. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص ٢٧٩.

(٧) معجم الفلاسفة صـ٣٠٣.

(٨) (ولد بيندكت سبينوزا في عائلة يهودية استقرت في امستردام في هولندا بعد قدومها من ألمانيا هربا من محاكم التفتيش،

واحد، واتُهم بالإلحاد حتى قال عنه أعداؤه (أفجر ملحد عرفته الأرض).

٣- الفيلسوف الإسكتلندي التجريبي دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م): لم يكن ملحدا، ولكن كما يقول د/ رمسيس عوض: (مهد بفلسفته المتشككة الطريق إلى الكفر والإلحاد)[١]

ويقول أيضـًا: (الخلاصة: أن الفيلسوف دافيد هيوم، أنكر وجود العالم الخارجي وقال: إنه وهم وباطل وأضغاث أحلام، وإن معرفتنا به لا تتجاوز إدراكنا الحسي بل شكك في العقل، وعالم الروح والخلود)[٢].

والذي يبدو: أن هيوم كان يتلاعب بالأفكار والألفاظ، ويخشى البوح بإلحاده حتى لا يلاحق، وأن أفكاره تلك هي الإلحاد بعينه.

٤- الفيلسوف الفرنسي الملحد هولباخ (١٧٢٣-١٧٨٩م) صاحب كتاب الطبيعة، والذي كان يُطلق على كتابه (إنجيل الإلحاد) وأعلن أنه ضد الله، والكهنة[٣].

٥- آرثر شوبنهور فيلسوف ألماني (١٧٨٨-١٨٦٠م) كان يَعتبر الدين صناعة بشرية، وضعها البشر، وابتكروها؛ لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية ونفسية، واجتماعية، وكان يزدري المسيحية، ويجل البوذية[٤]، وبعد الثورة الفرنسية وهدم سجن الباستيل توالت النظريات، والآراء الفلسفية الإلحادية كفلسفة بوخنر (١٨٢٤-١٨٩٩م)، والذي زعم (ألا شيء يؤدي إلى الحرية، والتقدم والعقل وإدراك الإنسان لإنسانيته سوى الإلحاد)[٥].

٦- فردريك نيتشة (١٨٤٤-١٩٠٠م): ذلك الفيلسوف الألماني، والذي قال بموت الخالق الأعظم، وأن الدين فكرة عبثية، وجريمة ضد الحياة)[٦].

ومن الذين ألحدوا ودعوا للإلحاد ورفض الدين:

- كارل ماركس[٧] (١٨١٨-١٨٨٣م): والذي قال (الدين أفيون الشعوب)، وقال: الدين يجعل الشعب

يقول بوحدة الوجود. أنظر: الإلحاد في الغرب صـ٦٤).

(١) الإلحاد في الغرب صـ١٢٥.

(٢) نفس المرجع صـ١٢٧.

(٣) معجم الفلاسفة صـ٧١٦ مرجع سابق.

(٤) ملحدون محدثون ومعاصرون صـ١١ مرجع سابق.

(٥) المرجع السابق صـ٣٨.

(٦) معجم الفلاسفة صـ٦٧٧، وانظر: ملحدون محدثون ومعاصرون صـ١٨.

(٧) أول زعماء الشيوعية الإلحادية وأشهرهم: الذي تنسب إليه العقيدة الماركسية المنتشرة في شتَّى أنحاء المعمورة، وُلِدَ «ماركس» في سنة ١٨١٨م، ومات سنة ١٨٨٣م، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها

كسولا، غير مستخدم قدراته في تغيير الواقع، كما آمن أن المادة هي القوة الدافعة للتطور، ولم يخف انكاره لوجود الله، وزرايته بالدين)[1].

ومن خلال تتبع مسار الفكر الإلحادي في الغرب كما سبق -يظهر- أنه نشأ مع نشأة الفلسفة المادية القديمة، وظل متجذرا في كل البيئات والديانات الغربية المختلفة، وفي نفس الوقت لم تتوقف الحرب على المهرطقين في كافة العصور، مما يدل على وجوده.

أما الميلاد الحقيقي؛ لتبلور الفكر الإلحادي، والمتمثل في إنكار وجود الله وإنكار الرسالات السماوية، فكان في القرن الثامن عشر، ثم تحول إلى ظاهرة أعلنت عن نفسها عقب الثورة الفرنسية، وهدم سجن الباستيل (١٧٨٩م) ثم اتخذت بعض الدول الإلحاد دينا، والطبيعة إلها تدعو إليه، وتدافع عنه مثل روسيا الشيوعية ماعُرف بالاتحاد السوفيتي.

-د. غالب بن علي عواجي - (٢/ ١٠٧٦) -المكتبة العصرية الذهبية-جدة - الطبعة: الأولى ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م

(١) انظر: ملحدون محدثون ومعاصرون صـ٣٢ بتصرف مرجع سابق. وانظر: أفيون الشعوب، عباس العقاد، ص ٧، مرجع سابق.

المبحث الثاني: أسباب الإلحاد في الغرب

إن تحول بعض الناس من الإيمان بوجود الله إلى إنكار وجوده، ليس بالأمر الهين، فلا بد من عوامل هيأت، وساعدت على تمدد الفكر الإلحادي في الغرب، وتبنيه لا من قبل أفراد وجماعات فحسب، بل من قبل دول كروسيا الشيوعية مثلا، ومنظمات مختلفة، فلا بد من وجود أسباب أدت لتلك الظاهرة، ومن أهمها:

١- (التناقض الشديد بين كثير من دعاوى الدين الذي ورثوه، والعلم التجريبي الذي اكتشفوه، فقد وجدوا ومازالوا يجدون كثيرا من دعاوى دينهم مخالفة لما أثبتته علومهم التجريبية)[١].

من ذلك مثلا: إدانة العالم «جاليليو» (١٥٦٤-١٦٤٢م)، والذي شكك في نظرية بطليموس حول مركزية الأرض حيث تبنت الكنيسة في وقت سابق القول بمركزية الأرض -أي ثباتها-، وحوكم جاليليو، وعرضت عليه وسائل تعذيب من قبل لجنة المحكمة إن لم يرجع عن رأيه، وقد أدينت أعمال جاليليو، ووضعت في قائمة الممنوعات منذ عام ١٦١٦م، وأمضى بقية حياته معتقلا في منزله، وتنقل د/ زينب عبدالعزيز عن ريبوني قوله : (إن الكنيسة الكاثوليكية قد تباطأت طويلا لكي تعترف بأن الأرض تدور حول الشمس)[٢] .

ومن أمثلة التناقض أيضا: تحديد عمر الأرض استنادا للكتاب المقدس:

من ذلك أن المطران (جيمس أشر)، وهو دارس مشهور للكتاب المقدس استنتج من تحليل متأن لنصوص الكتاب المقدس أن الأرض خلقت في عام ٤٠٠٤ ق.م، ونشرت هذه النتيجة التي توصل إليها رئيس الأساقفة في عام ١٦٥٠م، ولم تلبث أن ألحقت بهامش (سفر التكوين) من النسخة المعتمدة للكتاب المقدس، وظلت به حتى زمان فكتوريا، ولا يزال من الممكن وجودها أحيانا حتى اليوم...

ثم يضيف د/ إدريس: (لم يكن غريبا أن يأتي هذا الزعم من رجل دين يعتمد على كتابه المقدس، لكن الأغرب أن معاصرا لهذا الأسقف وهو مدير لجامعة كيمبردج آنذاك أيد هذا الزعم، بل ذهب إلى أبعد منه، إذ زعم أن (الثالوث خلق الإنسان في الثالث والعشرين من أكتوبر٤٠٠٤ق.م عند الساعة التاسعة صباحا...)[٣]، وذلك مما ألحق عدم المصداقية، وانعدام الثقة بالكتاب المقدس وجعله مع رجال اللاهوت عرضة للنقد من قبل العلماء والمفكرين.

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق صـ٢٢ مرجع سابق.

(٢) الإلحاد وأسبابه، الصفحة السوداء للكنيسة. د/ زينب عبدالعزيز صـ١٠٣، أنظر أيضا قصة الحضارة جـ٣٠ صـ٢٦٤.

(٣) الفيزياء ووجود الخالق صـ٢٢،٢٣.

٢- محاكم التفتيش:

(وكانت مهامها ملاحقة المارقين والمزدرين للدين والمهرطقين، بل والعمل على تنصير غير النصارى قسرا أو قتلهم أو نفيهم وطردهم كما حدث للمسلمين واليهود في الأندلس)[١]، (وكانت تلك المحاكم مكونة من عدد من القساوسة الذين يتم انتقاؤهم بمواصفات خاصة، ومهمتهم المراقبة والتجسس، وسماع الوشايات وإلحاق الأذى بالمهرطقين، والذي يصل أحيانا إلى حرقهم وهم أحياء أو حتى إخراج رفاتهم من قبورهم وحرقها على الملأ)[٢].

ومن العقوبات التي كانت تلحق بالمتهم من قبل رجال الدين (أولها: وضع كرة ملتهبة، أو قطعة من الحديد المحمي في يدي المتهم ليسير بها مسافة تسع خطوات فإذا تقيحت جروحه، فهذا دليل إدانته، وثانيها: وضع يده في الماء المغلي إلى المعصم، أو الكتف طبقا لخطورة الجريمة المرتكبة، وفي كلتا الحالتين يقوم القسيس بتقييد المتهم لمدة ثلاثة أيام يفحص القسيس بعدها يدي المتهم فإذا ظهرت أية أعراض للتقيح فهي إشارة من الله إلى أن المتهم مذنب...)[٣]، ومآسي مجازر ومحارق محاكم التفتيش في عموم أوربا أبشع من أن تحصى أو تُحكى، والطامة الكبرى أن الذين كانوا يقومون بتلك المجازر من رجال الدين، والذين يفترض أنهم يمثلون قيم الدين وسماحته على الأرض!!. فتلك المجازر البشعة جعلت النصارى وغيرهم في الغرب لا يكرهون الدين ورجاله فقط، بل ويكرهون (الله) الذي يفعلون ذلك باسمه كذبا وزورا فكان الإلحاد.

وذكرني ذلك بقول العرب: (رمتني بدائها وانسلت) فهؤلاء أصحاب التاريخ الأسود الملطخ بالدماء والأشلاء والحرق والقتل، يتطاولون على الإسلام زاعمين أنه انتشر بالسيف !! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[٤]

٣- تأميم الأفكار وتكميم الأفواه وملاحقة العلماء:

وكان من أسباب الإلحاد: الحجر على الرأي، وملاحقة المفكرين والعلماء، وقتل الإبداع والابتكار، ومصادرة الكتب، ويعد سجن الباستيل في فرنسا خير شاهد على أولئك الذين سجنوا، أو أعدموا، بسبب علمهم وفكرهم.

يقول ول ديورانت: (وكان يُختار قساوسة بمواصفات خاصة يطلق عليهم (كلاب الله الصيادين)

---

(١) انظر: محاكم التفتيش، د/ علي مظهر صـ٢٦ وما بعدها. الناشر المكتبة العلمية، القاهرة.

(٢) انظر بتوسع: الإلحاد وأسبابه الصفحة السوداء للكنيسة صـ٨٣-٩٣.

(٣) محاكم التفتيش، د/ رمسيس عوض صـ٧ دار الهلال، القاهرة.

(٤) سورة الكهف جزء من الآية(٥).

لاصطياد الملحدين)[١].

ومن الذين سجنوا وصودرت كتبهم:(سُجن فولتير مرتين، ودالمبير، والأب بريفو، وفونتينيل، ومنتسكيو.. وغيرهم... وكان من أهم الكتب المصادرة كتاب (رسائل الريف) للفيلسوف باسكال، وقد صودر عام ١٧٣٤م، وصودرت الثلاثة مجلدات الأولى من موسوعة (أقطاب حركة التنوير)، وكانت الكتب والمطابع المصادرة ،تكدس في الباستيل، حتى اضطروا أن يبنوا لها جناحا خاصا، وكان التوسع الرهيب في أوامر الاعتقال)[٢].

فكان العلماء يكتبون بأسماء مستعارة، أو يبثون أفكارهم عبر كتبهم تلميحا وليس تصريحا، أو كانوا يفرون من ملاحقة لجان التفتيش إلى بلدان أخرى. فكانت خطيئة الكنيسة الكبرى في ذلك التضييق الذي أذاقته العلماء الماديين الذين كانوا كلما توهمت الكنيسة أن في اكتشاف أحدهم تعارضا مع النصوص المقدسة تارة اعدمته، وتارة صادرت مؤلفاته ومنعتها، وتارة أجبرته على الاعتراف بخطئه وتراجعه عما أدى إليه بحثه العلمي، ولو كان مبنيا على علوم ملموسة قطعية، وتارة منعته من التدريس. بفعلها هذا أعلنت الكنيسة الحرب في وجه العلماء وتكونت بعد ذلك فكرة ترسخت شيئا فشيئا ألا وهي: أن الجمع بين الدين والعلم من المستحيل، فكان ذلك التكميم للأفواه، والحجر على العلم، من أكبر دواعي الإلحاد وبغض الدين في الغرب.

٤- فساد رجال الكنيسة:

لقد ساق ول ديورانت شهادات لعدد من المؤرخين والذين كالوا تهما كثيرة للقساوسة والرهبان من فسق ورذائل وأكل أموال الفقراء، وقلة العلم، والانغماس في المتع والشهوات، وبعد أن ساق عددا من الشهادات قال: لعلها مبالغ فيها، ثم ساق شهادة للقديسة (كترين السيناثية) جاء فيها (إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين، أو الطوائف الدينية المختلفة، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا، سواء أكانوا صغارا في السن أم كبارا، لم تر إلا شرا ورذيلة، حيث تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة، إنهم كلهم ضيقوا العقل، لديهم شره، بخلاء... تخلوا عن رعاية الأرواح... اتخذوا بطونهم إلها، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة، حيث يتمرغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور، ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء، ويفرون من الخدمة الدينية فرارهم من السجون)[٣]. ويقول حلمي يعقوب: (فقد ساد الفساد في الوسط الكاثوليكي؛ فتفشت الرشوة وصكوك

(١) قصة الحضارة جـ١٦ صـ٩٤ مرجع سابق، وانظر الإلحاد وأسبابه صـ٨١.

(٢) الثورة الفرنسية. د/ رمسيس عوض صـ٢٧،٢٨.

(٣) قصة الحضارة ج١ صـ٨٥.

الغفران، وانتشر الانحلال الخلقي، حتى بين المستويات الدينية الكاثوليكية)[١]، فلم يعودوا مصدر إلهام، وهداية، وقدوة، ومصداقية. فمن المفترض أنهم يمثلون قيم الدين، ونزاهته، لكنهم كانوا على النقيض، فكان النفور، وكان الإلحاد.

٥- الحروب الطائفية الدينية:

ومن أسباب الإلحاد، وبغض الدين، تلك الحروب التي شب لهيبها في أوربا بين الكاثوليك، والبروتستانت والتي: أودت بحياة الكثير من البشر باسم الدين، ومنها حرب الثلاثين عاما الشهيرة بين عامي (١٦١٨-١٦٤٨م) بين البروتستانت والكاثوليك، وقد (نَجَمَ عن تلك الحرب خسائر بشرية فادحة، فمثلا: قتل في إيرلندا نحو من مائة ألف رجل، وقتل ثلث رجال ألمانيا)[٢]

وفي سنة ١٥٢٦م: (تدفق الألمان، والأسبان البروتستانت، ينهبون، ويقتلون دون مراعاة لأي اعتبار. والويل كل الويل لمن كان يقع تحت أيديهم من الكردالة الذين لم ينجحوا في الهرب، فقد كان نصيبهم السحل في شوارع روما، حتى الموت...، أما الكنائس فقد: تحولت إلى اصطبلات للخيول، وتكدست الخيول داخل كنيسة القديس بطرس، وخارجها، والويل للراهبات، والعذارى فلقد كان الجند ينتزعونهن انتزاعا من الأديرة، ومن أحضان أمهاتهن، وكان نتيجة اقتحام روما قتل ثلاثة وخمسين ألف نفس، (وكان من نتائج هذا الصراع الديني الطويل والمرير أن كره الناس الدين والعقيدة والكتاب المقدس)[٣] .

ويضاف لما سبق من أسباب: عدم وضوح عقيدة التثليث النصرانية ، والإلحاد اليهودي في أسماء الله وصفاته، ووصفهم لله والأنبياء بأوصاف يستنكفها الإنسان العادي، ثم تأثر الفكر الغربي بعدة مدارس فكرية مادية أوصلته لما وصل إليه من فصل الإنسان عن خالقه، وإبعاد الدين عن الدنيا، ومن تلك المدارس الفكرية: الوجودية، والدارونية، وتشكل الأخيرة عاملا أساسيا في تكريس الرؤية المادية، وتأصيلها؛ فأصبحت أكثر تأثيرا في العصر الحديث، حيث جعلت الإنسان جزءا من الطبيعة، ومن ثَم لا علاقة للدين والإله به، فكانت ظاهرة الإلحاد.

(١) رحلة إلى قلب الإلحاد- حلمي القمص يعقوب، صـ٢٣. كنيسة القديسين موسوعة (اقرأ وافهم) الإسكندرية.

(٢) المرجع السابق صـ٢٦، وانظر: الإلحاد وأسبابه الصفحة السوداء للكنيسة صـ١٠٤ مرجع سابق. وانظر: الثورة الفرنسية د/ رمسيس عوض صـ٢٤ الناشر الهيئة العامة للكتاب.

(٣) رحلة إلى قلب الإلحاد صـ٢٥ مرجع سابق.

الفصل الثالث
جذور الإلحاد في المجتمعات العربية والإسلامية

تمهيد: العرب والإلحاد

أشير باختصار للحالة الدينية في أرض العرب قبل الإسلام:

أرض العرب هي أرض الرسالات، والنبوات، وفيها تنزل الوحي، وأُيِّدَ المرسلون بالمعجزات، إلا أن الدهماء منهم فعلوا ما يتنافى مع العقل، والفهم في جانب العقيدة.

والعرب إجمالا لم ينكروا وجود الله –تعالى–، ويدل على ذلك قول الله تعالى﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]

يقول ابن رشد: (إن العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالى)[٢] وإنما كانت شبهات العرب مقصورة على شبهتين كما يقول الشهرستاني[٣]:(الأولى: إنكار البعث، بعث الأجسام، والثانية: جحد البعث، بعث الرسل)[٤]، وعلى الرغم من الانحراف العقدي عند كثير من العرب، فقد كان منهم الحنفاء الموحدون مثل: زيد بن عمرو بن نفيل[٥] وغيره، وكانت معتقدات العرب قبل الإسلام- بجانب اعترافهم بوجود الله- خليطا من الأساطير المتعلقة بالتفاؤل والتشاؤم، وعبادة الأوثان، والتأثر بالمعتقدات اليهودية والنصرانية بحكم المجاورة والمخالطة، (فتلبّد جو العربي الصافي وتغيرت البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية، فظهرت الصابئة وانتشرت آراؤهم في عبادة الكواكب تقربا إلى الله تعالى، وانتشر اليهود والنصارى حول المدينة، وفي نجران، وانتشرت الآراء المجوسية في وادي الفرات... فكان العربي مع كونه وثنيا يعيش عيشة دينية مثل اليهود، والنصارى، والصابئة)[٦]

---

(١) لقمان الآية (٢٥).

(٢) مناهج الأدلة، ابن رشد صـ١٢٩. مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.

(٣) الأفضل محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، (٤٦٧- ٥٤٨ ه) صنف كتاب «نهاية الإقدام»، وكتاب «الملل والنحل». وكان كثير المحفوظ، قوي الفهم، مليح الوعظ . ينظر: سير أعلام النبلاء ط دار الحديث (١٥/ ٩٢).

(٤) الملل والنحل، الشهرستاني جـ٢ صـ٥٨٣ تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن قاعود، دار المعرفة، بيروت ط٣ / ١٩٩٣م.

(٥) زيد بن عمرو بن نفيل: أحد حكماء الجاهلية، وابن عم عمر بن الخطاب، كان يكره عبادة الأوثان ووأد البنات، رآه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قبل البعثة، توفي قبلها بخمس سنوات، ينظر: (طبقات ابن سعد ٣/ ٩٩)

(٦) الأساطير العربية قبل الإسلام. د/ محمد عبد المعيد خان، صـ٢٠ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.

ومن مظاهر الانحراف الديني عند العرب (أن انغمس العرب في عبادة الأوثان، واتخذوا آلهة شتى، ووصل من انحطاطهم في أحكام العقل أن اتخذوا إلها من حيس[١] لما جاعوا أكلوه، وصاروا يتعرفون الخير والشر من أمور دنياهم بالاستقسام بالأزلام، وكانوا على بقية من دين إبراهيم خلطوها بالوثنية خلطا غير محاسنها، وطمس معالمها، فأهلوا في الحج للأصنام وأشركوا في التلبية، وجعلوا صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية)[٢].

فالعرب: كانوا يقرون بوجود الله، وإنما اتخذوا الأصنام شفعاء لهم عند الله -تعالى الله عن ذلك عُلّواً كبيرا، قال تعالى:

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[٣] (لقد اعتقد الجاهليون في شبه الجزيرة العربية بالوثنية، لكن أغلبهم يرى أن الله أكبر من كل الأوثان، وأعظم منها قدرة، فمن شعر أوس بن حُجْر:

وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله إن الله منهن أكبر)[٤].

كما (أننا لم نعثر على نصوص في خطب العرب، وأشعارهم ينكرون فيها الله (عز وجل) فكل ما ورد عنهم شعرا أو خطبا فيه ذكر للدهر وتقلباته وغدره، وفي الوقت نفسه نجد في أشعارهم ذكر الله (عَزَّوَجَلَّ)على اعتبار أنه الفاعل المتصرف المدبر للأمور كلها مع اعتقادهم في الشركاء له – تعالى عن ذلك سبحانه-.

وهذا زهير بن أبي سلمى[٥]، يقول:

بدا لي أن الناس تفني نفوسهم ... وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

وفي نفس القصيدة يقول:

بدا لي أن الله حق فزادني ... إلى الحق تقوى الله ما قد بدا لي

ألم تر أن الله أهلك تبَّعا ... وأهلك لقمان بن عاد و عاديا[٦]

---

(١) الحيس: خليط من تمر وأقط، وقد يجعل بدل الأقط دقيق، انظر؛ لسان العرب، مادة (حيس).

(٢) أديان العرب في الجاهلية، محمد نعمان الجارم صـ٢٠٨، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٢٣م.

(٣) الزمر الآية(٣).

(٤) مجلة الخليج العربي، مجلد ٤٠ عدد(١-٢) لسنة٢٠١٢، د/ محمد حمزة إبراهيم ، البحرين.

(٥) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية، ولد في بلاد (مُزَينة) بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام. قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى (الحوليّات).الأعلام للزركلي (٣/ ٥٢).

(٦) انظر: العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، د/ فرج الله عبد الباري صـ٤٥، دار الآفاق العربية، ط١/ ٢٠٠٤م

وختاما: فقد كان من العرب:

الدهريون: والذين نسبوا التأثير والتصريف للدهر، وقد حكى القرآن قولهم:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1] ، ومنهم منكرو البعث، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2] ، وقال سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[3] .

ومنهم منكرو الرسل لكونهم بشرا، مع إيمانهم بالله والبعث قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾[4] .

هذه لمحة سريعة عن الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وبعض مظاهر الانحراف العقدي.

القاهرة).

(١) الجاثية:٢٤.

(٢) التغابن: ٧.

(٣) يس: ٧٨ – ٧٩.

(٤) الفرقان: ٧.

المبحث الأول: جذور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية

ببعثة النبي محمد - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ونزول الوحي المعجز، ودخول الناس في دين الله أفواجا، وفتح مكة، وتحطيم الأوثان المحيطة بالبيت العتيق، وشعور العرب بقيمتهم، ومكانتهم واعتزازهم بدينهم، جابوا الدنيا فاتحين ناشرين دين الله -تعالى- متمثلين قيم وأخلاق القرآن، ضاربين أروع الأمثلة في الصدق والعدل والصبر والفداء.

وغني عن البيان أن البلدان المفتوحة كانت لها ديانات وفلسفات خاصة بها، وكانت لها حضارات وممالك كبلاد فارس مثلا، ومن المعقول، والمقبول -جدا- أن بعضهم أسلم ظاهرا من أهل تلك البلدان المغلوبة وظل على كفره وإلحاده باطنا، رغبة في عدم التخلي عن دينه القديم، أو محاولة الانتقام من دين الفاتحين؛ وذلك بالترويج، لأفكاره، أوتشكيك المسلمين في دينهم.

ويرى د/ عبدالرحمن بدوي، أن السبب الرئيس: لظهور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية؛ يرجع إلى عامل رئيس، وعدة عوامل مساعدة.

والعامل الرئيس -من وجهة نظره-:»أن الروح العربية في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، قد استنفدت كل قواها، وإمكانياتها الدينية الخصبة التي كانت لها من قبل، خصوصا في المسيحية، واليهودية، والمانوية، والزرادشتية، ثم الإسلام الذي توج هذه الأديان كلها؛ بأن أعطى أكمل صورة للدين قُدِّر لهذه الحضارة العربية بلوغها، فكان لا مناص لها بعد هذا أن تنحدر من تلك الفسحة وتستفرغ إمكانياتها الدينية حتى تغيض عنها موارد التدين جملة... ويواصل: وهذا ماتم فعلاً في القرن الثالث، والقرن الرابع على وجه التخصيص)[1]

وعن العوامل الأخرى، ومدى أهميتها، وتأثيرها في ظهور الأفكار الإلحادية:

(أما العوامل الأخرى، فعوامل مساعدة فحسب، وليست هي العوامل الحاسمة. وهذه العوامل المساعدة هي الانتقام الشعوبي من جانب المغلوبين وما يتبعه من تعصب لدينهم القديم؛ لأن العصبية في الحضارة العربية كانت تقوم -دائما- على أسباب من الدين، بحسبان أن الدين هو العامل الحاسم في تكوين القوميات، والدول في بلاد تلك الحضارة، وهذا يفسر لنا السر في ارتباط الشعوبية بالنزعة الدينية..)[2].

ويبدو أن ما اعتبره د/ بدوي: عوامل مساعدة، لا تقل أهمية وتأثيرا في ظهور الفكر الإلحادي، بل العوامل المساعدة من شعوبية حوت رفضا وزندقة ودهرية وفرقا باطنية، هي العامل الرئيس في ظهور كثير من الأفكار الإلحادية في بلاد المسلمين.

---

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د/ عبدالرحمن بدوي، صـ٦ ط٢، ١٩٨٠م.

(٢) نفس المصدر صـ٦.

واللافت: أن أصحاب تلك الأفكار تجمعهم القومية الفارسية المجوسية، والتي كانت تنظر للعرب نظرة دونية باعتبارهم كانوا خاضعين وتابعين لهم، كما كان الحال في جنوب الجزيرة العربية في بلاد اليمن وفي شمالها الشرقي في بلاد الرافدين.

ومن خلال تتبع بدايات الانحراف العقدي المغالي، والذي أفضى بدوره للأفكار الإلحادية، يتضح أنه بدأ في وقت مبكر منذ مقتل عثمان، وتولي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم كان ظهوره في أول الخلافة العباسية. ونلحظ مظاهر ذلك الانحراف المبكر والذي أشار إليه بعض العلماء مثل:

ابن تيمية [١] (ت٧٢٨) قال:(وأول من ابتدع القول بالعصمة لعلي، وبالنص عليه في الخلافة هو رأس هؤلاء المنافقين عبدالله بن سبأ[٢] الذي كان يهوديا، فأظهر الإسلام وأراد إفساد دين الإسلام كما أفسد بولس دين النصارى... فهؤلاء الضالون المفترون أتباع الزنادقة المنافقون يعطلون شعار الإسلام وقيام عموده)[٣].

وعليه يتضح: أن جذور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية، كانت دخيلة عليهم، ولم تكن أصيلة، بمعنى أنها لم تنبت من البيئة العربية، وإنما وفدت إليهم من الفرس مع الفتح الإسلامي، والذين أسلم بعضهم ظاهرا، وأبطن كفرا، وحملوا في صدورهم بغضا للعرب والإسلام، ورغبة في إحياء القومية الفارسية.

وأن بذر الإلحاد الأول حملته من بلاد فارس صدور الشعوبيين والزنادقة المانويين وما تفرع منهما من دهرية وفرق باطنية، ثم نفثوه في المجتمعات الإسلامية.

ومن مظاهر انحرافهم وإلحادهم :يقول الإمام البغدادي[٤] (ت ٤٢٩): (والذي يصح عندي من دين

---

(١) أبو العباس احمد شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية الحراني نزيل دمشق وصاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، ولد بحران في شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ ه . ينظر: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد، تيمية - محمد بن أحمد الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ) - (ص: ١٨) -تحقيق: محمد حامد الفقي -الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) قيل: من الحيرة بالعراق، وقيل: –وهو الراجح- من أهل اليمن من صنعاء ، وقيل أصله رومي . أظهر الإسلام في زمن عثمان خديعة ومكراً، وكان من أشد المحرضين على الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى وقعت الفتنة، وهو أول من أسس التشيع على الغلو في أهل البيت، ونشط في التنقل من بلد إلى بلد؛ منها الحجاز والبصرة والكوفة، ثم إلى الشام، ثم إلى مصر وبها استقر، ووجد آذانـًا صاغية لبثّ سمومه ضد الخليفة عثمان والغلو في علي، رضى الله عنهما . انظر- البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٧، ص ١٨٨،دار احياء التراث العربي، بيروت. وانظر: الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ٢٠٥.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية جـ٤ صـ٣١٦، ط٣، دار الوفاء المنصورة، ٢٠٠٥م.

(٤) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين . مولده في (غُزَية) - بصيغة التصغير - منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشأه ووفاته ببغداد. وكان فصيح اللهجة عارفا بالأدب، يقول الشعر، ولوعا بالمطالعة والتأليف، ذكر ياقوت أسماء ٥٦ كتابا من مصنفاته من أفضلها (تاريخ بغداد أربعة عشر مجلدا. ومن كتبه

الباطنية، أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع)[1].

وسَيَرِدُ الكلام عن مفهوم الزندقة والشعوبية والصلة بينهما باعتبارهما من العوامل التي أدت إلى ظهور الفكر الإلحادي في المجتمعات الإسلامية، وذلك في المبحث التالي.

(البخلاء). الأعلام للزركلي (١/ ١٧٢).

(١) الفرق بين الفرق، الإمام عبد القاهر البغدادي صـ ٢٦١ ، تحقيق د محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر، القاهرة.

المبحث الثاني

العوامل التي ساعدت على ظهور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية

إن تلك العوامل متعددة ومتشعبة، منها القديم كالشعوبية والزندقة وما تفرع منهما، وتأثير الفلسفة اليونانية بعد نقلها وترجمتها، مع الثقافة الفارسية والتي ترجم كثيراً منها ابن المقفع وغيره، ومنها الحديث نسبيا مثل الاستشراق والتغريب والاستعمار. ويمكن أن نقسم بدايات الفكر الإلحادي في المجتمعات الإسلامية إلى مرحلتين : الأولى: الشعوبية والزندقة، والتي نقلت الأفكار المانوية والثنوية من بلاد فارس، وهي مرحلة متقدمة، والثانية: الاستشراق والتغريب، والذي نقل الفلسفة المادية من الغرب للعالم الإسلامي، وذلك مع قدوم الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية، وإرسال البعثات التعليمية.

وسأقتصر على ثلاثة من أهم تلك العوامل، والتي تعتبر حاوية لغيرها من العوامل وهي:

أولاً: في القديم: الشعوبية والزندقة:

من العوامل الرئيسة في ظهور الفكر الإلحادي في المجتمعات الإسلامية قديماً: الشعوبية والزندقة.

مفهوم الشعوبية:

الشعوبيون: (هم الذين يرون تفضيل العجم على العرب، ويتمنون عودة الملك إلى العجم)[١].

الشعوبي: (الذي يُصَغِّرُ شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم)[٢] .

وذلك أن العرب لم تكن لهم أمة ولا قوة كالتي لفارس والروم، وإنما كان ولاء العربي لقبيلته وقومه، فكيف تعلو رايتهم على الفرس والذين يعتبرون العرب من رعاياهم، وهذا ماقاله أحد أئمة التابعين قتادة، وهو عربي صميم من سدوس قال : (كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودا، وأجوعه بطونًا، مشدودين على أصل جُحرٍ بين الأسدين فارس والروم. لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه. من عاش منهم عاش شقيًّا! ومن مات ردي في النار! يُؤكلون، ولا يَأكلون! والله ما نعلم قبيلاً يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظا، وأدق فيها شأنًا منهم حتى جاء الله – عز وجل- بالإسلام، فَوَرَّثَكُم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس) [٣] .

فكيف يكون السوقة أسياداً تخضع لهم فارس والروم ؟ فكانت الضغائن التي شُحنت بها صدور

---

(١) نفس المرجع صـ ٢٦١.

(٢) لسان العرب، ج١، ص ٥٠٠، مرجع سابق.

(٣) ضحى الإسلام ، أحمد أمين، ج١ ، ص ٣٠ ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة .

الشعوبيين فأظهروا إسلامـًا، وأبطنوا كيداً وكفراً .

مفهوم الزندقة: (لفظ زنديق يطلق على كل من كان يؤمن بالمانوية، ثم اتسع المعنى من بعد اتساعا كبيرا حتى أطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد)[١].

ويبدو أن كلمة زنديق تعني من أبطن الكفر وأظهر الإسلام، سواء أكان هذا الكفر الذي يبطنه نحلةً مانوية أو مذهبـًا من المذاهب أو النعرات والقوميات المناهضة للإسلام، فالجامع لهؤلاء هو إخلاصهم لما يخفونه في صدورهم. ورغم ذلك فهم يتمسكون بكلمة الإسلام ظاهراً، إما خشية انتقام الأمة منهم، وإما خبثـًا ليروجوا مذاهبهم وعقائدهم الباطلة تحت عباءة الإسلام .

وتلتقي الزندقة، والشعوبية في بغض العرب، والانتقاص من حضارتهم، وثقافتهم وأنسابهم، وذمهم، ومدح الحضارة والثقافة الفارسية، ومحاولة إحيائها بإضعاف الحضارة العربية، والقضاء على الإسلام بحيل باطنية مستترة، وتأويلات بعيدة عن مقاصد القرآن الكريم، وقواعد اللغة، مع مزج تلك التأويلات بالأفكار المانوية. ولذا نجد الشعوبية، والتي تبدأ ببغض العرب، والتهجم عليهم، وتنتهي بالزندقة التي تعني التهجم على عقيدة الإسلام، وهذا يبين الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة، فبغضهم للعرب حملهم على بغض دينهم وأرضهم.

فالشعوبية:(حركة يتضح فيها العداء للإسلام حينا، وجهدها في وأد الحضارة القائمة؛ لإضعاف الإسلام الذي حمل العرب لواءه ورسالته قبل غيرهم، وتوجد صلة وثيقة بين الزندقة والشعوبية، بل إن الشعوبية كانت من الدوافع الأساسية للزندقة، وهذا نتيجة الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام من جهة، وبسبب ارتباط الشعوبية والزندقة بمفاهيم، وعقائد قديمة غير إسلامية مجوسية وغيرها من جهة أخرى . والشعوبية والزندقة تُستمدان من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والإسلام، ولأن آراءهما في الأساس آراء وافدة، أصولها وولاؤها خارج المجتمع العربي الإسلامي)[٢].

وكان ظهور هؤلاء في فترة مبكرة من القرن الأول الهجري زمن الفتنة قبل مقتل الخليفة الراشد عثمان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وزمن خلافة علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) حيث بدأوا نشر سمومهم وأفكارهم، (فالمغالون من الزنادقة الشيعة رفعوا عليا فوق البشرية، وقد لاحقهم علي وقتل بعضهم)[٣]، فهم موجودون يتحينون الفرصة لنشر زيفهم.

ولقد اعتمدت هذه الحركة المخربة للعقائد، والمعروفة بالزندقة عدة وسائل لبث فكرهم منها:

---

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د/ عبدالرحمن بدوي صـ٢٨.

(٢) الجذور التاريخية للشعوبية، د/ عبدالعزيز الدوري صـ٩٣، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت

(٣) انظر؛ الفرق بين الفرق صـ٢٠٥ مرجع سابق.

١- اعتمد فريق منها على تشويش العقيدة الإسلامية، والتشكيك فيها، وترويج الإلحاد عن طريق إلقاء الشبهات والمغالطات، وتَزَعّمَ هؤلاء الكاتب، والفيلسوف الملحد ابن الراوندي[١][٢].

٢- استخدم فريق آخر الشعر، والكتابة الأدبية لنشر نزعات فكرية، وقومية متناقضة وغريبة على التعاليم الإسلامية، كالإلحاد، والمجون، والإباحية، والشذوذ مثل: صالح بن عبد القدوس[٣] - وأبو نواس[٤].

وأبان بن عبدالحميد[٥]، وغيرهم.

فمن شعر أبي العتاهية في (عُتبة) جارية تعلق بها:

والله لـولا أن أخـاف الـردى لقلـــت لبيـــك وسـبحانك.

وهذا الكلام لا يكون إلا لله – سبحانه-. وقوله وهو يؤثر ذكرها على ما في أعلى درجات الجنة :

يـارب لـــــو أنسيـتنـــيها بمـا في جنـة الفـردوس لـم أنسـها.[٦].

٣- وادعاء الزهد المبالغ فيه، وبه يحلون حراماً ويحرمون حلالاً، والتشاؤم، والامتناع عن ذبح الحيوانات وأكل اللحوم مثل: أبي العتاهية [٧].

---

(١) أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، الملحد عدو الله، من مرو، وسكن بغداد، وكان معتزلياً، ثم تزندق، صاحب التصانيف في الحط على الملة، وكان يلازم الرافضة والملاحدة، وقد صنف الدامغ يدمغ به القرآن، والزمردة يُزري فيه على النبوات، (ت ٢٩٨ه). انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، ج ١٤، ص ٥٩.

(٢) ينظر بالتفصيل في: الفرق بين الفرق صـ٢٠٨، ٢٤٩ ومابعدها، الشعوبية حركة مضادة للإسلام ١٢٥ وما بعدها، د عبدالله سلوم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٤م.وانظر: الزندقة والشعوبية: ٤١ ،٤٧، ١٥٨.

(٣) صالح بن عبد القدوس الأزدي وكان حكيم الشعر زنديقا متكلما يقدمه أصحابه في الجدال عن مذهبهم فقتله المهدي على الزندقة شيخا كبيرا - ينظر -تاريخ دمشق -المؤلف: ابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ) -(٢٣/ ٣٤٦) -تحقيق: عمرو العمروي -الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٥ م.

(٤) أبو نواس: الحسن بن هانئ الحكمي الشاعر بصري: كان يعرف بذاك ، كان أبو نواس للمُحْدَثين مثل امرئ القيس للمتقدمين، قال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء، فما ظنك بالرجال. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤١١) مرجع سابق.

(٥) أبان اللاحقي شاعر أديب، انتقل من البصرة إلى بغداد ، واتصل بالبرامكة فأكثر من مدحهم .- طبقات الشعراء - عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) -(ص: ٢٤٠) --المحقق: عبد الستار أحمد فراج، ط٣، الناشر: دار المعارف، القاهرة .

(٦) لسان الميزان، الحافظ : أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٢١٢ ه)، ج ١ ص ٤٢٧ ، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت .

(٧) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم وكنيته أبو إسحاق: يرمى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ، وذكر الموت والحشر، ولعله تاب في آخر حياته.

ولذلك لما فشا أمر الزنادقة إبان الدولة العباسية، أوصى الخليفة المهدي (ت ١٦٩) ابنه موسى الهادي :» يابني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابه (يعني أصحاب ماني) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجًا، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات،...»[١].

٤- واعتمد قسم آخر على نشر النزعة الشعوبية التي تعمل على ذم العرب وتفضيل الشعوب الأخرى عليهم (بشار بن برد)[٢] كما اتُهم (ابن المقفع)[٣] بتبني نفس النزعة.[٤] وكان من نتائج ذلك الفكر المنحرف وأمثاله، والمشتمل على التشكيك، والوضع والكذب على رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن تصدى علماء الإسلام لخطر الزندقة وأضرابها، فنشأت علوم إسلامية لها قواعد ضابطة وحافظة لها من الخلط والتأويل.

أ- كعلم مصطلح الحديث، والمشتمل على الرواية، والدراية، وأحوال الرجال.

ب- وعلم أصول الفقه بقواعده التي تبين الطريقة الصحيحة لاستنباط الحكم من النص الشرعي.

ج- وعلم التوحيد أو علم الكلام، والذي يتضمن البراهين والأدلة النقلية والعقلية في الرد على الخصوم.

ثانيًا: المرحلة الثانية: الاستشراق.

الاستشراق لغة:(الفعل: استشرق، والمصدر: استشراق ويعني: عناية واهتمام بشئون الشرق وثقافاته

---

(١) ضحى الإسلام، ج١، ص ١٣٨ .

(٢) شاعر، أصله فارسي، كان يتعصب للعجم على العرب، ويصوِّبُ رأى إبليس في ترك السجود لآدم وينُشد :
الأرض مظلمة والنار مشرقةوالنار معبودةٌ مذ كانت النار، وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه، وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له في العطايا، واتهم بهجاء المهدي والزندقة، فأمر المهدي بجلده فمات من أثر ذلك، وكانت وفاته سنة (١٦٧هـ) في أيام المهدي. لسان الميزان، ج٢، ص٢٨٣.

(٣) عبد الله ابن المقفع (ت ١٤٥هـ)الكاتب المشهور بالبلاغة، من أهل فارس ، وكان مع فضله يتهم بالزندقة، وكان المهدي بن المنصور الخليفة يقول: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع؛ وقال الأصمعي: صنف ابن المقفع المصنفات الحسان منها «الدرة اليتيمة» التي لم يصنف في فنها مثلها. ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥١)

(٤) انظر هذا بتوسع في: ضحى الإسلام، ج١، ١٣٥ ومابعدها. وانظر التاريخ للطبري، ج ٨ ص ١٩٠، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة. اتهامه بالزندقة: ما من أحدٍ ترجم لابن المقفع إلا واتهمه بالزندقة، انظر خزانة الأدب، البغدادي،ج٨ ص: ١٧٧، مكتبة الخانجي، ونقل الإتهام له مع توقف الحافظ الذهبي في سير الأعلام ج٦، ص: ٢٠٩. أقول: إن الحكم على شخص بالكفر ليس بالأمر الهين، فابن المقفع أسلم طواعية على يد الأمير عيسى عم السفاح، ولم أقف على ما يدل على كفره أو تقصيره في أداء أركان الإسلام، وماروي عن معارضته للقرآن فمجرد قول قيل بعد وفاته بأكثر من قرن، أو أن أحدهم سمع منه بيتين يميل فيهما لدينه القديم ، فمن ذلك الرجل؟ لم يشر مرجع واحد لثبوت ذلك القول،فلنا الظاهر والله يتولى السرائر، والله أعلم.

ولغاته. ومستشرِق: اسم فاعل من استشرق، وهو من يهتم من الأوربيين بالدراسات الشرقية.

واصطلاحا: أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه، وبسط النفوذ عليه)[١].

وكلمة مستشرق بالمعنى العام (تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله،... في لغاته، وآدابه، وحضاراته، وأديانه)[٢] .

فالاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم، وتاريخهم. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته، وأديانه، وآدابه، ولغاته وثقافته، وذلك أن الغرب المسيحي وبعد فشل حملاته الصليبية المتوالية على المشرق الإسلامي عمد لزرع رجال مؤهلين، ومُنْتَقَيْن للإقامة في بلاد المسلمين لإتقان لغتهم، والتعرف على العادات والتقاليد الخاصة بهم، مع التستر بالطيبة والوداعة من أجل تهيئة النفوس للإقبال عليهم، والتأثر بأفكارهم التي كانوا ينفثونها في عقول أبناء المسلمين، ثم ينقلون ما يرونه لصانع القرار في فرنسا وبريطانيا وغيرهما، ليسهل استعمار تلك البلاد مستقبلا.

وعن أساليب المستشرقين ودهائهم :

(كان الاستشراق يتولى في مصر عملا خبيثا، ويجند فيها جندا من الأرمن والمالطيين وغيرهم، ويُحَمِّلُهُم ما في قلبه من هموم المسيحية الشمالية، ويغذيهم بالأحقاد المُكَتَّمة، وبلهيب بغضائه الغائرة في العظام، ويدربهم على الدهاء والمكر وعلى ارتداء أقنعة البراءة والبشر والمداهنة في معاشرة أهل دار الإسلام؛ وذلك لبث أفكار درسها المستشرقون، ويحاول الاستشراق أن يشيعها بين جماهير دار الإسلام في مصر خاصتها وعامتها)[٣]، وأخطر هؤلاء من لبس زي المتدينين، أو رجال الدين، وخالط الدارسين والعلماء على أنه مسلم، وذلك؛ لالتقاط الشوارد والبحث عن المثالب.

وعن علاقة الاستشراق بالاستعمار يُلاحظ أن: (منهم من جاور الأزهر، ولازم حضور دروس المشايخ الكبار، وصلى مع أهل الإسلام، وصام بصيامهم، وخالط جماهير طلبة الأزهر، لا يرتاب فيه أحد، ولا يعرف أحد حقيقته...، وكثير منهم أقام في مصر إقامة طويلة متمادية، كالمستشرق الداهية المتستر (فانتور)[٤] والذي قضى أربعين سنة يتجول في دار الإسلام، والتحق فيما بعد بالحملة الفرنسية، فكان

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، ص ١١٩٣ .

(٢) الاستشراق، د/ محمود حمدي زقزوق، ص: ١٨ ، دار المعارف، القاهرة .

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر صـ١٢٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م

(٤) مستشرق فرنسي، ولد في مارسيليا ،في مايو ١٧٢٩م ، من أسرة دبلوماسية وعسكرية ،درس في باريس واسطنبول وأقام بالمغرب والجزائر، وتونس وتركيا، قدم إلى مصر قبل الحملة الفرنسية، حيث وثق صلاته ببعض المشايخ، وكبار الأقباط وبعض المماليك، والتحق بنابليون فور دخوله القاهرة ، حيث عينه كبيراً لمترجمي الحملة الفرنسية، ترجم أول منشورٍ

شيطان نابليون ومستشاره وخليله الذي لا يفارقه)[1].

يتضح أن أهداف ومهام المستشرقين كانت متعددة، تظهر خلاف ماتبطن، منهم من يمهد للمستعمر بقراءة الواقع في البلاد المُراد احتلالها، ونقل ذلك لصانع القرار.

الاستشراق وعلاقته بالتبشير:

لقد كانت أهداف المستشرقين مصوبة نحو صرف المسلمين عن دينهم، بكل وسائل المكر، والدهاء، والتمهيد للسيطرة على تلك البلاد الإسلامية، ثقافيا، وفكريا واقتصاديا، وعسكريا، مع الاهتمام بالعامل الديني؛ لأهميته وخطورته، وقد عملوا تحت لافتات دعائية براقة مثل: التنوير، والنهضة، واليقظة، وغيرها من الدعايات الفارغة.

وحين قامت جمعيات التبشير، وضعت من أهدافها تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية، أو اللادينية، والإلحاد الكامل، وكانت دوافع الاستشراق لدى المبشرين وأنصارهم ومؤيديهم هي دوافع التبشير نفسها، وتتلخص في الرغبة الملحة في سلخ المسلمين عن دينهم، ومحاولة إدخالهم في النصرانية، أو إبقائهم ملاحدة لا دين لهم...

وتتلخص أهداف الاستشراق ووسائله لتحقيق أهدافه في الآتي:

١- (تنفير المسلمين من دينهم وحملهم على كراهيته .

٢- تشويه الإسلام، والتشكيك في أسسه، وتوجيه المطاعن له.

٣- تشويه التاريخ الإسلامي، وتشويه حضارة المسلمين، وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب، وتراث.

٤- نشر الحضارات القديمة، وإحياء معارفها، وبعث الطوائف الضالة والحركات القديمة الهدامة.

٥- تزيين ما في المسيحية من تعاليم وأحكام.

٦- استدراج المسلمين للأخذ بالحضارة المادية الحديثة، وما فيها من مغريات للنفوس، وآسرات للشهوات.

٧- ادعاء أن الفقه الإسلامي مقتبس من القانون الروماني.

٨- ادعاء أن أحكام الشريعة الإسلامية، لا تتلاءم مع التطور الحضاري.

وُزع في الأسكندرية، كان يتقن العربية والتركية، والإيطالية . انظر: حركة الترجمة في مصر خلال القرن التاسع عشر،جاك تاجر، ص١٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، صـ١٢٤.

٩- الدعوة إلى نبذ اللغة العربية، وطريقة كتابتها)[١].

ويتضح: أن الأسلوب الذي اتبعه المستشرقون بإظهار وجه، وإخفاء آخر، والتستر خلف الطب، أو العلم، ثم نفث السموم في قلوب وعقول أبناء المسلمين، هو نفسه منهج الزنادقة القدامى وأسلوبهم وهدفهم.

ثالثًا: التغريب

كان من عوامل ظهور الفكر الإلحادي في المجتمعات الإسلامية موجة التغريب، والتي بدأت مع الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية، ودُعِّمَتْ بالاستشراق والبعثات العلمية للدارسين من أبناء المسلمين بالغرب، والذين عاد بعضهم بلسان عربي، وعقل غربي، جسده في بلادنا، وقلبه مصوبٌ جهة الغرب.

والتغريب لغةً: (النفي عن البلد الذي وقعت فيه الجناية. والتغرُّبُ : البعد .

والغَربُ: جهة غروب الشمس والبلاد الواقعة فيه، وهي ماتُقابِل بلاد الشرق.[٢].

ويتضح لنا من خلال تتبع المعنى اللغوي أن الإغراب والتغريب يأتيان بمعنى واحد يدور حول التنحية والإقصاء والإبعاد عن الوطن.

والتغريب اصطلاحًا: (خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، بهدف سيادة الحضارة الغربية، وتسييدها على حضارات الأمم، لا سيما الحضارة الإسلامية)[٣].

وهـو: حركة منظمة، ودعوة كاملة لها نظمها، (يقوم عملها على الغزو الفكري عن طريقين: التعليم، والصحافة، ويقول أصحاب هذه الدعوة: إن للمسلمين، والعرب قيما ومثلا ذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج في الأمم الأخرى، وتخلق منهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبي وتسلط الغاصب، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا بصهر هؤلاء المسلمين في بوتقة الفكر الغربي، وإخراجهم من قيمهم، وأبرز أهداف التغريب: الحيلولة دون قيام وحدة الفكر الإسلامي التي هي مصدر وحدة الأمة، والعمل على بلبلة العقول، والنفوس بعشرات من المذاهب، والدعوات وتعميق الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة بما يحول دون قيام الوحدة)[٤].

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة، الشيخ/ عبدالرحمن حسن حبنكة صـ١٢٨،١٢٩ دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: لسان العرب، ص ٦٣٧ ، وانظر المعجم الوجيز ، ص ٤٤٧ .

(٣) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أ/ أنور الجندي، صـ١٣، المكتب الإسلامي ، د مشق، ١٩٧٨م

(٤) أهداف التغريب في العالم الإسلامي، أ/ أنور الجندي صـ١٣، ١٤، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف.

وقد نشط المستشرقون لتحقيق ذلك الهدف، وهو ماأعلنه صراحة «هاملتون جب» في كتابه «وجهة الإسلام «(هدف البحث هو معرفة إلى أي حد وصلت حركة تغريب الشرق، وماهي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب)[١]. ولنعلم لأي مدى يخطط هؤلاء يقرر «جب» في موطن آخر(ربما كانت أسلم نتيجة نقررها هي أن نقول : إن هناك طبقتين رئيسيتين: طبقة عليا تشمل أفراداً من القادة، ولكنها تشمل أيضـاً أكبر مراكز الفكر الإسلامي تأثيراً، وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية قويـاً، وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي... وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقـاً إلى حدٍ ما...وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائيـاً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها)[٢].

ومن نتائج التغريب: أن نجح الغرب في استمالة وتجنيد عدد من أبناء المسلمين لأداء ذلك الدور في كافة مناحي الحياة الثقافية والإعلامية والفنية، فرأيناهم في الجامعات، والإعلام ينتقصون من تاريخهم، وتراثهم ، ويمجِّدون فلسفات سيدهم الغربي.

(ومن أكثر الأساليب المتخذة، وأشدها خطرا، استخدام أبواق من أبناء الأمة الإسلامية تنفخ فيها ما تريد... وهذا، ولا ريب أسلوب شديد التأثير قوي الفاعلية...؛ لهذا زرعت حركة التغريب بين المسلمين نبات سوء، ودعاة شر ظلت تسقيهم من مائها، وتسكب في عقولهم من لوثتها، حتى صاروا تلاميذ نجباء، وأبواقا تحسن الصفير بما يملى عليها)[٣].

ولم يكن التغريب قاصرا على صبغ الأفراد بالثقافة، والفكر الغربي، بل على صبغ الدول بتلك الصبغة كما هو الحال في تركيا، والتي تم سلخها من قيمها الإسلامية ونمط حياتها، وما تخطه أقلام أبنائها من حروف عربية، حيث بُدّلت إلى لاتينية، كان ذلك زمن المستغرب أتاتورك.

ونتج عن هذا :(سريان موجة من الإلحاد بسبب اعتناق بعض الذين تأثروا بهذا الفكر الغربي المادي، ودافعوا عنه، وبدأ في كثير من الذين تعلموا على أيدي أساتذة غربيين ولكنه شاع بعد ذلك في كثير من المتعلمين في العالم الإسلامي، بل وصل إلى أنصاف المتعلمين، من الذين رددوا الفكر الماركسي والوجودي)[٤].

ونتج-أيضا-: أن سرت سموم التغريب الفلسفي المادي الوجودي في الفن، والتعليم، والإعلام،

(١) شبهات التغريب، أنور الجندي، ص١٢.

(٢) وجهة الإسلام ، هاملتون جب وآخرين، ص ٢١٩، المطبعة الإسلامية ، القاهرة.

(٣) الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين، د/ صابر عبدالرحمن طعيمة صـ٣٦١، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٤م

(٤) جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، د/ محمود عبدالحكيم عثمان صـ٤٠ مكتبة المعارف، الرياض.

والثقافة، فأدت لضعف المناعة لدى قليلي الثقافة الإسلامية، حيث تأثروا ببعض تلك السموم الفكرية، التي تُبَثُ في عقولهم، وتؤثر على قلوبهم، ومن ثم ربما خلع بعضهم ربقة الإيمان من عنقه، ونفض اليد من قيم السماء، ووقع في شَرَك المادية الإلحادية، ومن ثَم مثَّل هؤلاء المتغربون جسراً لعبور النظريات الفلسفية المادية، والأفكار والتيارات الإلحادية.

الباب الثاني
أسباب انتشار الإلحاد حديثاً وسبل الوقاية

ويشتمل على خمسة فصول:

- **الفصل الأول: غياب دور الأسرة**
- **الفصل الثاني: المشكلات الاجتماعية**
- **الفصل الثالث: ضعف مواكبة المناهج الدراسية**
- **الفصل الرابع: ضعف مواكبة الخطاب الدعوي**
- **الفصول الخامس: وسائل التواصل الحديثة**

الفصل الأول: غياب دور الأسرة

المبحث الأول: مظاهر ونتائج غياب دور الأسرة

ومن صور ذلك الغياب ووسائل الوقاية:

١ - القسوة، والعنف، والشدة في التعامل مع الأولاد، وحرمانهم من حقهم في العطف، والرحمة واللين، عن أم المؤمنين عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت جاء أعرابي إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[١].

فمن الأمور التي يكاد يجمع عليها علماء التربية، (أن الولد إذا عومل من قبل أبويه، ومربيه المعاملة القاسية، وأدب من قبلهم بالضرب الشديد، والتوبيخ القارع وكان دائما الهدف في التحقير، والازدراء، والتشهير، والسخرية، فإن ردود الفعل ستظهر في سلوكه، وخلقه، وإن ظاهرة الخوف، والانكماش ستبدو في تصرفاته وأفعاله، وقد يئول الأمر إلى الانتحار حينا، أو إلى مقاتلة أبويه أحيانا، أو إلى ترك البيت نهائيا، تخلصا مما يعانيه من القسوة الظالمة، والمعاملة الأليمة... [٢]

وتبدأ العناية فور ميلاده لينشأ سويـًا: (وينبغي أن يُوقّى الطفلُ كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة، والمناظر الفظيعة، والحركات المزعجة؛ فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة؛ لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره، فإذا عرض له عارض من ذلك؛ فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده، وإيناسه بما ينسيه إياه؛ ليزول عنه ذلك المزعج له)[٣].

وليس من المستبعد أن نراه بعد ذلك مُحطَّمـًا نفسيـًا وفكريا، وسلوكيا، أو مجرما ومدمنا كارهـًا من حوله.

ومن نتائج قسوة الأبوين أو أحدهما على الأولاد: أن يكره الولد البيت، ويكره والديه، ويكثر المكث خارج البيت، ومن ثم يجد أصدقاء يأنس لحديثهم، ومليح نكاتهم فلربما خطط بعضهم - باعتباره صيدا سهلا -لإفساد دينه أو عقله و سلوكه، وغذَّاه بأفكار تزلزل العقيدة المهتزة في قلبه، أو يقنعه بأفكار تحوي تكفيرا للمجتمع، والنقمة عليه، وتحفزه للرغبة في الانتقام بأي صورة من صور الإجرام الفكري، أو المادي.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه؛ رقم (٥٩٩٨) (٨/ ٧)، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم في صحيحه؛ (٢٣١٧) (٤/ ١٨٠٨)، كتاب: الفضائل، باب: رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، ابن ماجة في سببه؛ رقم (٣٦٦٥) (٢/ ١٢٠٩).

(٢) انظر تربية الأولاد في الإسلام / عبدالله ناصح علوان ط٢٥ دار السلام للطباعة والنشر سنة ١٩٩٤.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن قيم الجوزية، ص (٢٣٣)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان دمشق، ط١، (١٩٧١م).

٢- إهمال الأولاد وعدم تزويدهم بالخبرات السلوكية، أو الفكرية التي تحصِّنُهم وتجعل أحدهم عصيا على السيطرة عليه من قبل المتربصين والمرجفين، ولذا فلابد من فتح باب دائم للحوار الرقيق المهذب المشمول بالحب، والثقة بين طرفيه، وإعطاء الولد الفرصة الكاملة ليعبر عن ذاته، ويعرض ما التقطه عقله من أفكار واستنتاجات، أو ما التبس عليه من أمور عقدية، أو فكرية ومحاولة إقناعه بحجج شرعية وعقلية بقدر الإمكان، والاستعانة بالمتخصصين إذا لزم الأمر.

٣- الانشغال الدائم من قبل الوالدين، أو أحدهما، والتقصير في إشباع حاجة الأولاد النفسية والروحية والفكرية، من شأنه أن يجعل الأولاد عرضة – بسب الفراغ وضعف المراقبة – للدخول إلى مواقع إلحادية، أو إباحية، أو التواصل مع أشخاص ليسوا أمناء دينيا ولا سلوكيا.

والعذر الذي هو أقبح من ذنب أن بعضهم يتعلل بأنه يعمل ويشقى ويجمع المال من أجل العيال، لكن ما قيمة المال إذا ضاع العيال!!. فالأولاد أغلى ما عندك وحمايتهم ليست من الفقر فقط ، وإنما من الفكر الفاسد أيضا.

٤ – إهمال الأب أمر التربية والاعتماد على الأم، ومعلوم أن دور الأب أساسي لا تستطيع كل أم أن تقوم به، والأدهى أنه عند انحراف الأولاد، أو تخلفهم دراسيًا، أو تبنيهم لأفكار ضالة منحرفة، يلقي الأب بالتبعة على الأم، ويحملها المسئولية، ويتهمها بالفشل؛ علما بأنه المتسبب فيه والمسئول الأول عنه.

٥ – عدم مراقبة ومتابعة ما يشاهده، أو يقرأه، أو يسمعه الأولاد، فمن شأن عدم المتابعة والمراقبة أن يلج الولد إلى أي منتدى، أو موقع، أو تقع في يده مجلة، أو كتاب يحوي أفكارا هدَّامة كل ذلك بسبب غياب دور الأسرة، وعدم القيام بدورها. فنتابع ونراقب بفن، ودون أن نحاصر الولد، ونتدخل فورا إذا احتاج الأمر إلى تدخل، ونحسم ما يحتاج إلى الحسم قبل استفحال الأمر، ووقوع الكارثة.

٦ – ترك الحبل على الغارب للولد؛ ليخرج ويرجع متى شاء، ويذهب إلى أي مكان شاء دون مراقبة ومتابعة، من شأن ذلك أن يُحوِّل الولد إلى عضو في عصابة، أو متبنٍ لأفكار ضالة اكتسبها من الأماكن، والأشخاص الذين يلتقيهم. وتوجد نماذج لفتيان، وفتيات خرجوا من الإسلام، واعتنقوا دينا آخر، أوأفكاراً إلحادية دون علم والديهم، لغياب دورهم التربوي والإيماني، ولوجود فجوة بين الآباء وأولادهم، ولعدم المتابعة والمراقبة.

الباب الثالث
أهم شبهات الملحدين المعاصرين
والرد عليها
ويشتمل على خمسة فصول:

- **الفصل الأول: إنكار الملحدين المعاصرين وجود الله .**
- **الفصل الثاني: إنكارهم لوجود الملائكة والطعن فيهم .**
- **الفصل الثالث: الطعن في الكتب السماوية.**
- **الفصل الرابع: إنكارهم بعثة الرسل.**
- **الفصل الخامس: طعنهم في بعض أحكام الشريعة الإسلامية .**

الفصل الأول: إنكار الملحدين المعاصرين وجود الله والرد عليهم

ويشتمل على عدة نقاط

النقطة الأولى: تصوير الشبهة

شبه الملحدين المتعلقة بوجود الله، ونشأة الخلق، وكيف تطور وترقى حتى وصل إلى ما هو عليه تكاد تتلخص في الآتي:

- يزعمون أن ليس ثمة دليل فلسفي، أو علمي على وجود سبب أول ذكي؛ لأن ذلك الدليل سينهار عند البحث عن سبب هذا السبب الأول، وأن نظرية الانتخاب الطبيعي (التطور) هي: النظرية الوحيدة، والقادرة على تفسير وجود التركيب المنظم من الخلية الأولى، ويتم ذ لك عن طريق (الصدفة المُروّضَة)، لكن الأمر - من وجهة نظرهم- يحتاج إلى وقت كاف مع وجود آلية خاصة (ميكانزم)؛ لتوجيه كل خطوة في مسار صحيح، حتى لا تسير سيرًا عشوائيا لا نهائيًا[١]. ورد بعضهم ذلك النظام في الكون لصدفة عبثية عشوائية حيث قالوا: «إن الكون عبثيٌّ وعشوائيٌّ، وما قد يظهر من نظامٍ هو صدفةٌ لأ أكثر، من بين الكثير من العشوائية، لا يوجد أيّ دليلٍ على خطةٍ أو هدفٍ أو تصميم [٢].

وزعم ملحدٌ آخر: أن الصدفة العمياء هي المسيرة للرياح المحملة باللقاح (وتلك الظروف تحدث بشكل تلقائي (بلا وعي) فعندما تهب الرياح، فهي لا تهب لتنقل اللقاح بوعي، وإنما يحدث ذلك مُصادفة (الرياح ظاهرة طبيعية تحدث حتى في الأماكن التي لا وجود للنباتات فيها) وعندما ينتج عن هذه الحركة غير الواعية حدث أو شكل واعٍ فإن هذا لا يعني أن ثمة شخصـًا أو قوة واعية كانت وراء حدوثه، وإن كان هذا صحيحًا فعلينا أن نحاسب هذا الإله عن الكوارث الطبيعية التي يروح ضحيتها آلاف، بل وملايين الأبرياء من الأطفال)[٣] .

ويمكن حصر أهم المزاعم التي اشتملت عليها الشبهة في الآتي:

١- إنكار وجود الله، والقول بقدم العالم، وأزلية المادة الأولى التي نشأ منها الكون.

(١) انظر: وهم الإله، (ص:١١٥، ٤١٨-٤١٩)،الملحد ريتشار دوكينز، ترجمة الملحد: بسام البغدادي .وانظر: مقال (أسئلة جريئة عن خلق الكون) الملحد بسام البغدادي، موقع مجلة الملحدين العرب العدد: ١٨، مايو ٢٠١٥م، وانظر: مقال « القليل من الأخلاق» نفس المجلة، العدد ٥٦ يوليو، ٢٠١٧م

(٢) ضمن حوار مع الملحد عالم الفيزياء : فيكتور ستينغر، صاحب كتاب (الله : الفرضية الفاشلة) مجلة الملحدين العرب، العدد ٢٩، أبريل، ٢٠١٥م

(٣) مقال: «آلهة اسمها الصدفة» الملحد هشام آدم، موقع الحوار المتمدن، العدد: ٣٢٧١، ٨ / ٢ / ٢٠١١م .

٢- القول بالصدفة والاحتمال والعشوائية[١].

٣- الاعتماد على نظرية التطور كدليل على زعمهم

النقطة الثانية: تفنيد الشبهة وردها

وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

١- الرد العقلي.

٢- موقف العلم الحديث من الشبهة .

٣-رد علماء الإسلام على الشبهة .

(١) انظر: الجديد في الإنتخاب الطبيعي(صانع الساعات الأعمى) ، الملحد: ريتشار دوكينز، ترجمة د مصطفى فهمي ص ٤١٩،الهيئة المصرية العامة للكتاب. وانظر وهم الإله ، ص ١١٥، مرجع سابق

المبحث الأول

إنكار الملحدين لوجود الله، وقولهم بقدم العالم ، والرد عليهم

١ - الرد العقلي:

ويشتمل على ثلاث قواعد عقلية :

أ-قاعدة: التقسيم العقلي:

أولاً: جميع المخلوقات إما أن توجد بنفسها صدفة من غير محدث ولا خالق خلقها، وهذا محال ممتنع تجزم العقول ببطلانه ضرورة، ويُعلم يقيناً أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه للعقل، لأن كل من له عقل يعلم أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد ولا محدث، فلابد لكل حادث من محدث، فإن وجود الشيء من غير موجد محال وباطل بالمشاهدة والحس والفطرة السليمة.

ثانياً: وإما أن تكون هذه المخلوقات الباهرة هي المحدِثة والخالقة لنفسها، وهذا أيضاً محال ممتنع بضرورة العقل، وكل عاقل يجزم أن الشيء لا يُحدث نفسه، ولا يخلقها، لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقاً؟ .

ثالثاً: وهو أن هذه المخلوقات علويها وسفليها، وهذه الحوادث لابد لها من محدث ينتهي إليه الخلق والملك والتدبير، وهو الله –سبحانه- الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها،[١] . فالمخلوق لابد له من خالق والمصنوع لابد له من صانع ، وهذه قضايا بدهية جلية واضحة، يتفق عليها كل العقلاء، فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وانحرافه.[٢]

ب-قاعدة: العدم لا يخلق شيئاً:

(العدم لا يخلق شيئاً لأنه غير موجود، فإذا تَفَكَّرَ العاقلُ في المخلوقات التي تولد في كل وقت من إنسان وحيوان ونبات، وفكَّر في كل ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار، وليل ونهار، وما يحدث في كل حين من سيرٍ منتظم لحركة الشمس والقمر والأرض، إذا تفكر العاقل في كل هذا وغيره مما يجري في الكون في كل لحظة، فإن العقل يجزم أن هذا كله ليس من صنع العدم، وإنما من صنع الخالق- سبحانه- [٣].

---

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، تحقيق عبد الرحمن خليفة ص ١٥، ٦٥، الناشر، محمد علي صبيح القاهرة،١٣٤٧ه . وانظر: رد تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق د رشاد سالم،ج٣، ص ١١٣، ط٢، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة. وانظر: الرياض الناضرة، عبد الرحمن السعدي، ص ٢١٣، دار المنهاج القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٢) الرياض الناضرة، ص ٢١٥، مرجع سابق.

(٣) انظر: كتاب: الإيمان د عبد المجيد الزنداني وآخرين، ص ٢١، الناشر: جامعة الإيمان، اليمن.

ج-قاعدة: فاقد الشيء لا يعطيه:

من المعلول باتفاق العقلاء أن فاقد الشيء لا يعطيه، حيث إنه لا يملك، فهو عاجز عن العطاء،فمن زعم من الملحدين أن الطبيعة خلقت نفسها أو خلقت شيئًا فقد خالف العقل، وحارب الحق، لأن الكون يشهد أن خالقه حكيم عليم خبير قوي غني، والطبيعة الصماء العمياء لا تملك شيئا من هذا.

ومن العجيب أن كل من زعم أن الطبيعة تخلق شيئًا فقد خالف مقتضى العقول، حيث إن الطبيعة الفاقدة للقدرة والخبرة والإرادة كيف تخلق خلقًا يسمع ويبصر ويعقل له إرادة، أما علموا أن فاقد الشيء لا يعطيه، قال سبحانه﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾[1].

فلابد أن يكون الخالق قادراً عالما مريداً، كاملاً كمالاً مطلقًا وهذا لا يكون إلا لله الخالق العظيم – سبحانه- .

والعقل يقول: يستحيل أن يأتي الشيء من اللا شيء أو من العدم؛ لأن العدم عاجز عن إيجاد نفسه فهو عن إيجاد غيره أعجز من باب أولى، ولكي يَخلق لابد أن يكون موجوداً، ولكن إذا كان موجوداً، فقد خُلق وانتهى. ولكي يُخلق لا بد أن يكون غير موجود، وإذا كان غير موجود فكيف يقوم بعملية الخلق.

فقول الملاحدة: (أوجد الكون نفسه) عبارة متناقضة، تفترض وجود الشيء وعدمه في الوقت نفسه. وسقط القول بقدم العالم، وأزلية المادة، بل العالم حادث والمادة مخلوقة، وكل أفراد الكائنات الحية تُخلق منذ وجدت خلقا مطردًا بطريقة تلقيح وتكاثر واحدة ثابتة لا تتخلف.

فهل بعد هذا يعقل أن يقال إن الإنسان خلق نفسه بنفسه، وإذا بطل هذا في الإنسان هل يصح فيما دونه من سائر الالمخلوقات؟ اللهم لا. وهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون خالق ولا موجد؟ اللهم لا، حتى ولو كان المخلوق نملة أو ما هو أدنى منها. وبذا يسقط زعم الملحدين وغيرهم .

٢- ردود العلماء من غير المسلمين وموقف العلم

يقينا إن أي عالم منصف حباه الله بنعمة الفهم، والوعي والتدبر في ملكوت الله، لا يسعه إلا أن يخضع لذي الجلال إقرارا بعظمته، واعترافا بقدرته.

(١) الحج: جزء من الآية ٧٣.

يقول اللورد كلفن[١]: (إذا فكرت تفكيرًا عميقًا، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله)[٢].

وينقل د/ يحيى هاشم قولا لفولتير[٣] في دليل العلة الأولى: (إن كل ما يوجد لا بد أن يكون وجوده: إما بذاته، أو بغيره. وإذا كان وجوده بذاته فهو موجود منذ القدم وهو الله. أما إذا كان وجوده من غيره، وكان ذلك الغير من ثالث، فإن ذلك الذي يتلقى منه الأخير وجوده هو الله). ويستدل فولتير على أن الموجود القديم ليس هو المادة بقوله: (الذكاء ليس ضروريا للمادة؛ لأن الصخرة، أو الحبة لا يفكران... فمن أين تلقت الإحساس والتفكير؟ إذن: أجزاء المادة التي تفكر وتحس لا يمكن أن تتلقى ذلك من ذواتها...، ولا يمكن أن تتلقاه من المادة بصورة عامة. ومن هنا لا بد أن تتلقى ذلك من كائن أسمى، ذكي لا متناه، هو العلة الأولى لجميع الأشياء.

ويشدد فولتير على دليل هندسة العالم فيقول: (حين أرى ساعة يدل عقربها على الزمن أستنتج أن كائنا ذكيا قد رتب أجزاءها المحركة بحيث تدل عقاربها على الزمن... وكذلك عندما أرى أعضاء الجسم البشري، أستنتج أن كائنا قد رتب هذه الأعضاء بحيث تنشأ في الرحم وتتغذى فيه تسعة أشهر، وأن الأعين رتبت لترى، والأذن لتسمع)[٤].

وفي إشارة إلى التباين، والتمايز بين كافة المخلوقات، بل بين أعضاء البدن الواحد معجزة دالة على وجود الله، (إن المشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم منطقيا بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه أو قدرته، موجود في كل مكان، يحيط مخلوقاته برعايته، سواء في ذلك الكون المتسع، أو كل ذرة وجُزَيء من جُزَيْئات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة، وتوجد ظواهر عديدة، مما لا يمكن تفسيره أو إدراك معناه إلا إذا سلمنا بوجود الله، ومن ذلك مثلا: هذا الفراغ اللانهائي، وما يسبح فيه من النجوم، والكواكب التي لا يحصيها عد ولا حصر، ومن ذلك قابلية المادة للانقسام إلى جسيمات أساسية بالغة الصغر مهما كانت طبيعتها، ومن ذلك التشابه الذي نشاهده بين جميع الكائنات الحية التي نعرفها، مع اتصاف كل فرد

---

(١) اللورد كلفن (١٨٢٤- ١٩٠٧)، عالم فيزياء اسكتلندي، اسمه الحقيقي: وليام طومسون، مؤسس الفيزياء الحديثة، وصاحب وحدة قياس الحرارة المعروفة باسمه. انظر : مائة عالم غيروا وجه العالم ، أكرم عبد الوهاب، ص ١١٧، دار الطلائع ، القاهرة، ٢٠٠٥م .

(٢) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء، أشرف على تحريره جون كلوفر، ترجمة د/ الدمراش عبدالمجيد سرحان (ص ١٢)، الناشر: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ط٤، ١٩٨٦م .

(٣) فولتير أو فرانسوا ماري (١٦٩٤- ١٧٧٨)، كاتب وفيلسوف فرنسي، عرف بنقده الساخر ودعوته إلى الإصلاح والمساواة، ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية ودفاعه عن الحريات المدنية، خاصة حرية الاعتقاد، (وله آراء أخرى تنافي الإيمان بالله). انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، (ص: ٤٧١).

(٤) في مواجهة الإلحاد المعاصر -د/ يحيى هاشم فرغل (ص: ٤٢- ٤٣)، اصدار مجمع البحوث الإسلامية، عدد ربيع الأول ١٤٠٠ ه

بل كل بنان، بل كل ورقة من أوراق الأشجار، وقطرة من قطرات الماء، بصفات خاصة تميزها عن غيرها، وهنالك أيضا الهوة العميقة التي تفصل بين الإنسان وسائر الكائنات الأرضية الأخرى، وتجعله ممتازا عليها بعقله ومهاراته اليدوية)[١].

إن الذين اتخذوا الإلحاد دينا يفخرون به، وينافحون عنه يزعمون أن العلم يدعمهم واصطنعوا فجوة خيالية تفصل العلم عن الدين، ولنصغ لصوت العلم:

يقول مترجم كتاب العلم يدعو إلى الإيمان: (الغاية السامية التي توخاها المؤلف الكبير من تأليفه ألا وهي: إثبات وجود الله، ووحدانيته، بآلة من العلم المادي الحديث...، وكان العهد بدعاة الإلحاد أن يحتجوا بأدلة يحسبونها علمية، حتى لقد ظن البعض أن العلم والإيمان نقيضان لا يجتمعان). بل ألف: جوليان هكسلي، كتابا سماه (الإنسان يقوم وحده) زعم فيه أن العلم ينكر وجود الله، ولكن ها هو ذا عالم من أكبر علماء أمريكا، وقد شغل حينا رئيس المجمع العلمي في أمريكا، فقد تصدى له ورد عليه، وبين له وللناس جميعا، أن العلم الحديث يثبت وجود الله، وينتهي إلى الإيمان به بما لا يحتمل الشك والجدال، وقد سمى كتابه: (الإنسان لا يقوم وحده) أثبت فيه بمختلف العلوم أن الله بارئ الكون وهو خالق كل شيء)[٢].

ويقول ميريت ستانلي كونجدان[٣]: (إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته. وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار قدرة الله وعظمته...، إننا نرى آيات الله في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود)[٤].

وصدق الله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾[٥].

وقبل موت (أنتوني فلو) يقول: (إنني قد صرت أقبل فكرة الوجود الإلهي، وفسرت ذلك بأن ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل في بنية الكون يشير إلى وجود مصمم ذكي، كذلك فإن البحوث الحديثة حول أصل الحياة، وما تكشف من بنية شديدة التعقيد، وطريقة أداء مذهلة لجزيء (DNA) تؤكد حتمية

---

(١) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ١٦٠)، مرجع سابق.

(٢) انظر: الإنسان لا يقوم وحده أو العلم يدعو للإيمان، (ص: ٧)،كريسي موريسون، ترجمة:محمود الفلكي، دار القلم- بيروت، ١٩٨٦م.

(٣) عالم طبيعي وفيلسوف، دكتوراه من جامعة يورتون عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، متخصص في الفيزياء وفلسفة العلوم، وعلم النفس، انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٣٢).

(٤) الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٣٦).

(٥) الروم: ٥٠.

وجود المصمم الذكي)[١]. لقد أرادوا أن يكَفِّرُوا العلم فأبى العلمُ إلا أن يقودهم إلى الله – وتعالى– .

٣–رد علماء الإسلام في ضوء آيات القرآن:

أشار علماء الإسلام لكثير من الأدلة الشرعية العقلية، والمستنبطة من توجيهات آيات القرآن الكريم والدالة على وجود الخالق العظيم –سبحانه وتعالى– وعظمته، أشير لدليلين منها هما:

أ– برهان: الفطرة السوية.

ب– برهان: العلة الغائية.

أ– الفطرة السوية تعترف بوجود الله[٢]:

الكون وما فيه من نظام وإحكام، وكمال وتناسق وجمال، ليس هو الشاهد الوحيد على وجود بديع السماوات والأرض، وإنما هناك شاهد آخر، وهو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه، وهو شعور فطري فطر الله الناس عليه، وهو المُعبر عنه بالغريزة الدينية، وهو المميز للإنسان عن الحيوان، وقد يغفو هذا الشعور بسبب من الأسباب فلا يستيقظ إلا بمثير يبعث على يقظته ضرر يحيط،أو موت محدق، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾[٣] .

ودليل الفطرة يعتمد على أن الانسان لو ترك وذاته، بدون معلم أو مربي، فانه يشعر في أعماق نفسه وبما أودعه الله في خلقته بأن لهذا الكون خالقا خلقه، ومكونا كونه، ومبدعا أبدعه، ومدبرا دبره. هذا الشعور نابع من فطرته وذاته وليس مما تعلمه من والديه وأهله. يولد معه وينمو معه، ويبقى معه. لا يتغير بتغير الظروف، ولا يمكن انتزاعه من نفسه، لأنه جزء لا يتجزء منها. فكما أن غرائز الانسان ذاتية له لا يمكن فصلها عنه ولا تحتاج الى تعليم معلم، وكما أن عواطف الانسان وأحاسيسه جزء من خلقته وكيانه البشرى، فان شعوره الفطري الذاتي يدفعه دائما الى الايمان بأن لهذا الكون خالقا ومدبرا وربا.

(إن العقول والفطر مضطرة إلى الاعتراف بباريها، وكمال قدرته ونفوذ مشيئته، وذلك أن الخلق محتاجون، ومضطرون إلى جلب المنافع، ودفع المضار، ومن المعلوم لكل عاقل أن حاجة النفوس إلى خالقها أعظم من جميع الحاجات والضرورات، فهي مضطرة إلى علمها بأنه خالقهاوحده، ومالكها وحده، ومبقيها وحده، وممدها بمنافعها وحده، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[٤]، ولم يخرج عن

(١) انظر: رحلة عقل، د/ عمرو شريف، (ص: ٦٨)، ط٤، ٢٠١١م، دار الشروق الدولية.

(٢) سبق تناول الخطاب القرآني للفطرة بالمطلب الثاني من المبحث الأول بالفصل الثالث.

(٣) يونس: جزء من الآية ١٢.

(٤) الروم: جزء من الآية ٣٠.

هذه الفطرة إلا من اجتالتهم الشياطين[١]، وحولت فطرهم، وغيرتها بالعقائد الفاسدة، والخيالات الضالة، والآراء الخبيثة والنظريات الخاطئة. فلو خُلُّو وفطرهم، لم يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع، ودفع المضار ومنيبين إليه في التأله والتعبد والخضوع والانكسار)[٢].

وكثيرا ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عونا، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله؛ لضر نزل به قال ربي سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٣] .

(ما لنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية، محبة له، تعبده لا تشرك به شيئا، ولكن يقيدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل)[٤].

ب- العلة الغائية (دليل الحكمة والتناسق):

من الأدلة البديهية العقلية على وجود الله (جل جلاله) دليل العلة الغائية، أو دليل الحكمة والنظام في الشيء. بمعنى أن كل شيء خلق في الإنسان والحيوان والنبات والبحار إنما خلق بما هو عليه ليؤدي وظيفة، ولم يخلق عبثا، وكذا ما خلق الله من كواكب وشمس وقمر وأرض بأحجام وأبعاد وحركة سير، كل ذلك يدل على غاية النظام والتناسق، قال سبحانه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[٥] . وقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[٦].

«ولو رحت تسرد، وتصف مظاهر التنظيم، والتناسق بين شتى المكونات التي تراها أمامك، لضاق العمر كله عن استقصاء ذلك وتجليته، وارتد إليك الفكر خاسئا كليلا من روعة التدبير العجيب الذي يسري بدءا من كهارب الذرات إلى الأرض، وما فيها من أفلاك، كلها تسير وفق نظام رتيب لا يتخلف، وكلها يطوف حول غايات رائعة عجيبة ينتهي معظمها إلى خدمة هذا الإنسان ومصلحته!!»[٧].

---

(١) اجتالتهم: أي ذهبوا بهم وجالوا، انظر: شرح النووي على مسلم، (١٧/ ١٩٧)، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

(٢) انظر: البراهين العقلية على وحدة الرب، العلامة ناصر السعدي، (ص: ٢٣- ٢٤)، ط ١، ٢٠١٠م، الدار الأثرية للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٣) يونس: ٢٢.

(٤) الحسنة والسيئة، ابن تيمية، تحقيق د/ محمد غازي (ص: ٦٦)، ، مطبعة المدني، القاهرة.

(٥) الرحمن: ٥.

(٦) يس: ٤٠.

(٧) انظر: كبرى اليقينيات الكونية، د/ محمد سعيد البوطي، (ص: ٩١- ٩٢)، دار الفكر، دمشق ط ٨، ١٩٩٧م.

وهذه الحقيقة الواضحة، والتي تشكل برهانا يقينيا آخر على وجود الله -جل جلاله- (دليل الحكمة والتناسق) الذي يظل القرآن يوجه العقول إليه بأساليب مختلفة يفهمها الناس على اختلاف فهومهم.

وهو برهان (يخرس ألسنة الملحدين، ويسد دونهم منافذ الحيل كلها)[١].

وصدق ربي القائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾[٢] فلكل مخلوق في الكون غاية، ولم يخلق شيء بدون فائدة، أوغاية يؤديها.

وصدق ربي القائل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣].

وبعد.. هذه بعض البراهين الشرعية العقلية والتي لا يجحدها إلا مكابر موغل في الإعراض عن الحق، أعمى البصيرة، يؤمن بمادة عمياء صماء مخلوقة، وينكر وجود (أحسن الخالقين)، لا ينبغي لعاقل سليم العقل إلا الإقرار، والاعتراف، والخضوع للمدبر الخالق الحكيم العليم -(جل جلاله)-.

(١) نفس المرجع: (ص: ٩٣)

(٢) النبأ: (٦- ٨)

(٣) القصص: ٧١- ٧٢.

المبحث الثاني

الرد على زعمهم أن الكون نشأ صدفة

ويشتمل الرد على: تعريف الصدفة، والرد العقلي على القائلين بها، وموقف العلم والعلماء من القول بها، ورد علماء الإسلام في ضوء آيات القرآن:

أ-تعريف الصدفة: هي ما يحدث عرضـًا دون اتفاق أوموعد. وأمرٌ وليد الصدفة: ارتجالي، فجائي، دون اعداد مسبق [١].

وعرفها أرسطو: بأنها العلة العرضية المتبوعة بنتائج غير متوقعة تحمل طابع الغائية.

وتعرف حديثـًا : بأنها الأمر الذي لايمكن تفسيره لابالعلل الفاعلة، ولا بالعلل الغائية.[٢]

وعُرِّفت الصدفةُ من قبل الملاحدة تعريفات كثيرة تنم عن حالة من التخبط، والتلاعب بالمصطلحات للتغطية على زيفهم وكذبهم، فلا هي بالعلل الفاعلة، أي ليست قانونـًا ولانظامـًا ولاقادرة على شيئ، ولاتعرف الهدف الذي من أجله وجد الفعل المختار...فماذا ننتظر من علة عمياء عاجزة عشوائية أيمكن أن تنشئ نظامـًا بلغ الغاية في الدقة والإحكام!!؟

ولـو تتبعنا استخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية لوجدنا أن هذه الكلمة لا تستخدم إلا للتعبير عن واحد من ثلاثة مفاهيم :

١ـ للتعبير عن عدم القصد من وراء الفعل مع إمكانية فعل الفعل بقصد، كأن تلتقي بصديق في محل من غير موعد فتقول لقيته صدفة أي بغير قصد مني أن ألقاه.

٢ـ للتعبير عن وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم توفر القدرة على فعله، كأن يرمي رجل لا يعرف فنون الرماية هدفًا فيصيبه من أول رمية فيقال: إن إصابته للهدف كانت من قبيل الصدفة أي ليست عن استحقاق ومهارة .

٣ ـ للتعبير عن عدم وجود رابط بين حدثين متزامنين أو متلاحقين أي انتفاء ما يسمى برابط السببية بينهما، سواء كان هذا الرابط مباشرًا باعتبار أحدهما (سببـًا) والآخر (نتيجة)، أو غير مباشر باعتبار أن كليهما نتيجة مشتركة لسبب ثالث غير ظاهر.

ب-الرد العقلي:

يمكننـا أن نرى بوضوح من خلال الاسـتخدامات اليومية لكلمة (صدفة) أنه لا علاقة لمفهوم الصدفة

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة «صدف» ص: ١٢٨١.

(٢) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد، ص ٢٦٥، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٤م .

الذي نستخدمه مع ما يحاول هؤلاء الملحدون أن يوهمونا به، ففي الحالتين الأوليين كان استخدام كلمة (صدفة) يقتصر على التعبير عن عدم القصد أو عدم القدرة، لكنه لا يتحدث أبدًا عن عدم وجود فاعل أصلاً ولا يمت إلى هذه الفرضية بأية صلة! فكونك التقيت بصديقك في المحل صدفة لا يعني أن هذا اللقاء تم بدون أن يكون هناك فاعل له، والفاعل هنا كما هو واضح ، هو أنت وصديقك، فكلاكما قام بعمل من أجل إحداث هذا اللقاء كالمشي من المنزل إلى المحل التجاري مثلاً، وغاية الأمر أنكما لم تقصدا إحداث اللقاء، وكذلك الشأن في الاستخدام الثاني لكلمة الصدفة، فكون الرمية التي رماها المبتدئ في الرماية أصابت الهدف (صدفةً) لا يعني أن ذلك حدث دون الحاجة إلى فاعل وهو الرامي في هذه الحالة، فإطلاق كلمة صدفة على هاتين الحالتين لا يعني مطلقًا عدم الحاجة إلى وجود فاعل للأحداث، وإنما يعني أحد أمرين: إما عدم القصد لإحداث الفعل وإما إحداث الفعل مع وجود القصد ولكن دون وجود القدرة على إحداثه، وفي كلتا الحالتين فإن الفاعل موجود وهو ما يريد المشككون نفيه، فأي حجة لهم في استخدام كلمة صدفة سوى تضليل الناس وإيهامهم بوجود بديل معقول لمسألة الخلق؟ فالصدفة تصف كيفية الحدث، ومعنى أن الفعل حدث صدفة؛ أي أن الفعل حدث دون قصد وترتيب مسبق من الفاعل ووصف كيفية حدوث الفعل لا ينفي وجود فاعل له.

فهل يمكن لذلك الاحتمال غير الفاعل، وغير الواعي، وغير المنظم ، وغير القادر، وغير المتزامن أن يكون هو الفاعل لذلك النظام في الكون والخلق؟! هل الصدفة العمياء هي التي خلقت بشراً يسمع ويبصر ويعقل؟!.

فما دمتم تقولون بالصدفة فأيهما أسبق وجوداً الصدفة أم المادة التي نشأ منها الكون؟

الصدفة تفتقر إلى الزمن، والذي يفتقر إلى شيء يأتي بعده، وبالتالي الصدفة جاءت تالية للزمن، لأن الزمن شرط وجودها.

كما أن الصدفة بدورها تفتقر إلى المادة التي ستطبق نفسها عليها، فالمادة سابقة على الصدفة، لأن شرط وجود الشيء سابق عليه، فكيف يُفسر ظهور مادة الكون بالصدفة مع أن الصدفة لن تظهر إلا بعد ظهور مادة الكون، والكون كله ظهر من اللامكان أصلاً .

فظهور المادة إما أن يُفسَّر بالصدفة وهذا باطل لأن المادة شرط لوجود الصدفة، كما أن زهر النرد شرط لعامل الصدفة في لعبة النرد، والصدفة تفتقر إلى عامل الزمن وحقيقة الزمن لا تخرج عن جنس المادة، فالمادة شرط لوجود شرط وجود الصدفة، وبالتالي فالصدفة لا تفسر وجود المادة، فمطلق وجود المادة هو أصل لتصور الزمن الذي هو أصل لتصور وجود الصدفة.

ويتمسك الملحدون بالصدفة باعتبارها « هي المخرج الوحيد من المأزق الذي وضع التطوريون

أنفسهم فيه بسبب غياب الدليل العلمي، وهي التبرير الوحيد لأعظم ظاهرة على وجه الأرض، ولم ير العلم تبريراً أخرق كهذا لأي نظرية من نظرياته، في أي فرع من فروعة» [١]

ج - موقف العلم والعلماء من القائلين بالصدفة:

إن العقل السليم ليدحض بداهة فرية الماديين والملحدين، مِن أنَّ خلق الكون من مادته الأولى كان صدفة، ويهدفون من ورائها إلى إبعاد الكون عن المكوِّن، وإنكار وجود خالق مبدع له. وقد انبرى علماء الإسلام وغيرهم للرد على ذلك الزعم الباطل. (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة)[٢].

هذا المثل نفسه ينقض دعوى قائليه، ويستلزم فرضا غير فروض المصادفات التي تتكرر على جميع الأشكال والأحوال...فقد فاتهم أنهم قدموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللفظ وينشأ منها الكلام المفهوم، فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة تربط بينها علاقة التشاكل، أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء؟

ثم (لماذا تماسك النظام في الكون بعد أن وجد مصادفة واتفاقا، ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الأنحاء؟ وما الذي قرره وأمضاه وجعله مفضلا على الخلل والفوضى، وهما مثله ونظيره في كل احتمال؟ والعجب في تفكير الماديين أنهم يستجيزون الكمال المطلق في كل عنصر من عناصر الوجود إلا عنصر (العقل) وحده فإنهم يحدونه بالعقل الذي يتراءى في تكوين الإنسان دون سواه)[٣].

أجيبوا أيها الملاحدة: (من أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب، والترتيب الحكيم، الذي حارت فيه العقول؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ومجرد البخت؟ وكيف اجتمعت تلك الأجزاء على اختلاف أشكالها، وتباين مواردها وقواعدها؟ وكيف حفظت وبقيت على تآلفها؟ وكيف تجددت المرة بعد المرة؟![٤].

إن الصدفة في مجال الكون مستحيلة في ذاتها، فضلًا عن أن ينبثق عنها هذا الإحكام والنظام، (ولو سلمنا جدلًا بصدفة واحدة في البداية، فهل يقبل عقلنا بسلسلة طويلة متتابعة من المصادفات؟[٥].

---

(١) نظرية التطور الدارونية، خرافة باسم العلم، د/ طالب الجنابي، ص ١٣٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٩م .

(٢) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، (ص: ٨٤- ٨٥) مرجع سابق.

(٣) الله ، العقاد ، ص ١٤٢، مرجع سابق.

(٤) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، للدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص ٥٥٦، أصله رسالة ماجستير، الناشر مؤلفه، ط٤، ٢٠٠٤م الرياض.

(٥) عقيدة التوحيد للدكتور محمد ملكاوي ص ١٥٠، الناشر مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة.

والعلامة المميزة للمصادفة: هي عدم الاطراد وعدم النظام، بينما النظام السائد في الكون ثابت كل الثبات، مطرد بلا تخلُّف، على تعقُّده، تحكمه قوانين نتوقع معلولاتها توقعًا يقينيًّا: فكيف يُتصور أن مثل هذا النظام المطرد ناتج مصادفة؛ أي: من عدم النظام وعدم الاطراد؟ ثم هل الشمس التي تشرق كل صباح دون تخلف صدفة ؟ وهل القمر الذي يكون بدراً في منتصف كل شهرٍ هجري صدفة؟ ... وهل يمكن للصدفة أن تجعل للعين خاصية الإبصار، وللأُذن خاصية السمع، وكل حاسَّة من تلك الحواس بها ملايين من الخلايا البصرية والعصبية.

يقـول د/ فرانـك ألـن[١]: (ولننظر الآن إلى الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة، إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكَوِّن جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد، وقد قام العالم الرياضي السويسري «تشارلز يوجين جاي»، بحساب هذه العوامل جيدا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة، لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة: ١ : ١٠ مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به، أو التعبير عنه بكلمات.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها تساوي ١٠ مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين)[٢].

يقـول د/ رسـل مكسـتر[٣]: (إن المنطق السليم يدفعنا إلى التسليم بوجود (خالق) هو الذي خلق ودبر تلك الاختلافات والاتفاقات التي نتحدث عنها أكثر من أن يجعلنا نتصور أن تلك الأنواع المختلفة من الكائنات الحية، قد ظهرت بمحض الصدفة التي أدت إلى اتحاد بعض العناصر تحت ظروف البيئة)[٤].

---

(١) عالم الطبيعة البيولوجية، دكتوراه من ج كورنل، أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا سنة ١٩٠٤- ١٩٤٤م، انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٢٠).

(٢) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٢٥- ٢٦).

(٣) أستاذ علم الحيوان بجامعة هوبن، عضو الجمعية العلمية بإلينوي (أمريكا)، متخصص في دراسة الأنسجة والعناكب. انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٧٦).

(٤) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، (ص: ٧٨).

هذا النظام الدقيق المذهل الذي يربط بين أجزاء الكون علويِّة وسفليِّة، من الذرة إلى المجرة، هذا النظام البديع المدهش للعقول، محال لدى العقل السليم أن يكون ناجما عن صدفة أو تلقائية، أو ناجما عن حركة مستمرة لمدة طويلة، أو تفاعلات كيميائية كما يزعم الملحدون والماديون، إنه لمن أمحل المحال، وأبطل الباطل، أن يصدر هذا النظام الكامل عن غير ذي إرادة وقصد وعلم وحكمة.

إن نظرة إلى السماء وارتفاعها ونجومها، وإلى الأرض وجبالها وسهولها وأنهارها وبحارها، وإلى المطر كيف يتكون ويتلاقح في السحاب؛ لينزل غيثا مغيثا، إن نظرة لأي مفردة في كون الله الفسيح لتقود العقل الرشيد إلى الله تعالى.

حقاً كما قال ربي: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[١] .

د- رد علماء الإسلام :

أشير لبعض الآيات القرآنية الكونية، التي تدل على دقة وحكمة وغاية، تلك الآيات الباهرات، وذلك بفهم علماء الإسلام:

قول الله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[٢] .

(أي وضعها للخلق لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهادا، وفراشا يبنون بها، ويحرثون ويغرسون، ويسلكون سبلها فجاجا، وينتفعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم)[٣]. (أي أوجدها موضوعة في هذا النظام البديع، من أجل منفعة الناس جميعا، لأن إيجادها على تلك الصورة الممهدة المفروشة، جعلهم ينتفعون بما فيها)[٤].

وخلاصة ما قاله علماء التفسير: أن الله وضع الأرض في مدارها، وجعلها تدور حول نفسها لتعاقب الليل والنهار، لسعي الناس للعيش نهارا وسكونهم بالليل قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾[٥]. ثم جعلها تدور حول الشمس؛ لتعاقب الفصول الأربعة وقدَّر ربي موقعها، ومدارها، والمسافة بينها وبين الشمس حتى تستمر الحياة، ولا تستحيل . (ومن تمهيد الأرض لحياة الإنسان والكائنات الحية، أن أودع الله فيها ما تكون به الحياة من هواء وغذاء، وكساء للإنسان والحيوان والحيتان، ومما يدل على الإتقان في هذا الخلق: أن الشمس لو كانت أقرب من الأرض ولو بمسافة يسيرة؛ لأصبحت الأرض حارة

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) الرحمن: ١٠.

(٣) انظر: تفسير السعدي، (ص: ٨٢٨).

(٤) انظر: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي، (١٤/ ١٣٢).

(٥) النبأ: ١٠- ١١.

جدا، وتحولت إلى محرقة بحيث تستحيل الحياة عليها، ولو كانت الشمس أكثر بعدا من مسافتها الحالية لأصبحت الأرض كتلة من الثلج، وتستحيل الحياة عليها...)[١].

أهي الصدفة التي وضعت الأرض للأنام، وجعلت الشمس سراجا؟ أهي التي قدرت منازل القمر؟ قال ربي: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[٣]. والتقدير: (هو: وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة بمقدار معين، وبكيفية معينة تقتضيها الحكمة، ويقرها العقل السليم...، وهو سبحانه الذي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها، وفي أنواعها، وفي أفرادها، وفي صفاتها وأفعالها...)[٤].

وآيات القرآن التي تشير إلى الدقة والإحكام والدالة على أن كل شيء خُلق بقدر وبمقدار أكثر من أن تحصى ويكفي قول الله: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[٥] .

(١) ينظر بتوسع: العلم يدعو للإيمان، كريسي مورسيون، (ص: ٥٥)، مرجع سابق. وانظر: فطرة الله في خلقه، عدنان السبيعي، (ص: ٢٨)، دار الفارابي دمشق، ط ١، ٢٠٠٢م.

(٢) يس: ٣٩.

(٣) الأعلى: ٢- ٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي، (١٥/ ٣٦٢).

(٥) الحجر: ١٩.

المبحث الثالث

اعتماد الملحدين على نظرية التطور دليلا على مزاعمهم

ويشتمل الرد على: مفهوم التطور عند القائلين به، وموقف العقل والعلم من القول بالتطور، وموقف الإسلام من القول بالتطور.

النقطة الأولى: مفهوم التطور عند القائلين به:

وتتخلص فكرة نظرية النشوء والارتقاء عند (داروين)[١]، وغيره في:

أن كل الكائنات الحية، ومنها الإنسان نبتت ونشأت من الطبيعة من أعداد قليلة، أو مادة واحدة تولدت وتطورت منها كافة المخلوقات. والإنسان من -وجهة نظرهم- (يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة، وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب)[٢]، وأنه لا فرق بين الإنسان وأنواع القردة العليا إلا من حيث سعة العقل والفهم، والإنسان – من وجهة نظرهم – كالحيوان تماما من الناحية النفسية. (فهو – أي الإنسان – كالحيوان فسيولوجيا، فالإنسان يحس والحيوان يحس، والإنسان يدرك، والحيوان يدرك، ونواميس التغذية واحدة فيهما غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيوان؛ لأنه أكمل منه، كما أن الحيوان العالي يدرك أكثر من الحيوان الذي دونه)[٣]

ويزعمون: بأنه لا مزية لمخلوق على آخر فالمسألة مردها إلى الاضطرار وليس الاختيار، وأن الكائنات تتكون وتفنى على حكم النواميس الطبيعية حتى اليوم...

(وأن الأنواع متغيرة، ومتصلة بعضها ببعض بل متسلسلة بعضها عن بعض...أما كون الإنسان مفصولا طبيعيا بما يثبت: أنه نوع مستقل مخلوق وحده فمنقوض بمذهب « داروين» إذ اتضح به أنه متصل اتصالا شديدا بما دونه من الحيوان)[٤] ويزعمون أن الفرق بين الإنسان، وما دونه عرضي، وليس جوهريا، وأنه إذا كان ثمة فاصل بين الإنسان والحيوان، فهناك فواصل أيضا بين الحيوان الذي يلي الإنسان، وما دونه من الحيوان.

والقول بالتطور ليس من مخترعات الماديين المحدثين والمعاصرين بل (يعود القول بالتطور إلى

---

(١) تشارلز داروين: (١٨٠٩ – ١٨٨٢ م) عالم تاريخ طبيعي وجيولوجي بريطاني، اكتسب شهرته كمؤسس لنظرية التطور، له مؤلفات أهمها أصل الأنواع ١٨٥٩م، أصل الإنسان. انظر: أصل الأنواع ترجمة مجدي محمود المليجي صـ٣١ وما بعدها، الناشر المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،٢٠٠٤م.

(٢) انظر: فلسفة النشوء والارتقاء، د/ شبل شميل صـ١٨ الناشر دار مارون عبود، بيروت سنة ١٩٨٣م.

(٣) المرجع السابق صـ١٨.

(٤) المرجع السابق صـ١٩.

الطبيعيين الأوائل في اليونان، فقد أشاروا عرضا إلى التطور، وصرح به « أنكسمندر» (ت ٥٤٧ ق.م) في تفسيره لنشأة الكون، فزعم أن الأحياء تطورت بعد أن تولدت من التراب، والماء، والهواء، فالكائنات كانت في الأصل سمكا ثم تطورت إلى الأنواع المختلفة التي نراها، والإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه في النوع حملته في بطنها زمنا طويلا)[١].

ويمكن تلخيص أهم عناصر النشوء والارتقاء في النقاط التالية:

١- (الأصل المشترك، أو السلف المشترك، ويعني: أن الكائنات الحية حيوانية أو نباتية تطورت عن أصل واحد (وهوالكائن وحيد الخلية) وربما عن أصول قليلة، أي بضعة خلايا.

٢- الطفرات العشوائية: ويقصد بها الترقي من كائن إلى آخر أكثر تعقيدا حدثت نتيجة لتغيرات عشوائية في الشفرة الوراثية للكائن.

٣- الانتخاب الطبيعي: وهي آلية تنتقل بها الشفرات العشوائية المفيدة إلى الأجيال التالية ومن ثم يتم المحافظة عليها، أما الضارة فتموت، وتندثر، ويقصد بالانتخاب الطبيعي أن البقاء للأصلح والأنسب)[٢]. وأن صراعا شرسا يدور بين الكائنات؛ بل بين الخلايا من أجل أن يبقى الأقوى ويقضي على الأضعف.[٣]

النقطة الثانية: موقف العقل من نظرية التطور:

إذا كان الكون قد تطور من المادة الأولى إلى الحالة التي هو عليها، فهذا يدل على أن المادة الأولى قد طرأ عليها التغير والتبدل، وما يجري عليه التغير والتبدل لا يكون أزليًّا؛ لأن كل ما يتغير ويتبدل لا بد له من مغيِّر ومبدل؛ أي: لا بد له من سبب يغيِّرُه ويبدِّله، وهذا السبب لا بد أن يكون سابقًا له، مما ينافي الأزلية، وما دامت المادة الأولى احتاجت إلى سبب يغيِّرُها من حال إلى حال، وسبب يبدِّلها من حال إلى حال - فالمادة محتاجة إلى غيرها، غير مستغنية بنفسها، مما يدل على أن المادة حادثة، ولو كان الأصلُ فيها الوجود الأزلي لم تكن عُرضةً للتحول والتغير والتبدل.

النقطة الثالثة: موقف العلم والعلماء من القول بالتطور:

هذه شهادة من أحد الملحدين المتمسكين بمذهب النشوء والارتقاء وهو» السير/ آرثر كيث»[٤]

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ،د يوسف كرم صـ١٢، الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

(٢) خرافة الإلحاد،د/ عمرو شريف صـ١٧٩-١٨٠ دار الشروق الدولية – القاهرة (بتصرف يسير)، وانظر: أصل الأنواع – تشارليز داروين صـ١٣٥، ١٥٩،مرجع سابق.

(٣) خديعة التطور، هارون يحيى صـ٨ ترجمة سليمان بايبارا، مؤسسة الأجيال للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(٤) السير: آرثر كيث عالم تشريح بريطاني ولد في اسكتلندا (١٨٦٦ - ١٩٥٥م)، يؤمن بنظرية التطور. انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج٢٠، حرف «ك»، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، الرياض، ١٩٩٩م.

يقول: (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها؛ لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه)[١].

كما لا يمكن وصفها بالنظرية العلمية؛ لعدم القدرة على اثباتها وتجربتها

(هل لاحظها أحدهم،أوجربها في معمله؟... والجواب: لا! فذلك ضرب من المستحيل، حيث إن مزعومة الارتقاء معقدة، وهي تتعلق بماض بعيد جدا، حتى إنه لا سؤال عن تجربتها، أو ملاحظتها)[٢]، واستحالة ملاحظة نظرية داروين يثبت خروجها عن دائرة التجربة، والإخضاع للاختبار، وبالتالي خروجها من نطاق العلم التجريبي، رغم أن أنصارها يحاولون إقحامها على العلم التجريبي.

(إن كثيرا من تلك النظريات المتعلقة بأصل الحياة، ليست نظريات علمية على الإطلاق بل مجرد أفكار تأملية لا يمكن إخضاعها للاختبار)[٣]. فالنظرية بلا برهان يفسرها، وإنما هي فرضية تتوهم افتراضات أسقطها الواقع العملي والنظري، وذلك لأنه إلى اليوم لم يأت أحدهم بأي دليل معملي أو واقعي يرجِّح صحة ما زعموا، ولو بدليل واحد من الأدلة التي يمكن الاعتماد عليها كأساس لصحة الفرضية المزعومة.

هل يمكن أن تنشأ الحياة من تلقاء نفسها؟ يجيب أحد المتمسكين بنظرية التطور (أوبارين)([٤])، قال: (إن جميع المحاولات التي أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية، أو في المعمل، قد باءت بالفشل) [٥]. وقال أيضـًا:(إن قوانين الكيمياء العضوية لاتستطيع تفسير العمليات ذات المستوى الرفيع الجارية في الخلايا الحية، ولسوء الحظ مازال أصل الخلية سؤالاً يشكل أكثر نقطة مظلمة في نظرية التطور بأكملها -مع الأسف-)[٦]. إن أمر وسر خلية واحدة من مليارات الخلايا في جسم الإنسان أكبر من أوبارين وكل الملحدين،(يقول علماء الخلايا المعاصرون: إن جزيئات (dna) الموجودة في خلية واحدة في جسم الإنسان تحتوي على معلومات بقدر موسوعة عملاقة مؤلفة من ٤٦ مجلداً،كل

---

(١) كواشف زيوف صـ٣٢١، ٣٢٢ مرجع سابق.

(٢) الإسلام يتحدى صـ٦٦ مرجع سابق.

(٣) سقوط نظرية التطور صـ٥٤ ماهر خليل، المركز العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٤) الكسندر ايفانوفيتش أوبارين، أستاذ الكمياء الحيوية بمعهد «باخ» بموسكو،وعضو أكادمية العلوم، قال ذلك في المؤتمر الدولي الأول لعلوم البحار بنيويورك،١٩٥٩م والذي حضره مئات من العلماء. انظر: قصة الحياة ونشأتها، د / أنورعبد العليم،ص ١٥٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٥) المرجع السابق ، ص ١٥٣.

(٦) خديعة التطور ، هارون يحي، ص ١٠٦، مرجع سابق. وانظر داروين ونظرية التطور ص٢٩، شمس الدين آق بلوت، ترجمه من التركيه: أورخان محمد علي ، الناشر: يني آسيا، استانبول، ط٧، ١٩٨٠م

مجلد فيه ١٢٠ ألف صفحة)[١]. أي أن قلم القدر الإلهي سجل في هذه الخلية المتناهية في الصغر معلومات عن الإنسان ،قلبه، رئته، معدته، كل صفاته الجينية والوراثية... ثم يأتي الملحدون ليرددوا دون خجل: أن الأحياء التي تملأ الأرض وتزينها، ليست إلا نتيجة تطورات عشوائية حدثت في هذه الجزيئات ، فإن سألتهم كيف وُجِدت وظهرت فلن تتلقى منهم سوى الاتهام بالجهل والرجعية.

التطوريون خُدعوا بالعَرَض عن الجوهر: وربما خُدع داروين – ابتداء – في رحلته البحرية ببعض أوجه الشبه بين الحيوانات، والطيور، والحشرات، وبين أنواع القردة العليا والإنسان، لكن فاته أنه شغل نفسه بالعرض، وليس بالجوهر.

(داروين اتخذ التغير العرضي معيارا، وفسر الأنواع نفسها كما تفسر الأصناف، وقد نسلم بالتطور، ثم ترانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته؛ بسبب ما يختص به من علم، ولغة، وفن وصناعة، وخُلق، ودين، وهي مظاهر للعقل لا نظير لها في سائر الحيوان، وقد نسلم بالتطور ثم ترانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة موجه لها؛ لقصور المادة عن تنظيم نفسها، ولكن من العلماء، والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل، فيرون المحالات...)[٢]

ثم أين الشبه بين الإنسان العاقل، المدني، المفكر، العالم، الطبيب، والذي استطاع بما حباه الله من ملكات، وقدرات أن يوظف كثيرا من مفردات الكون لصالحه، مع قرد يتسلق الأشجار ويعيش في الغابات، والأحراش، يمارس حياته وفق ما جبل عليه جيلا بعد جيل؟

(لقد كانت الدراسات القديمة في هذا الميدان تعتمد فقط على الصفات الخارجية للأنواع الحية، من مظهر، وطول، ولون جلد، بينما الدراسات الحالية تعتمد على معطيات جديدة كعلم المناعة، وعلم الكيمياء الحياتية، أو علم الوراثة...، فأقل ما يقال عن فترات ظهور نظريات التطور أن الوسائل المستعملة في ميدان العلوم الطبيعية آنذاك، وسائل بدائية إلى حد كبير)[٣]، ولذلك لا تجد أجوبة علمية قاطعة لدى التطوريين، وإنما تخمينات، واحتمالات تعتمد في جلها على العَرَض وليس الجوهر، وكلما تقدمت العلوم الطبيعية كلما تأكد انهيار أسس التطور.

(هناك عدد من الأجناس، والكائنات الحية على ظهر الأرض والتي يشبه بعضها بعضا، فعلى سبيل المثال يوجد عدد من الحيوانات التي تشبه الخيول أو القطط، وعدد من الحشرات تتشابه في مظهرها، وهذا التشابه لا يكون غريبا، أو مفاجئا لأي شخص... فلا يمكن القول بأن القرد أقرب إلى الإنسان منه

(١) داروين ونظرية التطور، ص ٢٦، مرجع سابق.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة د/ يوسف كرم صـ٣٣٧، مرجع سابق.

(٣) انظر: تحليل نظريات التطور، د/ محمد بورباب صـ٧، الطبعة الخامسة، ٢٠١٥م، الناشر مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، نقلا عن كتاب: التطور نظرية في أزمة، للبروفيسور مايكل دينتون.

إلى الحيوانات الأخرى،... فإذا أخذنا في الاعتبار مستوى الذكاء؛ فيمكن أن نقول: إن النحل الذي يبني خلايا العسل المعجزة في تكوينها الهندسي، أو العنكبوت الذي يبني شبكته التي تمثل إعجازا هندسيا هي الأخرى أقرب إلى الإنسان من القرد...

هناك اختلاف هائل بين الإنسان والقرد، فالقرد حيوان أولا وأخيرا، لا فرق بينه وبين الحصان من حيث درجة الوعي، والإدراك أما الإنسان، فإنه كائن عاقل مدرك ذو إرادة قوية، يستطيع أن يفكر، ويتكلم، ويفهم، ويقرر ولديه القدرة على الحكم على الأمور)[١] إن الهوة سحيقة، والفجوة هائلة بين الإنسان، وأعلى أنواع القردة، أو الحيوانات، لكنه تدليس التطوريين على العلم.

مشكلة الحلقات الوسطى: يعيش أنصار التطور حالة هوس من أجل الوصول إلى حفرية قديمة تمثل حلقة في سلسلة التطور المزعوم، وكثير منهم زعم أنه وجد شيئا ثم بان كذبه؛ ولذلك يبقى السؤال أين الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد؟ أو بين حيوان وحيوان؟ عالم الحفريات البريطاني «كولن باترسون» المشرف على حفرية الأركيوبيتركس الشهيرة في متحف التاريخ الطبيعي يعلن:(لا توجد حفرية انتقاليةواحدة تصلح كأصل لكائن متطور وآخر، وأن ما يتحدث الدارونية عنه باعتباره حفريات انتقالية مثل الأركيوبيتركس ما هو إلا (حفريات وسطى) بين كائنين، أي أنها تتمتع بصفات وسط بين كائنين (أ، ب) دون أدلة على أنه قد نتج من (أ) وأنه سلف بـ(ب) كما ينبغي أن يكون في الكائنات الانتقالية...)[٢]،

وفكرة التطور – كما سبق –: قائمة على تطور الأنواع من بعضها البعض بتحولات بطيئة وتدريجية عبر ملايين السنين، لكن، وكل الحفريات التي احتفى بها التطوريون ظهر أنها لا تنهض دليلا لما أرادوه من العثور على الحلقات المفقودة، بل العكس ما أثبته «دارونالد جونستون» أستاذ علم الأجناس البشرية حيث قال: (إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩٩,٩ ٪ من الدقة أن الإنسان سار منتصبا على قدميه منذ بداية تاريخه الإنساني منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة). وقد أعلن هذا في مؤتمر صحفي في مارس ١٩٧٤م وهو يمسك في يديه خمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عثر عليها في أواخر عام ١٩٧٣م في أثيوبيا، ويعد الآن واحداً من أعظم الاكتشافات في التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية فقد ظهر الإنسان كائنا فريدا من نوعه وسط دنيا من الوحوش الكاسرة، وأن هذه العظام قد سدت الثغرة التي ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم : الحلقة المفقودة)[٣]

ولما عجز التطوريون عن اثبات نظريتهم عمدوا للكذب باسم العلم، حيث دُعِّمت النطرية بعمليات تزوير وتزييف باسم العلم، منها :ما عُرف ب (إنسان بلتداون) كان خدعة كبيرة قُدمت فيها بقايا عظام

(١) انظر خديعة التطور، هارون يحيى صـ١٨١ ـ ١٨٢ مرجع سابق.

(٢) خرافة الإلحاد صـ١٨٩ ـ ١٩٠، مرجع سابق.

(٣) سقوط نظرية التطور، صـ١٥٩ مرجع سابق، وانظر أيضا الله يتجلى في عصر العلم صـ٩٣.

متحجرة على أنها تعود للإنسان الأول .هذه البقايا تتألف من عظام فك وأجزاء من جمجمة جمعت في عام١٩١٢ م من منجم في بلتداون في إنجلترا ،أعطي لهذه العينة اسم الأنسان الفجري .ظلت أهمية هذه القطع المتحجرة موضع جدل حتى سطعت الحقيقة في عام ١٩٥٣ م، وهي: أن هذه القطع ما هي إلا قطع مزورة تم تركيبها عمدًا - فالفك السفلي هو لقرد الغاب وبقايا الجمجمة تعود لجمجمة إنسان حديثة. كذبة إنسان بلتداون ربما تعد الكذبة الأشهر في مجال الحفريات و الآثار وحتى على الصعيد العلمي وذلك لسبب رئيسي مهم وهو طول المدة التي مضت على الخديعة حتى كُشفت الحقيقة – بعد٤٠ سنة، حيث قام مجموعة من العلماء في جامعة (أكسفورد) قسم التشريح بعمل أشعة وتحاليل مخبرية ودراسات دقيقة وخرجوا بهذه النتيجة الصادمة للتطورين (إن انسان (بلتداون) ليس إلا عملية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر، أما عظام الفك فهي لقرد عمره عشر سنين، والأسنان أسنان انسانٍ غرست بشكل اصطناعي، وركبت بفك القرد، وظهر أن العظام عُومِلت بمحلول لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها) [١]

كما توهم التطوريون أن التشابه في المراحل الجينية بين أنواع عديدة من الحيوانات تعني تطور نوعٍ من نوعٍ آخر، ومنها الإنسان، ولكن بدراسة تللك المراحل الجينية تبين خطأ ذلك.

ولذا أقدم أحد كبار علماء التطور، وهو العالم الألماني(أرنست هيجل ١٨٢٤- ١٩١٩م) على عملية تزوير وتزييف لصور أجنة بشرية، للإيهام بصحة القول بالتطور،ولكن سرعان ما اكتشف أحد العلماء ذلك التزوير وقام بفضحه في الصحف، وبعد فترة من الصمت والتردد نشر هيجل مقالاً اعترف فيه بعملية التزوير، وقال: (إن ما يُعَزِّيه أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات تزوير مماثلة لإثبات النظرية،وهناك المئات من العلماء قاموا بعمليات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء، والتشريح والأنسجة لكي تطابق نظرية التطور) [٢] .

وبرأي العلم والعلماء تكون الحلقات المفقودة مجرد بحث عن وهم، أو مضيعة للوقت، أو فتح باب للجدال والكذب والاحتيال.

النقطة الثالثة: موقف الإسلام من القول بالتطور

١ - قولهم إن الطبيعة نشأت من المادة أو الخلية الأولى والإنسان ليس له خالق، معارض للقرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾[٣] .

---

(١) دارون ونظرية التطور، ص ٩٥،مرجع سابق.

(٢) تهافت نظرية دارون في التطور أمام العلم الحديث، أورخان محمد علي، ص ٣٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م

(٣) الزمر: ٦٢.

٢- ادعاؤهم معرفة كيف نشأت الأحياء والحياة على الأرض، يرده قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[١]، وأعلمنا القرآن أن الله خلق الإنسان خلقا مستقلا خاصا مكتملا، وأخبر الملائكة بأمر خلقه لآدم قبل أن يوجده فقال:﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢]، وحدثنا ربنا عن المادة التي خلق منها الإنسان قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾[٤].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري - (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)- قال سمعت رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن وبين ذلك)[٥]، كما أن الماء عنصر من عناصر خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٦].

٣- قولهم: إن البقاء للأقوى أو الأصلح، مردود بالواقع المشاهد والذي أشار إليه القرآن من أن الموت مكتوب كما الحياة للجميع الصغار والكبار، الأقوياء والضعفاء، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾[٧].

٤- النظرية تنفي عن الإنسان أي مظهر من مظاهر التكريم، حيث عدته كسائر الحيوانات بيد أنه ترقى من بعض أنواع القردة العليا، وهذا مردود بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[٨].

فالقرآن يصعد بالإنسان؛ ليكون مُكّرما محمولا مرزوقا بأطيب الرزق، فيه نفحه من الملأ الأعلى...،

---

(١) الكهف: ٥١.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) آل عمران: ٥٩.

(٤) المؤمنون: ١٢.

(٥) أخرجه أبوداود في السنن (٤٦٩٣)، كتاب: السنة، باب في القدر، وكذلك الترمذي (٢٩٥٥)، وقال «هذا حديث حسن صحيح».

(٦) النور: ٤٥.

(٧) الملك: ٢.

(٨) الإسراء: ٧٠.

والتطوريون يهبطون به لمكانة القطط، والكلاب، والقردة.

٥- فضح القرآن التطوريين بتفصيله المعجز المدهش؛ لأطوار خلق الإنسان، والذي أزاح العلم عنه الستار بعد ما يزيد على الألف سنة بعدما تطورت أجهزته، ووسائله، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[١] ، هذه الآية وغيرها كثير من الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، والمراحل التي يمر بها منذ أن كان سائلا منويا إلى كمال تكوينه[٢]، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٣] .

فقد وضح أن المتمسكين بنظرية التطور يريدون فصل أنوار السماء عن أهل الأرض، وربط الإنسان بالطين، وفصله عن رب العالمين، وبعد الكذبة الكبرى بإنكار النشأة الأولى للحياة والأحياء؛ تمادوا كذبا وزورا للتدليل على إفكهم بأدلة تصادم الواقع والعلم، وتكذِّب النصوص الدينية المثبتة لنظرية الخلق الرباني المباشر لهذا الكون، والذي يُعد شاهدا على كمال قدرته -(جل جلاله)-وجمال إبداعه وتصويره. إن الملحدين يريدون إبعاد الله عن الخلق والتصريف ليكون ذلك للمادة الصماء العمياء، وقد فضحهم الواقع وكذبهم العلم.

(١) المؤمنون: ١٢-١٣.

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية صـ١٠١، وانظر: العقيدة في الله د/ عمر الأشقر صـ٩٣ ط١٢ ١٩٩٩م، دار النفائس للطباعة والنشر- عمان - الأردن.

(٣) التين: ٤.

الفصل الثاني
إنكار الملحدين وجود الملائكة والرد عليهم

تصوير الشبهة:

ما دام الإلحاد يقوم على إنكار وجود الله، وعدم الاعتراف بوجوده، فهم تبعا لذلك ينكرون وجود الملائكة والرسل وكل ما جاءنا عن الله -تعالى-؛ بل ينكرون كل ما هو غيب، ولا يعترفون إلا بما يقع عليه الحس، أما ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقـي)، فيجحدونه جملة.

ففي مواقع الملحدين انتقاص من الملائكة ووصفهم بالمخلوقات الخيالية، والشاذة ، والتي تنزل لمضاجعة الحسناوات، وأن الحجاب فرض حتى لا ترى الملائكة الجميلات من النساء، وأن أصحاب الأديان اخترعوا وجودهم لمساعدة الإله، أو (الآلهة المساعدة) ، ثم شككوا في جدوى وجودهم ... ([1])

وأنقل هنا قول أنشطهم في العصر الحديث، وهو ريتشارد دوكنز، يقول: (الكلام في غير الماديات هو كلام عن لا شيء، القول بأن الروح الإنسانية، الملائكة، والله غير ماديين هو القول بأنهم لا شيء، بمعنى أن ليس هناك روح أو ملائكة أو إله...

ويقول: (لا أستطيع التفكير بغير ذلك...)[2]، وهذا قول عامة الملحدين، والماديين. والملحدون عبر منتدياتهم يزعمون أن جبريل وغيره من الملائكة مجرد أسطورة.

رد الشبهة:

ويشتمل الرد على ثلاث قواعد عقلية وعلمية، ثم تعريف بعالم الملائكة من الوجهة الإسلامية:

القاعدة الأولى: الدليل العلمي ليس منحصرا في الدليل التجريبي:

ذلك أن الدليل العلمي ليس نوعا واحدا، وليس منحصرا في الدليل التجريبي؛ لأن العلوم أصناف شتى، وكل علم من العلوم له أدلته التي تناسبه، فدليل العلوم الطبيعية التحليلية ليس كدليل العلوم الإنسانية، ومنها ما يناسبه الدليل الحسي المادي، والدليل التجريبي، كعلم الفيزياء، والكيمياء، والأحياء.

ومن العلوم ما يناسبه الدليل العقلي، كعلم الفلسفة أحد العلوم الإنسانية، حيث الاعتماد فيه على

---

(١) انظر: نشوء مفهوم الحجاب في التاريخ الديني، الملحد / محمد شومان، موقع :قناة الملحدين بالعربي، العدد: ١٥، بتاريخ:١٥ / ١٢ / ٢٠١٤م. وانظر:مقال « كائنات خيالية»لملحد رمز لاسمه ب» **hdd**» ، شبكة الملحدين العرب، ١٤ / ١ / ٢٠١١م .

(٢) وهم الإله، (ص: ٤٤)، مرجع سابق.

معلومات عقلية لا تحتاج إلى مشاهدة وتجربة. من هنا ندرك أنه ليس كل الأدلة العلمية أدلة حسية، أو أدلة تجريبية، وأن هناك علوما لا مجال للدليل الحسي والتجريبي فيها.

(فكل ما شهد الحس بوجوده شهادة مباشرة فهو موجود ولا شك في وجوده، وهذا دليل مقبول عند العقلاء كافة، وله في الدين مكانة كبيرة، لكن الأدلة العلمية ليست محصورة في هذا الدليل، فما كل ما يُصدِّق العلماء الطبيعيون، أو عامة العقلاء بوجوده هو مما شُوهد مشاهدة مباشرة بالحواس المجردة، أو الآلات المساعدة، بل إن الإصرار على عدم قبول دليل غير الدليل الحسي المباشر هو نفسه دليل على عدم العقلانية، ولو أن العلماء الطبيعيين، وسائر العقلاء لم يقبلوا دليلا غير هذا الدليل لما تقدم علم من العلوم، بل ولما قامت لعلم قائمة، ولهذا فإن القرآن الكريم حيث يستنكر حصر الأدلة في هذا الدليل، وينعي على المطالبين به في غير موضعه، إنما يقرر حقيقة يسلم بها كل العقلاء من بني البشر، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[1].أي: سألوه مالا يقدرون على رؤيته بحواسهم المحدودة.

ثم إن الحواس ليست وسيلة يمكن الاعتماد عليها في الحكم على كافة الظواهر، فالحواس قد تخطئ، والعقل يصحح الخطأ الذي تقع فيه الحواس.

ومن الأمثلة على خطأ الحواس: ظاهرة السراب، وهو نوع من الوهم البصري، فهو خدعة بصرية تحدث نتيجة ظروف البيئة المحيطة، من اشتداد درجة الحرارة، والأرض المستوية واختلاف في عوامل الانكسار، مما يجعلها في حالة توهج شديد، حيث تبدو للعين سماء ملتصقة بالأرض، ولذلك وغيره يتبين خطأ الاعتماد على الحواس كمصدر وحيد للمعرفة، وأن المعرفة لا يمكن أن تبنى فقط على الحواس، فالحواس قد تخدعنا وتوهمنا.

القاعدة الثانية: بطلان دعوى ما لا يدرك بالحواس لا وجود له:

يردد الملحدون أن ما لا يدرك بالحواس لا وجود له، وهذا زعم باطل، فهذه الروح - التي بنزعها نموت- غير محسوسة بالحواس، فلا نستطيع لمسها، أو رؤيتها، أو أن نشمها، أو نسمع صوتها، مع أن الروح موجودة، ويُدرَك وجودُها بأثرها. والعقل والإدراك غير محسوس بالحواس، فلا نستطيع أن نسمعه أو نراه، أو نشمه، أو نلمسه، أو نتذوقه، مع أن العقل موجود ويُعرف وجودُه بأثره. وكذا الحال مع الجاذبية، والكهرباء، وغيرها من الموجودات التي تملأ الكون، نتصورها بعقولنا ولا تدركها حواسنا.

(إن البصر يعجز أن يشاهد ما يدور في المكان المجاور، والبصر لا يقدر على رؤية الهواء الذي يحيط

---

(١) النساء: ١٥٣.

٢) الفيزياء ووجود الخالق، د/ جعفر شيخ إدريس، (ص: ٤٥).

بنا من كل مكان، ولا ندرك الهواء إلا بأثره في الأغصان والملابس، والأشجار، وما يحدث من ضغط على أجسامنا ـ.. أما الهواء فلا نعرف لونه، ولا طوله، ولا عرضه بأعيننا، ونحن نؤمن بالجاذبية الأرضية رغم أننا لم نشاهدها ولم ندر ما طولها، أو لونها، أو حجمها، أو عرضها. كذلك نؤمن بأن لنا عقولا هي الفارق بيننا وبين المجانين، وبيننا وبين الحيوانات، ولكننا لم نشاهد طولها، أو عرضها، ولا نفهم ما لون العقل، أو هيئته؟ ونؤمن بالذرة رغم أننا لم نشاهدها)[١]. ثم إن حواس الإنسان التي ربط الماديون الدليل بها محدودة، وربما كانت بعض حواس الطيور أو الفراشات أو حتى الكلاب أقوى من بعض حواسنا.

(تختلف حاسة الشم من كائن لآخر، فهي ضعيفة نسبيا عند الإنسان، وقوية عند الحشرات، وقد تصبح الحاسة الرئيسية عند الحيوان، كما في حالة الكلاب التي تبلغ عندها حاسة الشم ٣٠٠ مرة ضعف قوتها عند الإنسان)[٢].

ثم (إنَّ حواس الإنسان التي يحصل له العلم بها محدودة القوة محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه، فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية، فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة، فإذا صغرت ودقت، وبلغت حدا معينا من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها، ولمسه كذلك، حتى عقله، فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة، ويعيا عن تصورها تماما.

من هنا كان لا بد للإنسان من الإيمان، والتصديق بوجود أشياء لم يشاهدها، ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه، ولم يدرك حتى تصورها بعقله، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزنا، ولقيمته البشرية قدرا من الاحترام والتقدير، وكيف تُنْكَر هذه الحقيقة، ونحن نرى الإنسان يعيش في بلد لم يخرج منه أبدا، وهو يؤمن بعشرات البلدان، ويصدق بوجودها، وهو لم يرها ولم ير من رآها قط)[٣]، فلا يصح أن تكون حواسنا هي المقدمة التي ننطلق منها، ونحكم بها على ما في الكون؛ لأنه من الثابت علميا أن كائنات كثيرة في أجسامنا، وفي الأرض والسماوات لا يمكن لحواسنا أن تدركها إدراكا مباشرا، وهذا يعني أنه لا يصح اتخاذ حواسنا مقياسا وحكما مطلقا نحكم بها على ما نراه، وما لا نراه، فسقطت مقولة الملحدين (ما لا نستطيع أن نرصده بحواسنا لا وجود له) فهذه نتيجة باطلة عقلا وواقعا.

---

(١) كتاب التوحيد، د/ عبدالمجيد الزنداني، (٣/ ٢٢).

(٢) لغة الكيمياء عند الكائنات الحية، د/ أحمد مدحت إسلام، (ص: ٦٤)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد سبتمبر ١٩٨٥م.

(٣) عقيدة المؤمن، الجزائري، (ص: ١٤٦).

القاعدة الثالثة: العلم يتحقق بالأثر وبالخبر من مصدر موثوق:

أ- إدراك الأثر يدل على المؤثر:

ومعنى ذلك (أننا نؤمن بالجاذبية لأننا شاهدنا أثرها، وإن كنا لم نشاهدها، وآمنا بأن لنا عقولا؛ لأننا أدركنا آثار العقول مشاهدة، كما أدركنا آثار الجنون واضحة بينة)[١]. كما آمن اليتيم أن له أبا، ولو أنه لم يشاهده، لكن وجود اليتيم أثر يدل على والده.

ب- الخبر من مصدر موثوق:

إن كثيرا من الحقائق الموجودة لا تحيط بها حواسنا علميا، فأستاذ التاريخ يحدثنا عن أحداث وكوارث حدثت وهو لم يشاهدها في الغالب، وأستاذ الجغرافيا يحدثنا عن بلدان في كل قارات العالم، وهو لم يزرها ولو مرة واحدة، فهل نكذبه فيما يقول؟ والطبيب يحدثك عن مرضك فتصدقه رغم أنك لم تشاهد هذا الداء، فهل تكذبه؟ والجواب لا؛ لأنك على ثقة من صدق مصدر الخبر. فالإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معا.

(فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية، وبالحواس يدرك الماديات من مرئي ومسموع، ومحسوس، ومشموم، ومطعوم، فبالعقل أدرك فضيلة الصدق، ورزيلة الكذب، وبالعقل أدرك المستحيلات؛ ككون الشيء إذا وجد في مكان لا يوجد في غيره، والواجبات ككون الجسم لا بد له من حيز يشغله، وككون المصنوع لا بد له من صانع، والجائزات؛ ككون المريض قد يشفى وقد لا يشفى، والغائب قد يعود أو لا يعود. وبحاسة البصر أدرك المرئيات...، وبالسمع أدرك الأصوات، وفرق بينها...إلخ. هذه طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه، (العقل والحواس)، وهو مستعد دائما للحصول على المعارف بواسطتها. إن الإنسان يتعقل الشيء، ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات، أو النفي، بالوجوب، أو الاستحالة أو الجواز...، وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات. بقسميها: الغيب والشهادة بواسطة العقل والحواس)[٢]. من هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمرا معقولا ومطلبا سهلا ميسورا، فالملائكة وإن كانوا غيبا، فقد دل على وجودهم الدليل الذي تثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان، والذي هو خبر الثقات وآثار الموجودات.

وحصول اليقينيات عند الإنسان يرد إليه عن طريق الخبر، أو الأثر، وهو الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب، ولذلك نعتقد أن وجود الملائكة يقيني، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على نفيها. أما هؤلاء الملاحدة والماديون والذين ناقضوا بديهيات العقول فهؤلاء لا نقيم لهم وزنا لأنهم أسقطوا عن أنفسهم الكرامة الإنسانية وعارضوا ما هو مستقر في العقول السليمة.

(١) انظر: كتاب التوحيد، د/ الزنداني، (٣/ ٢٣).

(٢) عقيدة المؤمن، الجزائري، (ص: ١٤٦- ١٤٧)، بتصرف يسير.

ثـم إن القرآن الكريم الذي حوى كثيرا من الحقائق العلمية في الفلك، والأرض، والجبال، والنفس الإنسانية كيف خلقت، والمراحل التي مر بها خلقنا في أرحام أمهاتنا، هذا القرآن الذي لم تتصادم نبوءاته مع الحقائق العلمية، هو الذي أخبرنا عن الله، وعن الملأ الأعلى من الملائكة، قال سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[١]. حقًا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٢].

رابعًا: عالم الملائكة من الوجهة الإسلامية:

الملأ الأعلى، أو الملائكة: عالم لطيف غيبي غير محسوس، ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس، وهم من العوالم غير المنظورة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله.

وهم مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومبرؤون من الميول النفسية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، (والملائكة ليسوا كالبشر، يأكلون ويشربون، وينامون، ويتصفون بالذكورة، أو الأنوثة، إنما هم عالم آخر، قائم بنفسه، مستقل بذاته، لا يتصفون بأي شيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصورة بشرية، وغيرها من الصور الحسية)[٣]. وخلق الله الملائكة من نور، قال (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (خلقت الملائكة من نور)[٤].

وعمل الملائكة: أنهم يقومون بتصريف شئون العالم بإرادة الله ومشيئته، وهو سبحانه يسخرهم لتنفيذ أمره، ولا يعملون شيئا إلا بأمره - (جل جلاله)- قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٦].

ومن أعمالهم:

١- التسبيح والخضوع التام لله، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[٧].

٢- النزول بالوحي، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[٨].

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) الحج: ٤٦.

(٣) (١) العقائد الإسلامية، (ص: ١٠٩)، الشيخ/ سيد سابق. وانظر أيضا: كتاب التوحيد، (ص: ٧٧)، د/ عبدالمجيد الزنداني، طبعة ١، الناشر دار السلام ودار المجتمع، جدة، ١٩٨٥م.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه -كتاب الزهد والرقائق -باب في أحاديث متفرقة --ح. رقم (٢٩٩٦).

(٥) الأنبياء: ٢٦- ٢٧.

(٦) التحريم: ٦.

(٧) فصلت: ٣٨.

(٨) الشعراء: ١٩٣.

٣- مكلفون بكتابة الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾[١] .

٤- يتوفون الأنفس ويقبضون الأرواح، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[٢] . وللملائكة أعمال كثيرة منها الدعاء والاستغفار للمؤمنين وتثبيتهم، والسلام عليهم عند دخول الجنة...إلخ.

والملائكة منظمون مطيعون، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[٤] .

وعن جابر بن سمرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : «ألا تصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربها؟» فقلنا يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف»[٥].

حكم الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة الركنُ الثاني من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان عبد إلا به، وقد ذُكرت أركان الإيمان في آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[٦] . وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٧] .

وفي حديث عمر - (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)- المعروف بحديث جبريل، سأل جبريلُ النبي - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) - فقال: أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره...)[٨].

فإذا كان الإيمان بالملائكة: ركنا من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم إلا به، فكل من شك فيه، أو حاول

---

(١) الانفطار: ١٠- ١١.

(٢) الأنعام: ٦١.

(٣) الفجر: ٢٢.

(٤) النبأ: ٣٨.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه -كتاب الصلاة --باب الأمر بالسكون في الصلاة، والنهي عن الإشارة باليد، ح. رقم (٤٣٠).

(٦) البقرة: ٢٨٥.

(٧) النساء: ١٣٦.

(٨) مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة،ج١. رقم (٨).

التشكيك فيه كان كافرا لا حظ له في الإسلام؛ لتكذيبه لله، ورسوله[١].

فعالم الملائكة من المنظور الإسلامي: عالم نوراني قائم بذاته، نزلت النصوص المخبرة بوجوده ووصفه وعمله، والإقرار والتصديق بوجود الملائكة ركن من أركان الإيمان، كما أن الإيمان بالملائكة يدخل ضمن الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٢].

فكما يصدق المؤمن بالمحسوس، يصدق بما وردت النصوص بالإخبار عنه مما لا تدركه الحواس، مادام الخبر من صادق، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[٣]. وقال عن حبيبه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٤].

(١) عقيدة المؤمن، أبوبكر الجزائري، (ص: ١٥٢).

(٢) البقرة: ١- ٣.

(٣) النساء: ١٢٢.

(٤) النجم: ٣- ٤.

الفصل الثالث
طعن الملحدين في الكتب السماوية

ويشتمل على مبحثين: الأول: تصوير شبهات الملحدين والرد عليها. والثاني: مكانة الكتب السماوية من الوجهة الإسلامية.

المبحث الأول: شبهة الملحدين والرد عليها

أولاً تصوير الشبهة:

يُعد طعن الملحدين في الكتب السماوية، ومنها القرآن فرعا تابعا لأصل، فهؤلاء لا يقرون بوجود الله أصالة، فمن ثم ينكرون كل ما يتصل بالله من ملائكة، وكتب، ورسل، وروح، وجنة ونار، هؤلاء يريدون فصل الإنسان عن السماء بل فصل عالم الطين عن رب العالمين، ونسب كل ما على الأرض للأرض والطبيعة والمادة والصدفة.

واهتمام الملحدين – الكبار منهم – مُنْصَبٌّ على التدليل على إلحادهم، والاجتهاد في نفي صلة الكون بخالقه، ولكن توجد إشارات تدل على الانتقاص والتهكم من الكتب السماوية، واعتبارها مصدرا للشرور والحروب، كما في كتاب «وهم الإله»، حيث أشار «دوكنز» في الفصل السابع إلى عدم صلاحية الإنجيل كأساس للأخلاق، وأشار إلى أنه سبب المآسي والحروب وأشار إلى أنه يمثل (وثيقة أدبية عشوائية لأمور غير متعلقة ببعضها أعدت وحررت ونقحت وترجمت وشُوهت، وحُسنت من قبل المئات من الكتاب، والمحررين، والناسخين المجهولين بالنسبة لنا، وغالبا غير معروفين من قبل بعضهم البعض)، ثم أشار إلى أن المتمسِّكين بالإنجيل مجموعة من المتطرفين تريد فرضه على الناس باعتباره أساسا للأخلاق...، ويقول: (هؤلاء الذين يرغبون في بناء حياتهم على الإنجيل، إما لم يقرأوه، أو لم يفهموه غالبا)[١].

ويقول في تغريدة له عن القرآن والإسلام: (لم أقرأ القرآن، بل ولا أستطيع كذلك ذكر آية، أو سورة منه كما أفعل في الإنجيل، لكني مع ذلك على يقين أن الإسلام اليوم أكبر مصدر للشر)[٢].

ثم تهكم دوكنز من سفر التكوين بالعهد القديم: والذي أشار لقصة نوح (عليه السلام) وأشار إلى أنها مأخوذة من أسطورة بابلية...، وسخر من صورة الحيوانات، وهي تذهب للسفينة أزواجا أزواجا...، ثم قال:

---

(١) وهم الإله، (ص: ٢٣٧) مرجع سابق.

(٢) اليوم السابع ، خبر بعنوان (إذاعة أمريكية تلغي لقاءً مع «ريتشارد دوكنز» بسبب تغريدات مسيئة للإسلام)، ٢٤- ٧ – ٢٠١٧م.

(نظر الله للبشرية نظرة ظلماء، وقرر باستثناء عائلة واحدة أن يغرقهم جميعا، ومن ضمنهم الأطفال...)[1].

ومن خلال مطالعتي لبعض مواقع الملحدين العرب، وجدتها طافحة بالكثير من الأباطيل والأكاذيب خاصة على القرآن الكريم.

فعلى موقع (قناة الملحدين بالعربي) عدة مقالات للمدعو: Mohammad Saadeh

منها مقال بعنوان: نماذج من زيف الإعجاز العلمي في القرآن.

ومقال آخر بعنوان: (الآثار التدميرية للأديان السماوية، الإسلام نموذجا) ، زعم فيه أن القرآن يحوي خرافات مثل: الحسد والسحر وغيرهما.

وفي موقع: الحوار المتمدن، ومنتدى العقلاء العرب: تهكم وسخرية من القصص القرآني واعتباره نوعا من الخرافات والأساطير.

وبعد: فهذه نماذج فقط تحوي خلاصة ما يُردد من قبل الملحدين حول القرآن الكريم وإن كانت أكبر الطعنات - في الحقيقة - ترد من قبل المستشرقين، والمبشرين، وبعض المواقع النصرانية، ومن بعض ممن تسموا بأسماء مسلمة لكنهم تبنوا فكرا ماركسيا أو علمانيا مغاليًا أو غيره. بجانب شبهات، وطعنات أخرى كثيرة متناثرة عبر مواقعهم، ومنتدياتهم تزعم وجود أخطاء لغوية، وتاريخية، وعلمية في القرآن .

وشبه الملحدين تكاد تنحصر في:

كون الكتب أرضية بشرية، وليست سماوية، وأنها من تأليف أصحابها أوأتباعهم، وأنها تحوي تناقضات لا تتفق مع معطيات العلوم والعقول... إلخ.

وسوف أركز ردي على شبهتين من الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، باعتباره مصدر الإسلام الأول، والطعن فيه يعني الطعن في الإسلام جملة، وأن القرآن ليس كغيره من الكتب التي بين أيدي اليهود والنصارى، وذلك لخصائص ربانية وعناية المسلمين بالقرآن.

---

(١) وهم الإله، (ص: ٢٣٨).

المبحث الثاني: الرد على ما أثير من شبهات حول القرآن

الشبهة الأولى: قولهم القرآن من تأليف محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

أ: الرد العقلي :

بداية: هل يستطيع بشر في بداية القرن السابع الميلادي أن يؤلف كتابا يحوي كلمات وآيات، وسورا أعجزت البلغاء، والفصحاء، والشعراء لدرجة أنهم كانوا يتسللون لسماع القرآن سرا، بينما يحاولون إبعاد الآخرين عن سماعه مخافة تأثيره عليهم؟. وتشير إليه الآية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾[1] .

وأن يحوي من دقائق العلوم الطبيعية، والفلكية، والطبية، وغيرها ما يتفق تماما مع الحقائق العلمية التي اكتُشفت حديثا. ويحوي تشريعات وأخلاقًا تسعد الدنيا لو أخذت بها. ثم لا ينسب ذلك لنفسه، بل لقوة أعلى وأعظم وأعلم وأقدر، فهل من الإنصاف أن نكذِّبه فيما قال؟.

تقول (نابيا أبوت)[2]: (القرآن مهما كان محتواه، فإنه ليس من صنع البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله فمعناه: أننا اعتبرنا محمدا هو الإله.) [3]. فلو كان القرآن بشريا -كما زعموا- فأين نتاجكم أيها المرجفون؟ إن أرباب الفصاحة والبيان كانوا الأجدر بمحاولة الإتيان بمثل القرآن، ولكنهم من فرط علمهم بما يحويه من الإعجاز احترموا أنفسهم، وخضعوا للقرآن.

(إنه كتاب قد أعياهم أمره، وأعجزهم شأنه، وقد تحداهم به، وبسورة من مثله، وهم العرب الفصحاء، والخطباء البلغاء، فكلٌ عجز عنه، ولم يقدر على شيء فيه، إما؛ لأنه لا يكون من قواهم، ولا من طباعهم أن يتكلموا بكلام يضارع القرآن في جزالة لفظه، وبديع نظمه، وحسن معانيه،...وإما أنهم عجزوا عن علم ما جُمِع في القرآن من أنباء ما كان، والإخبار عن الحوادث التي تحدث وتكون، وعلى الوجوه كلها فالعجز موجود، والانقطاع حاصل)[4].

ويمكن أن أضع لمصدر القرآن ثلاثة احتمالات، لا رابع لها فهو إما:

١- من تأليف محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

٢- وإما من تأليف العرب.

---

(١) فصلت: ٢٦.

(٢) أستاذ الدراسات السامية بجامعة الملكة بكاليفورنيا

(٣) موقف القرآن من الفكر المادي، د محمد طالب مدلول، ص ٢٦٥ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) الغنية عن الكلام وأهله، الحافظ أبي سليمان محمد بن محمد البستي الخطابي، (ص: ١٣)، الناشر دار المنهاج، القاهرة ٢٠٠٤م.

٣- وإما من مصدر آخر.

الاحتمال الأول: من تأليف محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

ويمكن تفنيد هذا الاحتمال بما يلي:

أ - إن أسلوب القرآن يخالف مخالفة تامة أسلوب كلام محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وقارناها بالقرآن لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كل شيء.

ب- استشعار الأسلوب البشري عند قراءة الأحاديث النبوية، بخلاف القرآن الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته أنه كلام الجبار العادل الحكيم الرحيم.

-(فلو كان القرآن من كلام محمد لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث سواء، ومن المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له في بيانه أسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا جذريا)[1].

وأي قارئ للقرآن له عقل وذوق ، يتيقن أنه ليس كلام بشر، فإنه متغير عن كلام الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الذي يتمثل في الحديث النبوي، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية، وإن وجود آية من آياته ضمن حديث نبوي، يجعل لها نورا خاصا يحس به من يقرأها أو يسمعها، ويشعر أنه ليس من ضمن ما قبلها وما بعدها

جـ - (النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لم يدرس، فهل يعقل أن يأتي بهذا الإعجاز البياني، والتشريعي المتكامل دون أي نقص؟ فهل يعقل أن يأتي بهذا الإعجاز اللغوي الفريد، والتشريعي المتكامل اجتماعيا ودينيا وسياسيا؟.

د- إن نظرة القرآن الشاملة للحياة، والكون، والفكر، والمعاملات، والحروب، والزواج والعبادات، والاقتصاد،... لو كانت من تأليف النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لما كان بشرا...، فهل يتسنى لأمي أن يأتي بهذه النظرة الشاملة في الكون والحياة والفكر...؟.

هـ- (لماذا يؤلف محمد- (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) القرآن وينسبه لغيره؟ فالعظمة تكون أوضح فيما لو أتى بشيء خاص به عجز العالم عن الإتيان ببعضه، فأي مصلحة لمحمد أن يؤلف قرآنا -، وهو عمل جبار معجز- وينسبه لغيره؟.

و- في القرآن أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وفيه إعجاز علمي في الكون، والحياة، والطب، والفلك، والبحار...، وهذا كثير في القرآن، فهل يُعقل أن يكون هذا الأمي قد وضعها؟ وكيف عرف الأمي كروية الأرض؟ وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

(١) الإسلام في قفص الاتهام، أ:شوقي أبو خليل (ص: ٢٤، ٢٥)،ط٥،الناشر دار الفكر، دمشق،١٩٨٢م

(١)، وكيف عرف أن الظلام يشتد في البحر اللجي العميق؟ وهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾(٢)، وكيف عرف أن نسبة الأكسجين تقل كلما صعدنا لأعلى؟ وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(٣)، وكيف عرف أطوار خلق الجنين في رحم أمه؟ وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٤) .

ز- ثم كيف يؤلف شخص مؤلفا ينتقد ويعاتب فيه نفسه في مواضع عدة منها: عتاب الله لنبيه في صدر سورة عبس حيث قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾(٥) .

وعاتب الله تعالى نبيه لما قبل الفداء في أسرى بدر، فنزل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦) .

وعاتب الله نبيه لاستغفاره للمشركين، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(٧) . وعاتبه لما أخفى ما أظهره الله له من زواجه من زينب بنت جحش (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بعدما طلقها زيد بن حارثة وانقضت عدتها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(٨). فهل يعقل أن يؤلف كتابا ثم يوجه العتاب فيه إلى نفسه ؟(٩).

---

(١) النازعات: ٣٠.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) الأنعام: ١٢٥.

(٤) المؤمنون: ١٢- ١٤.

(٥) عبس: ١- ١٠.

(٦) الأنفال: ٦٧.

(٧) التوبة: ١١٣.س

(٨) الأحزاب: ٣٧.

(٩) الإسلام في قفص الاتهام، (ص: ٢٤- ٢٧)، مرجع سابق.

الاحتمال الثاني: أن القرآن من تأليف العرب

فمردود عليه حيث إنهم لم يستجيبوا للتحدي القرآني، ووقفوا عاجزين منبهرين بالقرآن، وهم أرباب الفصاحة، والبلاغة، والبيان، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[٢] .

(فمن ثم لم يقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم، ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم، ... وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه، وهم الخطباء اللد « أي: الخصم الشديد» ، والفصحاء اللسن...، حتى لا يجيئ بعد ذلك فيما يجيئ من الزمن مولد[٣]، أو أعجمي كاذب، أو منافق ذو غفلة؛ فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز)[٤].

ولا زال التحدي قائما للعرب، وغيرهم من الأمم كافة، والألسنة، (إعجاز القرآن للناس جميعا دون استثناء، ثم إن إعجاز القرآن ليس فقط بجماله البلاغي كما يقول بعضهم، وليس معجزا للعرب وحدهم، وإنما للناس جميعا، وذلك لأن الناس بكل ألسنتهم عاجزون أن يعطوا نصا متشابها في لسانه الخاص، إنه بمثل هذا لا يمكن أن يفعله إلا من يعلم الحقيقة المطلقة وهذا لا يتوفر للناس)[٥].

ومن ذلك نخلص إلى أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه؛ لأنه ليس وضعا بشريا، ولو كان من وضع بشر لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[٦] ، ولقد أحسَّ العرب هذا المعنى واستيقنه بلغاؤُهم؛ لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم.

الاحتمال الثالث: من مصدر آخر

إذا كان القرآن ليس من تأليف محمد، ولا بمقدوره، وليس من تأليف العرب، ولا بمقدورهم أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أرباب الفصاحة، ونزل بلسانهم، ولم يدَّع أحدٌ من البشر نسبة القرآن إليه، فالقرآن

---

(١) البقرة: ٢٣- ٢٤.

(٢) الطور: ٣٣- ٣٤.

(٣) أي: عربي غير محصن. مختار الصحاح، (ص: ٧٣٥).

(٤) إعجاز القرآن، الرافعي، (ص: ١٦٩).

(٥) انظر: بيضة الديك، يوسف صيداوي، (ص: ٢٦٣)، المطبعة التعاونية- دمشق.

(٦) النساء: ٨٢.

كلام الله المعجز المعصوم من الباطل، المبرأ من الاختلاف والتناقض، المنزل من حكيم حميد، المسجل منذ نزل به جبريل على النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في السطور، والمحفوظ في الصدور، المتواتر على أنه كلام الله، والمعجزة الكبرى الخالدة لرسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ودستور الأمة الإسلامية، وسر رشدها وهدايتها، وسبب سعادتها ومجدها.

ب: رد القرآن على الشبهة:

ننظر كيف كانت ردود القرآن على ما قيل بحقه: قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1] . الآيات السابقة تثبت مصدر نزول القرآن وأنه: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] .

ومن علامات تخبط المشركين، وأشباههم ادعاؤهم أن بشرا يُعلِّمُ -محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، (وهي دعوى لا يصدقها عقل، ولا يؤيدها واقع حتى يكونوا هم أنفسهم شاهدين على أنفسهم ببطلانها، وهذا من تدبير الله تعالى لنصرة رسوله (عليه السلام) لقد كان رسول الله يلتقي غلاما لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، وكان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فأذاع المشركون أن هذا الغلام كان يعلم الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) القرآن، فرد الله عليهم زعمهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[3]،[4]. ثم يرد القرآن مبينا أمية رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لتأكيد نفي تلقيه الرسالة من غير الوحي، قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5] ، يقول سبحانه وتعالى لنبيه: لو كنت من قبل أن يوحى إليك تقرأ الكتاب أو تخطه بيمينك إذا لشك المبطلون القائلون أنه سجع وكهانة، وأنه من أساطير الأولين»[6].

ومثله قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[7]، قال الحافظ ابن كثير: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ

---

(١) الشعراء: ١٩٢- ١٩٥.

(٢) الواقعة: ٨٠.

(٣) النحل: ١٠٣.

(٤) شبهات المستشرق هاملتون جيب حول الإسلام، د/ سعيد رضوان، (ص: ١٤٤)، رسالة دكتوراه غير منشورة، مقدمة لكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر- المنوفية، ١٩٩٩م.

(٥) العنكبوت: ٤٨- ٤٩.

(٦) انظر: تفسير الطبري، (١٨/ ٤٢).

(٧) الفرقان: ٥- ٦.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنون كتب الأوائل استنسخها، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه في أول النهار وآخره، وهذا الكلام – لسخافته، وكذبه، منهم- كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر، وبالضرورة، أن محمدًا رسول الله لم يكن يعلم شيئا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره)[1].

بذا تكون فرية وشبهة بشرية القرآن قد سقطت، وثبت أنه (تنزيل من حكيمٍ حميدٍ)[2].

الشبهة الثانية: قولهم: بالقرآن تناقضات لا تتفق مع معطيات العقول والعلوم:

سيكون الردُّ أولاً على شبهة التناقض، ثم أذكر نموذجين للتناقض المزعوم من وجهة نظر الملحدين:

أ-الرد العقلي:

فإن القرآن لو كان فيه شيء من التناقض ، أو ما يشبه لأثاره أعداء هذا الدين قديمًا، فقد نزل القرآن على محمد ﷺ، والعرب في ذلك الوقت في قمة درجات الاهتمام بالكلام إنشاءً ونقداً، وشعراً، ولم يستطيعوا أن يجدوا في القرآن مطعنًا، أو تناقضًا واحداً، رغم رفضهم لرسالة محمد ﷺ، ومحاولاتهم المختلفة أن يظهروا معايب تلك الرسالة ويصدون الناس عنها، نعم قالوا عنه -ﷺ -: إنه ساحر أو مسحور أو شاعر أو مجنون، لكن لم يطعنوا في القرآن من حيث أسلوبه وإحكام سبكه؛ بل منصفهم يقرُّ أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وهذا مدون في كتب السير والتاريخ وغيرها، فكيف يأتي الآن من لا يفهم العربية أصلاً ولا يتكلمها على وجه صحيح فصيح، ثم يزعم وجود تناقضٍ فيه، أو ينتقد هذا الكتاب، فيما لم يمكن لأولئك

المتبحرين في لغته أن ينتقدوه ؟!! أظن أن أي عاقل منصف لا يقبل ذلك، فمشركو العرب المتقدمون كانوا أكثر احترامًا لعقولهم وعقول من يخاطبونهم من هؤلاء الملحدين المتأخرين وغيرهم،

ثم إن القرآن لو كان به تضاد واختلاف كما يدعي الملحدون فإن محمدا ﷺ لم يكن ليجهل مثلا أن اثنين وأربعة واثنين تساوي ثمانية، وأنه قال في مكان آخر من القرآن إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام... فهل يتصور عاقل أن من يقدم على تزييف رسالة بهذا الحجم، وكتاب بهذه الصورة، يمكن أن يخطئ ؟!! لا شك أن من ظن أن الرسول افترى هذا القرآن العظيم ثم وقع في مثل هذا التناقض المزعوم فهو أقل الناس عقلا وفهما. والحال أن من يزعم ذلك لا يفهم لغة العرب.

ب: رد المستشرقين المنصفين:

بعض علماء الغرب الذين احترموا عقولهم، ودرسوا القرآن متجردين من أي هوى ديني أو فكري،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٦/ ٩٤).

(٢) فصلت: جزء من الآية ٤٢ .

والبعض منهم تعلم لغة القرآن، وأتقنها، وعكف على دراسة القرآن وعلومه دراسة واعية هادئة هادفة، ثم نرى هل وجدوا تناقضات عقلية، أو علمية كما يزعم المرجفون؟

ومن هؤلاء:د/ موريس بوكاي [١]، والذي قال في مقدمة كتابه: (إن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهي وقائع كثيرة جدا، خلافا لقلتها في التوراة، إذ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جدا الذي أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية وبين تعدد الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية، وتلك هي النتيجة التي تخرج بها دراستنا).

ويقول في موضع آخر: (وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة بعد الانتهاء منها، أن القرآن لا يحتوي على أي مقولة قابلة للنقض من وجهة نظر العلم في العصر الحديث)[٢].ثم بعد الدراسة الواعية والهادئة من د/ بوكاي، ماذا كانت النتيجة؟ هل وجد تناقضات علمية؟

في خاتمة كتابه قال: (إن القرآن، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه، لا يخلو فقط من تناقضات الرواية – وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل– بل هو يظهر أيضا –لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلم– طابعه الخاص، وهو: التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن)[٣].

وآخر فقرة في خاتمة الكتاب: كانت من نصيب القرآن، إذ ختم ذلك العالم الغربي كتابه بقوله: (ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لذا فمن المشروع تماما أن يُنظر للقرآن على أنه تعبير الوحي من

---

(١) د/ موريس بوكاي: طبيب فرنسي من أشهر أطباء الجراحة في فرنسا، عكف على دراسة اللغة العربية والقرآن الكريم عشر سنوات، فخرج كتابه: الكتب المقدسة والعلم، والذي أثبت فيه تطابق آيات القرآن العلمية مع الحقائق العلمية تماما، وأسلم بوكاي فيما بعد، في مؤتمر علمي بعدما أعلن بعض النتائج الخاصة بتحليل مومياء فرعون موسى، وكيف أن القرآن أفاد بنجاة بدنه في قوله سبحانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ يونس: ٩٢.
ينظر: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ –(ص: ٢٥٦) – جهاد التُرباني ، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة – الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م.

(٢) القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، والعلم، د/ موريس بوكاي، (ص: ١١– ١٢)، الناشر دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٣) السابق: (ص: ٢٨٥).

الله، وأن تُعطى له مكانة خاصة جدا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه...)[١].

إن القرآن الذي يحوي تناقضات من وجهة نظر الملحدين، والمرجفين، يمثل دائرة معارف من وجهة نظر العلماء المتجردين المنصفين، يقول د/ بوكاي: (إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنساني، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف في القرآن أي خطأ.

وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانا، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟ ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو نفس النص الأول)[٢].

ونموذج آخر لأكبر عالم متخصص في علم الأجنة (د/ كيث مور)، فحينما عرضت عليه أطوار خلق الجنين في القرآن فهل وجد تناقضاً مع الحقائق العلمية؟

في نهاية القرن الماضي جمع عدد من المتخصصين في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الآيات القرآنية التي تناولت أطوار خلق الجنين منذ التقاء المنوي بالبويضة إلى أن يكون في أحسن تقويم، ثم تساءلوا هل تلك الأطوار التي وردت في عدة آيات في القرآن الكريم تتفق مع ما وصل إليه علم طب الأجنة؟

مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ

(١) نفس المرجع، (ص: ٢٨٥)

(٢) السابق: (ص: ١٤٥).

(٣) المؤمنون: ١٢- ١٤.

(٤) الحج: ٥.

(٥) غافر: ٦٧.

(٦) الإنسان: ٢.

مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[١] .

وبعد البحث عن أحد المتخصصين العالميين دعوا عالما كنديا له كتاب في علم الأجنة يعد مرجعا طبيا فريدا يدرَّسُ في كليات الطب في أمريكا، وأوروبا، وهو د/ كيث مور، وقد أعدوا جملة من الأسئلة، وعرضوها عليه مع الآيات القرآنية، وبعد مناقشات جادة، وهادفة وإذا بهذا العالم يعلنها مدوية في مؤتمر دعت إليه الأكاديمية الطبية في موسكو سنة ١٩٩٥م يتناول الإعجاز العلمي، حيث وقف د/ مور في وسط ذلك الجمع من العلماء قائلا: (إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكوين الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة، والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون كلام الله «وأن محمدا رسول الله» فقيل له هل أنت مسلم؟ قال: لا، ولكني أشهد أن القرآن كلام الله، وأن محمدا مرسل من قبل الله، وقد عدَّل وأضاف في كتبه، وأشار للجديد الذي تعلمه من القرآن في الطبعات التالية، ثم أسلم بعد ذلك.

وكان قبل ذلك أعلن في مؤتمر عقد في القاهرة سنة ١٩٨٦م عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، حيث وقف د/ كيث مور في محاضرته قائلا: (إنني أشهد بإعجاز الله في خلقه كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين؛ لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في القرن العشرين، وأريد أن أؤكد أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين، وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرضه كعالم من علماء الأجنة البارزين)[٢].

إن التناقض المزعوم ليس موجودا إلا في أفكار، وأدبيات الملحدين، والذين نزلت عليهم تلك التطابقات كالصاعقة، فراحوا يتخبطون طاعنين في مصداقية النتائج تارة، وأخرى أن هؤلاء العلماء تم شراء ذممهم ليقولوا ما قالوا، وتارة أخرى يزعمون أن تلك المعلومات المذكورة عن تطور خلق الجنين في رحم أمه إنما كانت معلومات موجودة في زمن نزول القرآن، إلى غير هذا من الكلام الذي لا يساوي ثمن المداد الذي كتب به، ولا يصدقه إلا معتل القلب والعقل، والذي يحتاج إلى عناية مركزة تنقذه من الغيبوبة الفكرية التي يعاني منها...[٣].

ويسخر«د/ ميلر» من ذلك الزعم قائلاً: (كل الأوصاف التي ذكرت عن مراحل تكوين الجنين في القرآن هي لأشياء لا ترى بالعين المجردة، وتحتاج للميكروسكوب، وبما أن الميكروسكوب اخترع من

---

(١) المرسلات: ٢٠- ٢٢.

(٢) اعتذار واعتراف، د/ كيث مور، إصدار لجنة التعريف بالإسلام بجمعية النجاة بالكويت ضمن سلسلة روائع القصص وانظر: الذين هدى الله، د/ زغلول النجار.

(٣) انظر: بعض حيلهم – موقع : مجلة الملحدين بالعربي-، مقال بعنوان: تكوين الجنين بين الحقيقة وأوهام الإعجاز العلمي في القرآن والسنة سنة ٢٠١٤م، علما بأن هذه المعلومات عرفت عن طريق الميكروسكوب حديثا.

مائتي عام مضت. ثم تساءل متهكما! ربما أن أحدهم كان يمتلك ميكروسكوبا سريا، وقام بهذه الأبحاث، ولم يخطئ ثم علَّم محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هل يعتقد عاقل ذلك...؟!)[١].

وكما قال د/ مور: (لا يمكن إلا أن يكون هذا موحى من عند الله)[٢].

وأضرب مثالا ثالثا لأحد الأساتذة الجامعيين البارزين في الرياضيات، والمنطق في جامعة تورنتو بكندا وهو عالم باللاهوت أيضا، وهو د/ جاري ميلر، والذي كان يعمل مبشرا أي: منصرا للمسلمين وأراد أن يأتي على الإسلام من أساسه، فتعلم اللغة العربية ثم عكف على دراسة القرآن دراسة متأنية مسجلا الملاحظات، والتناقضات التي يهز بها ثقة المسلمين في كتابهم، ودينهم ويَسْهُل تنصيرهم.

ومن ضمن الملاحظات التي سجلها د/ ميلر:

لما بلغ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[٣].

ثم سأل هل ركب نبي الإسلام البحر؟ فلما أخبر بالنفي، وأن الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان يعيش في الصحراء، فلما علم ذلك، ووجد الدقة في وصف العواصف في القرآن أيقن أن من يكتب هذا الوصف لا بد أن يكون عاينه، ولما كان الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لم يركب البحر، فلابد أن يكون هذا من عند الله سبحانه، ثم قال: (هذه فقط إحدى النقاط التي تبين أن القرآن ليس مرتبطا بمكان معين دون مكان آخر، وبالتأكيد فالإشارات الكونية التي ذكرت فيه لا يمكن أن تكون وليدة الصحراء من أربعة عشر قرنا مضت)[٤].

كانت لدى د ميلر معلومات مغلوطة عن الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والقرآن يقول: (هناك فرضية يقول بها بعض غير المسلمين بأن القرآن نتاج بشري...، فلو كان ذلك لانعكس ما يكون في ذهن مؤلفه عليه، بعض الموسوعات، وبعض الكتب تذكر أن القرآن الكريم نتاج هلوسة كانت تمر بمحمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، لو كانت هذه الفرضية صحيحة، بأن هناك مشكلات نفسية كان الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يمر بها لظهر ذلك جليا في نص القرآن الكريم ذاته.

ثم تساءل: هل يوجد في القرآن ما يدعم هذه النظرية؟ ثم يقول: قبل الإجابة بالإيجاب أو السلب، ما هي هذه الأشياء؟)[٥].

---

(١) القرآن المذهل، جاري ميلر، (ص: ١٧)، الناشر: موقع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، http://www.asoulallah.net

(٢) السابق: (ص: ١٧).

(٣) النور: ٤٠.

(٤) القرآن المذهل، جاري ميلر، (ص: ٩).

(٥) السابق: (ص: ١٢).

ولقد ذهل الرجل من كون القرآن يترك للإنسان الفرصة؛ لأن يبحث عن صحة ما جاء به ويقول: (لقد أذهلتني هذه الآية الكريمة رقم ٨٢ من سورة النساء حينما قرأتها لأول مرة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١]، يقول: هذا تحد صريح لغير المسلمين، في الأساس، الآية تدعوهم؛ لأن يجدوا خطأ واحدا في التنزيل، هذه الطريقة في التحدي في حد ذاتها ليست من طبيعة البشر، لا تجد أحدا يدخل اختبارا، ويجيب على الأسئلة ثم يكتب في آخر الامتحان للمتحِن، أنا أتحداك أن تجد خطأ واحدا في إجابتي، لا يفعل أحد ذلك، لأن هذا التحدي سيدفع الممتحِن إلى أن يقضي ليلته في البحث عن خطأ حتى يجده، ولكن هذه هي الطريقة التي يتحدى بها القرآن المعاندين)[٢].

وتوقف د/ ميلر عند قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٣].

ويتساءل: (لو كان محمد كاذبا من أين جاءته ثقته بالله في حمايته من المكروه والأذى الذي لحقه خلال رحلة الهجرة؟ وكيف استطاعت نفسه أن تطمئن إلى هذه الدرجة وهو في الغار والكفار يتربصون به خارجه)[٤]. وأختم بما نقله د/ ميلر عن أحد قادة المفكرين الكاثوليك وهو السيد/ هانز، وهو من المعتد برأيهم في الكنسية الكاثوليكية، وبعد دراسته المتأنية للقرآن، أجمل ما وصل إليه قائلا: (إن الله خاطب البشرية من خلال رجل واحد هو محمد)[٥].

وما أكثر الشهادات المنصفة للقرآن من علماء الشرق، والغرب سواء أسلموا أم بقوا على دينهم، فالتناقض ليس موجودا إلا في عقول وقلوب الجهلة بالقرآن من الملحدين وغيرهم.

مثالان للتناقض المزعوم بالقرآن:

المثال الأول: المسيح مات أم رفع؟

على موقع «شبكة الملحدين العرب»، يشيرون إلى أن الله تعالى قال في سورة مريم على لسان عيسى (عليه السلام): ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٦]، وهذا إثبات لموت المسيح (عليه السلام) ولكنه في سورة النساء يقول: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٧]. فهل المسيح مات أم رفع؟ وإن كان مات كما ذكر القرآن فكيف رفع؟

(١) النساء: ٨٢.

(٢) القرآن المذهل، جاري ميلر، (ص: ١٤).

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) القرآن المذهل، جاري ميلر، (ص: ٢٥).

(٥) السابق: (ص: ٣١).

(٦) مريم: ٣٣.

(٧) النساء: ١٥٨.

تفنيد شبهة التضاد المزعوم في الآيتين

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾[١] .

قال الطبري: (وقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ يقول: والأمنة من الله عليّ من الشيطان، وجنده يوم ولدت أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة، من الطعن فيه، ويوم أموت، من هول المطلع، ويوم أبعث حيا يوم القيامة أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم)[٢].

وقال القرطبي: (قوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ أي السلامة عليّ من الله تعالى...، وقوله: ﴿ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾، يعني في الدنيا...، ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ يعني في القبر...، ﴿ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ يعني في الأخرة؛ لأن له أحوالا ثلاثة: في الدنيا حيا، وفي القبر ميتا، وفي الآخرة مبعوثا فسلم في كل أحوالها)[٣].

والآية الكريمة من جملة كلام عيسى (عليه السلام) والذي بدأه بقوله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾[٤] .

وإذا عرفنا أن هذا من كلام المسيح (عليه السلام) فإن استعمال الماضي في ولدت، واستعمال المضارع في أموت وأبعث، هو الذي يقتضيه السياق، فإن ميلاده قد حصل سابقا قبل كلامه في المهد، وأما موته وبعثه فسيأتي فيما بعد.

فقوله (عليه السلام) ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ ليس معناه أنه قد مات، وإنما معناه عند موته - وذلك بعد نزوله، وقتله للدجال- كما سيرد-، وأن المسيح لازال حيا وسينزل؛ ليستوفي عمره في الأرض؛ ليموت فيها كسائر البشر، وليتحقق فيه قوله تعالى: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾[٥] . فالآية تفيد أنه سيموت لا أنه مات، أي لازال حيا وسيموت.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[٦].

---

(١) مريم: ٣٣.

(٢) تفسير الطبري، (١٥/ ٥٣٣)، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

(٣) تفسير القرطبي: (١١/ ١٠٤- ١٠٥)، دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٤) مريم: ٣٠- ٣١.

(٥) طه: ٥٥.

(٦) النساء: ١٥٧- ١٥٨.

(رَفْعُ عيسى -عليه السلام- ثابت بهذه الآية، ونظير هذه الآية قوله تعالى في آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[١] ، واعلم أن الله تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى (عليه السلام) وبين أن ما حصل لهم ذلك المقصود، وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجمل المراتب...)[٢].

فأين التناقض؟ إن المسيح (عليه السلام) رفع إلى السماء حينما حاول اليهود قتله، وشُبِّه لهم أنهم قتلوه وصلبوه ولم يكونوا على يقين، وجاء اليقين في القرآن بأنهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾[٣] . وكانت نجاته (عليه السلام) بالرفع، فالرفع كان أولا، والمسيح لايزال حيا ثم يكون النزول، والمكث في الأرض إلى أن يشاء الله ثم يموت، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾[٤] كسائر البشر فلا تناقض.

إضافة: ربما أوهمت آية آل عمران تعارضًا، وهي قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٥]. والوفاة هنا لا تعني الموت، فمتوفيك أي قابضك إلي ورافعك. قال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته. وقال ابن زيد: متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد - أي معناهما واحد- ولم يمت بعد. وقال الربيع ابن أنس: وهي وفاة نوم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾[٦].

قال القرطبي: (والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري والصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك)[٧].

وقال قتادة عن الآية: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ قال: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هنا النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٨] .[٩].

وكان رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا أوى إلى فراشه، قال: « اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا قام قال:

(١) آل عمران: ٥٥.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي، (١١/ ٢٦٢- ٢٦٣)، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

(٣) النساء: ١٥٧.

(٤) مريم: ٣٣.

(٥) آل عمران: ٥٥.

(٦) الأنعام: ٦٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٤/ ١٠٠).

(٨) الزمر: ٤٢.

(٩) مختصر تفسير ابن كثير،د محمد علي الصابوني، (١/ ٢٨٦)،ط٤،دار القرآن الكريم ،بيروت.

«الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[١].

المثال الثاني للتضاد المزعوم:

- **تصوير الشبهة:**

تقول النصوص القرآنية: إن خلق السماوات والأرض تم في ستة أيام، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[٢] ، إلا أن نصوصا أخرى تذهب إلى أن خلق السماوات، والأرض في ثمانية أيام، وليس ستة أيام كما في الآية: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[٣] .

مجموع الأيام ثمانية وليست ستة كما في الآية الأولى، وهذا من التعارض والتضاد[٤].

- **تفنيد الشبهة:**

لم يقل بهذا التعارض أحد من العلماء السابقين واللاحقين، ولم يلتبس العدد على أحد لديه أدنى أساسيات الفهم، وإنما يظهر التناقض، والتعارض للباغين الطعن في القرآن الكريم، ولو كلفوا أنفسهم السؤال، أو الرجوع لأي كتاب تفسير للقرآن لزال الالتباس، وظهر التوافق والتناسق، لكنهم لا يريدون ذلك.

آيات كثيرة في القرآن تشير إلى خلق السماوات والأرض في ستة أيام بصورة مجملة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٥] وكقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٦]. ثم جاء ذكر خلق السماوات والأرض، وتقدير الأقوات، وجعل الرواسي مفصلا في سورة فصلت في قوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ح. رقم (٦٣١٢).

(٢) ق: ٣٨.

(٣) فصلت: ٩- ١٢.

(٤) انظر موقع: شبكة الملحدين العرب، مقال بعنوان» التناقض في القرآن» للملحد أبو جهل، بتاريخ ١٨ / ١ / ٢٠١١م

(٥) الأعراف: ٥٤.

(٦) السجدة: ٤.

ٱلْعَلِيمِ ﴾[١].

فليس هناك تناقض ولا تفاوت بين المدة الزمنية في هذه الآيات، وبين الآيات الأخرى التي ورد فيها تحديد المدة بأنها ستة أيام.

ففي الآيات من سورة فصلت نجد أن الله تعالى أخبر بأنه ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ثم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ ﴾ ، في تمام أربعة أيام، أي في يومين آخرين، يضافان إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض، فيكون المجموع أربعة أيام، وليس المراد أن خلق الرواسي، وتقدير الأقوات، قد استغرق أربعة أيام، ولعل التوهم قد أتى من هنا، أي من إضافة أربعة أيام إلى اليومين اللذين خُلقت فيهما الأرض، فيكون المجموع ستة، وإذا أضيف اليومان اللذان خلقت فيهما السماء، فيكون المجموع ثمانية، وليس ستة أيام، لكنّ إزالة هذه الشبهة متحقق بإزالة الوهم، فالأرض خلقت في يومين، وخلق الرواسي وتقدير الأقوات في يومين، وخلق السماوات السبع في يومين، فالمجموع ستة أيام ولقد نبه المفسرون لهذه الحقيقة المزيلة للوهم، فقال القرطبي: (﴿ فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ مثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي تتمة خمسة عشر يوما)[٢].

فالآيات من سورة فصلت تؤكد هي الأخرى على أن خلق السماوات والأرض تم في ستة أيام، ومن ثم فلا تناقض بين آيات القرآن، ولا تفاوت في مدة الخلق الإلهي للسماوات والأرض، وحاشا أن يكون شيء من ذلك في الذكر الحكيم، وأختم بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٣] .

(١) فصلت: ٩- ١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١٥/ ٣٤٣).

(٣) فصلت: ٤١- ٤٢.

المبحث الثاني: اهتمام الإسلام بالأسرة

ومن صور عناية الإسلام بالأسرة:

لقد كانت عناية الإسلام بالأسرة قبل تأسيسها، وذلك باختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض)[١].

وقال أيضا: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)[٢].

وحث الإسلام على قيام كل من الزوجين بمسئولياته تجاه الطرف الآخر، مؤديا ما هو مطلوب منه، مستشعرا جلال المهمة، وعظم الرسالة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)[٣].

وبين الإسلام: أن قوامة الرجل على المرأة قوامة مسئولية وتكليف، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[٤]، وأن المعاشرة تغلف بالود، وتتخللها الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥] والمعاشرة تكون بما تعارف عليه الناس من اللين والتواضع والترفع عن صغائر الأخطاء، قال الله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٦].

ويقول الرسول - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في خطبة حجة الوداع : (فاتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان، لا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن؛ رقم (١٠٤٨) (٢/ ٣٨٥)، أبواب النكاح، باب: ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه؛ رقم (٥٠٩٠) (٧/ ٧) كتاب: النكاح، باب: الأكفاء في الدين .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه؛ رقم (٨٩٣) (٢/ ٥) كتاب: الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن .

(٤) النساء: ٣٤.

(٥) الروم: ٢١.

(٦) البقرة: ٢٢٨.

يملكن لأنفسهن شيئا، وإن لهن عليكم حقا، ولكم عليهن حقا: أن لا يوطئن فرشكم أحدا غيركم، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح»، قال: حميد: قلت للحسن: ما المبرح؟ قال: المؤثر،»،ولهن رزقهن، وكسوتهن بالمعروف، وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ،ألاومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها)[1].

وهذا تقرير لما لكل من الزوجين من حقوق، ووصية بتقوى الله في النساء.كما وضع الإسلام منهجا لعلاج الخلافات الزوجية، وذلك بتذكير الزوج بمتطلبات القوامة التي أنيطت به، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[2]

ولو زادت الخلافات بين الزوجين، وحتى لا تؤثر على استقرار الأسرة بيّن الله وسيلة أخرى للإصلاح والعلاج، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[3] .

فإن استحالت العشرة، أو كان في استمرارها ظلم وحيف على طرف من طرفي الأسرة، فيأتي التوجيه الرباني، قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[4]، ويقول أيضا ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾[5] .

والذرية: هي أمل الأسرة المنشود، فلا تقر العين، ولا تهدأ الأعصاب إلا بها فهذا نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعو ربه دعاء خفيا، يظهر منه فقره وضعفه لربه ويطلب منه – سبحانه – وليا، قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[6] ، وإبراهيم (عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) يدعو ربه فيقول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[7]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند؛ (٢٠٦٩٥) (٣٤/ ٣٠٠)، وقال المحقق هذا حديث صحيح لغيره وابن ماجة في السنن؛ (١٨٥١) (١/ ٥٩٤)، كتاب: النكاح، باب: حق المرأة على زوجها.

(٢) النساء: ٣٤.

(٣) النساء: ٣٥.

(٤) البقرة: ٢٢٩.

(٥) النساء: ١٣٠.

(٦) مريم: ٢-٦.

(٧) الصافات: ١٠٠.

إذن: شدة عناية الإسلام بالأسرة تكمن في تهيئة حضن دافئ، وأرض خصبة تحتضن الأمل القادم، والأنس المنشود – الذرية –، وأول ما يقرع سمع الصغير صوت أمه وأبيه، وأول صورة تقع عليها عينه صورة الأم التي هي ألصق الناس به وأحن الناس عليه، وبالتالي، يكون تأثر الصغار بالوالدين كبيرا، وتكون المحاكاة لتصرفاتهم، وترديد كلماتهم، والتأثر بعاداتهم، وتقاليدهم سلبا، أو إيجابا، فالأبوان يمثلان المصدر الأول للعقيدة، والثقافة، والفكر، والأخلاق، (فهما أول من تقع

عليه حواسه المستقبلية، فتتلقف قواه الذهنية كل ما يصل إليه، وتعيه وتحتفظ به؛ لتخرجه فيما بعد في صورة سلوك، وألفاظ تنبئ عن طبيعة ما تلقاه، فإن كان طيبا كان سلوكه طيبا، وأخلاقه حسنة، وألفاظه مهذبة، وتعامله مع الآخرين راقيا، وقد عبر الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن التفاعل بين الوالدين، وأبنائهما بقوله: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)[١].

فالفطرة في هذا الحديث تعني الصفحة البيضاء، وإن فسرها بعض العلماء بأنها الإسلام، فلا تعارض بين التفسيرين؛ لأن الإنسان يميل بفطرته، وطبيعته إلى الإسلام، ولا يبتعد عنه إلا إذا حَجبت الأفكار الهدامة، والصور الفكرية المدمرة انعكاس ضوء الإسلام على صفحته البيضاء.....)[٢]

وليس تأثير الوالدين قاصرا على الجانب الإيماني للصغير فقط بل يتعداه إلى غيره، فالأبوان هما اللذان يشكلان شخصية الطفل، فجميع تصرفات الإنسان في كل مراحل حياته تضرب بجذورها إلى ما تلقاه، وهو طفل من أبويه، وخاصة من الأم؛ لأنها تكون أكثر لصوقا به في حياته الأولى.

(فهو يرث منهما كثيرا من العادات، والتقاليد بحكم التقليد والمحاكاة؛ إذ يثبت على ما يراه من أبويه، وما يتعلمه منهما، وما يحاكيهما فيه، ويتشرب منهما كل ما يراه من تصرفاتهما)[٣].

فإذا كانت مهمة الأسرة بهذه الأهمية والخطورة، فلا بد أن يعي الوالدان أهمية دورهما، وخطورة الأمانة الملقاة عليهما، ولابد أن يتعلما، وأن يعرفا الحق من الباطل والصواب من الخطأ، حتى يكونا قادرين على العطاء، واستشراف مواطن القيم وأسباب الخلل، والمبادرة بتنمية الإيجابي، وعلاج السلبي منها بفهم ووعي وقدرة على الإقناع، والتصويب بأسلوب هادئ بعيد عن الانفعال المنفر، والقسوة المدمرة لشخصية الطفل أو الشاب.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه؛ رقم (١٣٥٨) (٢/ ٩٤)، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام.

(٢) الشباب مرآة المجتمع ، د/ محمد عبدالغني شامه صـ٩، ١٠ مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م .

(٣) المرجع السابق، صـ٤ .

الأهداف الرئيسية للأسرة تكمن في النقاط الآتية:

١ – إقامة حدود الله: أي تحقيق شرع الله، ومرضاته في كل شئونهما الزوجية، وهذا معناه إقامة البيت المسلم الذي يبني حياته على تحقيق عبادة الله، أي على تحقيق الهدف الأسمى للتربية الإسلامية.

وقد ورد تعليل إباحة الطلاق حين تطلبه المرأة بالخوف من عدم إقامة حدود الله، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

وهكذا ينشأ الطفل، ويترعرع في بيت أقيم على تقوى من الله، ورغبة في إقامة حدود الله، وتحكيم شريعته، فيتعلم الاقتداء بذلك من غير كبير جهد، أو عناء، إذ يمتص عادات أبويه بالتقليد، ويقتنع بعقيدتهما الإسلامية حين يصبح واعيا.

٢– تحقيق السكون النفسي والطمأنينة:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٢] .

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣] .

فإذا اجتمع الزوجان على أساس من الرحمة، والاطمئنان النفسي المتبادل فحينئذ يتربى الناشئ في جو سعيد يهبه الثقة، والاطمئنان، والمودة، بعيدا عن القلق، والعقد، والأمراض النفسية التي تضعف شخصيته.

٣ – إنجاب النسل المؤمن الصالح:

فعلى الأبوين تقع مسئولية تربية الأبناء، ووقايتهم من الخسران والشر والنار التي تنتظر كل إنسان لا يؤمن بالله، أو يتبع غير سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٤] .

وهذه المسئولية تزداد أهمية في أيامنا، لأن بعض عناصر الحياة الاجتماعية خارج الأسرة والمسجد، ليست في كل الأحيان موافقة لهدف التربية الإسلامية...فإذا لم يبق الأبوان يقظين حذرين، صعب عليهما

(١) البقرة: ٢٣٠.

(٢) البقرة: ٢٣٠.

(٣) الأعراف: ١٨٩.

(٤) الروم: ٢١.

إنقاذ أبنائهما من اجتيال شياطين الإنس والجن لهم.

٤- إرواء الحاجة إلى المحبة عند الأطفال:

(الرحمة بالأولاد من أهم الغرائز التي فُطر عليها الإنسان، وجعلها الله أساسا من أسس الحياة النفسية، والاجتماعية، وقوامها الأبوان، وتتحمل الأسرة مسئولية رحمة الأولاد، ومحبتهم، والعطف عليهم؛ لأن هذا من أهم أسس نشأتهم، ومقومات نموهم النفسي، والاجتماعي نموا قويما سويا، فإذا لم تتحقق المحبة للأولاد بالشكل الكافي المتزن نشأ الطفل معقداً منطويا في مجتمعه، لا يحسن التآلف مع الآخرين، ولا يستطيع التعاون، أو تقديم الخدمات، والتضحيات.

ولهذا ضرب رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أروع الأمثلة في محبة الأطفال، ومداعبتهم والرفق بهم، ومن هذه الأمثلة الرائعة: قَبَّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله فقال: «من لا يَرحم لا يُرحم».[١]

إن الأقرع كان يظن أنه من الرجولة والفحولة، أن يقسو القلب ويتحجر، حتى لا يرحم صغيرًا، ولا يُقَبِّل طفلاً، لكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ عليه بقاعدة من القواعد الإسلامية الثابتة.. حيث قال له في إيجاز: «من لا يَرحم لا يُرحَم!»

لقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يصبر على بكاء طفل ولا على ألمه.. يروي أبو قتادة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي، وهو حامل أُمَامَة بنت زينب بنت رسول الله، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها»[٢].

٥ – صون فطرة الطفل عن الزلل والانحراف:

أوضح الإسلام أن الأسرة مسئولة عن فطرة الطفل، وأن كل انحراف يصيبها مصدره الأبوان، أومن يقوم مقامهما من المربين، ذلك أن الطفل يولد صافي السريرة سليم الفطرة قال – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)[٣]،[٤]

.يقـول ابـن القيـم: (ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خُلُقِه؛ فإنه ينشأ على ما عوده

(١) التحريم: ٦.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الآداب - باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته -(٨/ ٧) -حديث رقم(٥٩٩٧).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب سترة المصلي - باب المرأَةِ تَطرح عن المصَلي شيئاً من الأَذى-(١/ ١٨٠) -حديث رقم(٢٧٧).

(٤) سبق تخريجه في (ص٨٢).

المربي في صغره من حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش وحِدَّة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات، وهيئات راسخة له؛ فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولا بد يوما ما، ولهذا؛ تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قِبَل التربية التي نشأ عليها، وكذلك يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو، والباطل، والغناء وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عَسِر جدا...)[1].

إن التربية الإيمانية هي صمام الأمان لسلامة الأجيال الناشئة من كوارث تحدث لهم، أو يتسببون في وقوعها، قد تصيب عقائدهم، وفكرهم، وسلوكهم، فالتحصين بالتربية الإسلامية، والقيام بالواجب نحوهم، يؤدي؛ لاستقامتهم وسلامتهم، ومن ثمَّ سلامة المجتمع والأمة جميعاً.

(١) انظر أصول التربية الإسلامية وأساليبها من صـ١٣٥ إلى صـ ١٣٩ عبدالرحمن النحلاوي ، ط٢ ،دار الفكر دمشق، ١٩٨٣م، (بتصرف يسير).

الفصل الثاني: المشكلات الاجتماعية

وتُعَرَّفُ المشكلة الاجتماعية بأنها: (التي تظهر في مجتمع بعينه، في وقت معين نتيجة لظروف معينه، وتقتضي من علماء الاجتماع المحليين دراستها والكشف عن أسبابها)[١].

وتُعَرَّفُ- أيضاً- بأنها: (سلوك انحرافي في اتجاه غير مُوَافَق عليه، له من الدرجة ما يعلو فوق مستوى الحد التسامحي للمجتمع، ومثل هذا السلوك الذي يجاوز حدود التسامح يؤدي إلى رد فعل عام؛ يهدف إلى حماية المجتمع، وإصلاح المخالف أو الجاني، وتحذير كل إنسان من أن الانحراف الذي يتعدى نقطة معينة لن يتسامح فيه)[٢].

إذن: فمن وجهة نظر علماء الاجتماع تؤثر المشكلات الاجتماعية سلبا على الفكر والسلوك، فالفقير المعدم الذي يرى ترفا، وثراء من حوله،- وهو يكتوي بلظى الحاجة، والحرمان - والشاب القادر على العمل ولا يجد وظيفة، وغيره يجدها فور تخرجه، واليتيم الذي فقد عائله ويرى غيره من الأولاد يلعبون، ويتنزهون، وهو منكفئ على بؤسه وحرمانه من والده، والأولاد الذين تاهوا بين أبوين منفصلين، أمثال هؤلاء يمكن أن يتحولوا إلى كتل من الأمراض النفسية، والفكرية الناقمة على المجتمع، والحاقدة عليه، ويمكن أن يتحول بعضهم إلى قنابل موقوته تزلزل استقرار المجتمع وتهدد أمنه وسلامته، ويمكن أن يُستغل هؤلاء من قبل بعض تجار الدين، وأصحاب الفكر السقيم؛ ليتحولوا إلى متطرفين، أو إرهابيين، أو يرتد بعضهم عن الدين، ويكفر بوجود رب العالمين، مالم يجدوا يدا حانية تعطف عليهم.

والانحراف الفكري: يعد أخطر، وأشرس أنواع الانحراف؛ لأن خطره لا يتوقف عند صاحبه بل تنتقل عدواه؛ لتصيب ضعيف الإيمان معدوم الحصانة الإيمانية والأخلاقية.

«فالانحراف الفكري هو المفجر لكل الشرور، وهو منبع المفاسد، والضلالات على مر العصور، ومنه تنطلق الأفكار الهدامة، والعقائد الباطلة، والتصورات الفاسدة التي تحرك البعض نحو التدمير والتخريب. فإذا صلح الفكر والتصور صلح التوجه، وتحرك العمل نحو الهدف المنشود، وإذا فسد الفكر والتصور فسدت العقيدة، وأصبح القلب مريضا، والروح شريرة، والنفس أمارة بالسوء»[٣].

وسأقتصر في هذا المبحث على إيراد ثلاث من المشكلات التي يمكن أن تؤدي إلى الانحراف الفكري وهي: مشكلة الفقر، ومشكلة البطالة، ومشكلة التفكك الأسري، وسأحاول بيان مدى تأثير المشكلة

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (٢٤٠: ٢٤١)، ابن قيم الجوزية (٧٥١).

(٢) انظر؛ المشكلات الاجتماعية والانحراف السلوكي (١٣)، د/ عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى..

(٣) المرجع السابق صـ ٢١.

الاجتماعية على العقيدة الإسلامية.

المبحث الأول: مشكلة الفقر

الفقر يعني: العوز، وعدم التمتع بالخدمات الأساسية التي تتمثل في التغذية والصحة، والتعليم؛ والكساء، والمسكن، فالشخص الذي لا يفي دخله بضرورات الحياة، ولا يجد في بيته ما يكفيه من غذاء، أو كساء، ولا يجد من يمد له يد العون، والمواساة، وينظر حوله فلا يرى إلا العوز، والحرمان، ويحاول جاهدا البحث عن عمل يدر دخلا يكفيه لكن دون جدوى؛ سيكون مضطرا لمغادرة البيت بحثا عن الأسباب، وسعيا وراء الرزق، وحينما تغلق دونه الأبواب تتلقفه أيدي السوء، والإجرام، وتلتف حوله هالة الشر والانحراف بشتى صوره وأشكاله، فينشأ في المجتمع مجرما، ويكون خطرا على الأنفس، والأموال، والأعراض، والعقائد.

وللفقر تأثيرات سلبية بعيدة المدى، قد تؤدي إلى انهيار وتفكك أي مجتمع، ومن كافة النواحي الأمنية، والأخلاقية، والعقدية، والاجتماعية. وهذه بعض الآثار السلبية المترتبة على الفقر:

أ – التفكك الأسري:

التفكك الأسري أحد الآثار السلبية التي يؤدي إليها الفقر نتيجة عدم قدرة رب الأسرة على كفاية أفراد أسرته؛ بسبب قلة الدخل، فتتعرض الأسرة إلى جملة من الأخطار، منها ما يحول دون تكوينها، ومنها ما يهدد استقرارها، ويبدد سعادتها ويحملها على الفرقة.

(ففي تكوين الأسرة نجد الفقر مانعا من أكبر الموانع التي تحول بين الشباب، وبين الزواج، وما وراءه من أعباء المهر، والنفقة والاستقلال الاقتصادي، ولهذا أوصى القرآن الكريم أمثال هؤلاء: أن يعتصموا بالعفاف، والصبر حتى توافيهم القدرة الاقتصادية. قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1]....، وفي استمرار الأسرة نرى، ضغط الفقر ربما غلب الدوافع الأخلاقية، ففرق بين المرء وزوجه على كره منه، وربما على كره منها، وهذا أمر اعتبره القانون الإسلامي، فأجاز للقاضي تطليق المرأة من زوجها؛ لإعساره وعجزه عن النفقة عليها، رفعا للضرر عنها، وفقا لقاعدة: (لا ضرر ولا ضرار)[2]

وفي العلاقات بين أفراد الأسرة؛ نجد الفقر كثيرا ما يكدر صفاءها، بل قد يمزق أواصر المحبة بينها، ولذا نجد القرآن الكريم يسجل حقيقة تاريخية رهيبة هي: أن بعض الآباء قتلوا أولادهم، وفلذات أكبادهم تحت وطأة الفقر المدقع، أو خشية الفقر المتوقع، وهي جريمة يندى لها جبين الإنسانية خجلا، ويسْوَدُّ لها وجه الفضيلة حزنا فلا عجب أن أنكرها القرآن أشد الإنكار، وحذر منها أبلغ التحذير، فقال تعالى:

(١) أسباب الانحراف الفكري وعلاجه الشامل في الإسلام (ص٢)، د / علي محي الدين القره داغي، بحث مقدم للمجلس الأوربي للإفتاء

(٢) النور: ٣٣.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[2]، والإملاق هو الفقر)[3].

فلا شك أن الفقير المعدم، والذي يعجز عن إطعام أولاده، وتعليمهم، وعلاجهم يتعرض أبناؤه للهرب من التعليم، ومن ثم الجهل، والأمية، والأمراض الفكرية والسلوكية، بجانب عدم الاستقرار الأسري؛ بسبب قلة الدخل، ومتطلبات الأسرة فيدب الشجار، وتحدث الفرقة...،وكل ذلك بسبب الفقر.

ب – الفقر يؤدي إلى انتشار الجريمة:

فمن آثاره: انتشار الجرائم مثل القتل، والخطف، والسرقات، والاختلاس وغيرها، إذ يدفع انخفاض الدخل إلى الرغبة في الثراء، والحصول على المال لدى البعض فيدفعه ذلك؛ لارتكاب الجرائم من أجل الوصول للهدف، ومن ثم يتعرض المجتمع لعدم الاستقرار.

جـ – التلازم بين الفقر، وانتشار الأمراض:

تفشي الأمراض، وانتشارها هو أيضا من آثار الفقر السلبية، وذلك؛ لعجز المستشفيات الحكومية عن توفير ما يلزم للمريض الفقير، والذي تحول ظروفه المادية دون القدرة على الذهاب لمستشفيات خاصة، أو شراء العلاج اللازم.

د – الفقر خطر على العقيدة:

قد يكون الفقر لدى البعض سببًا للإلحاد، وهذه ليست قاعدة، فكم من فقير ضرب أروع الأمثلة في الثبات والبذل والعطاء، ولم ينل الفقر من عقيدته، وسير الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم أجل من أن تحصى ، ومع ذلك استعاذ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا عجب أن يستعيذ رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من شر الفقر مقترنا بالكفر في سياق واحد، وذلك حيث يقول (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)[4]. ويقول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر والقلة والذلة)[5]، مخافة أن يؤدي لضعف الإيمان، أو للكفر كما قال ذلك ابن الراوندي الملحد:

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ؛ رقم (٢٧٥٨) (٤/ ١٠٧٨)، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق، وأحمد في المسند؛ رقم (٢٨٦٥) (٥/ ٥٥)، وابن ماجة في السنن؛ رقم (٢٣٤١) (٢/ ٧٨٤)، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر جاره، وقال المحقق حديث صحيح لغيره .

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الإسراء: ٣١.

(٤) المرجع السابق (١٤ – ١٥)

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند؛ رقم (٢٠٣٨١) (٣٤/ ١٧)، وقال المحقق هذا حديث إسناده قوي على شرط مسلم

(كـم عـالمٍ عـالمٍ أعيـت مذاهبُـه وجاهـل جاهـل تلقـاه مرزوقـا
هـذا الـذي تـرك الألبـاب حائـرة وصـير العالـم النـحرير زنديقا

فعارضه أهل الاهتداء ونجوم الاقتداء فقالوا:

كـم عاقـل عاقـل لازال في عـسرٍ وجاهـل جاهـل لازال في يـسر
تحـير النـاس في هـذا فقلـت لهـم هذا الذي أوجب الإيمان بالقدر) [١].

وللفقر- كذلك- آثار سلبية على الأخلاق، والسلوك، وآثار على ضعف الانتماء، وربما تدفع الحاجة صاحبها؛ ليفرط في أغلى ما لديه، فالتي تفرط في عرضها وتبيع شرفها تفعل ذلك من أجل المال، والجاسوس الذي يفشي أسرار وطنه يفعل ذلك من أجل المال، والذي يبيع كُليته أيضا من أجل المال، والذي يفارق دينه ربما أيضا من أجل المال؛ وهكذا نجد آثارا سلبية كثيرة للفقر؛(لأن تأثير المال على الإنسان شديد وعميق سواء كان سلبا، أو إيجابا، فإن استحكمت الأزمة الاقتصادية، واشتدت وطأة المطالب المالية، انحرف الإنسان، فلا يفكر في عواقب ما يرتكبه ما دام هدفه الحصول على المال؛ لتخفيف ضغوط الحياة المعيشية، ويظل طلب المال مسيطرا على حواسه، فلا يرى غيره، ولا يبصر ما عداه)[٢].

ولذا جعل الإسلامُ الغنى نعمة يمتن الله بها، ويطالب بشكرها، وجعل الفقر مشكلة بل مصيبة يستعاذ بالله منها، ووضع مختلف الوسائل لعلاجها....فقد امتن الله على رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالغنى، فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[٣]، وجعل إيتاء المال من عاجل مثوبته – تعالى – لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[٤] وقال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعمرو بن العاص: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[٥]

والأحاديث النبوية تعتبر الفقر آفة خطيرة يُخْشى سوء أثرها على الفرد، وعلى المجتمع معا، وعلى العقيدة والإيمان، وعلى الخلق والسلوك، وعلى الفكر، والثقافة وعلى الأمة جميعا .

وقد وضع الإسلام نظاما محكما للقضاء على الفقر بجملة من الوسائل منها:

١-الـزكاة: فقد أوجب الله نصيبا وحقا معلوما للفقراء في أموال الأغنياء،قال سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، ج٢، ص ٤٣٨، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الشباب مرآة المجتمع (٥١)، د/ محمد شامة.

(٣) الضحى: ٨.

(٤) نوح: ١٠-١٢.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد؛ رقم (٢٩٩) (١/ ١١٢)، وابن حبان في صحيحه؛ رقم (٣٢١٠) (٨/ ٦) .

فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾[١] ، قال سبحانه: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[٢]، فالزكاة ليست منّةً من الغني الباذل للفقير الآخذ، وإنما هي حق الفقير في مال الغني، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾[٣]، ولو قصّر الأغنياء في إخراجها فهم آثمون، وأخذت منهم رغما عنهم، وأجبروا على إخراجها، فإن أول حرب في التاريخ من أجل مصلحة الفقراء هي: حرب الصديق – (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)– لمانعي الزكاة.

٢– العمل، والاحتراف، وسيرد تناوله في المحور التالي

٣– الصدقة: فإذا لم تف الزكاة بحاجة الفقراء، وبقي فقير عاجز عن العمل، أو أن دخله لا يفي بضرورات الحياة، وجب على من يعلم حاله أن يتصدق عليه ابتغاء مرضاة الله وثوابه، وهذه ميزة تميز بها الإسلام؛ لعلاج مشكلة الفقر، كان رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحث أصحابه على الإنفاق، فعن جرير بن عبدالله، (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال:خطبنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فحثّنا على الصدقة، فأبطئوا حتى رُئِيَ في وجهه الغضب، ثم إن رجلا من الأنصار جاء بِصَّرة، فأعطاها له، فتتابع الناس حتى رُئِيَ في وجهه السرور، فقال رسول الله «من سن سنّةً حسنةً كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء» [٤]

٤– الإنفاق على الأقارب الفقراء؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [٥]، ولقول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)لأحد أصحابه: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا، وهكذا». يقول: فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك[٦].

٥– كفالة الأيتام، والقيام بما يلزمهم، حتى لا يكونوا عرضة للضياع، ولما يترتب على ذلك من الأجر العظيم قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بالسبابة، والوسطى، وفرق بينهما قليلا»[٧].

---

(١) المعارج الآيتان (٢٤،٢٥).

(٢) التوبة جزء الآية(١٠٣).

(٣) الأنعام: جزء الآية(١٤١).

(٤) رواه مسلم، باب (من سن في الإسلام سنة حسنة أو سيئة،)رقم (١٠١٧).(٢١)من حديث جرير بن عبد الله،كتاب الزكاة.

(٥) الإسراء الآية(٢٦).

(٦) رواه مسلم من حديث جابربن عبد الله، كتاب الزكاة، باب: (الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة)، رقم (٩٩٧) (٢٢).

(٧) رواه البخاري من حديث سهل بن سعد، كتاب الأدب، فضل من يعول يتيما، رقم(٦٠٠٥).

٦- دور الدولة في كفاية، وكفالة المحتاجين، فلو لم تف الزكاة، والصدقات بحاجة الفقراء، فإن الدولة ملزمة بكفالة أبنائها، وكفايتهم، حماية لهم من الحاجة، وحماية لأمنها واستقرارها. ومما يؤكد دور الدولة في الإسلام قول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دَيْنًا، فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته[1]. « وفي رواية «من ترك كلاً أو ضَياعا فإلينا»، وإن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بكفاية المحتاجين، فلولي الأمر أن يفرض على الأغنياء بقدر ما يفي بحاجة الفقراء.

يتضح: أن الانحراف الفكري والسلوكي، ليس بين الفقراء والعاطلين فقط، ولا في الدول الفقيرة فحسب، وإنما يشمل الأغنياء والفقراء أيضا، ولئن كان الفقر سببا في إلحاد فرد؛ فإن الترف ربما كان سببا في إلحاد أفراد، فإن الجماعات المتطرفة لا تقوم بما تقوم به من أجل المال، وجماعات التكفير لا تكفِّر من أجل المال، والذين يفجرون وينتحرون لا يفكرون في المال. أحيانًا يستغل أئمة الضلال والانحراف حاجة الشباب الفقير، للسيطرة عليه وتجنيده؛ لتوسيع دائرة انحرافهم، وتطرفهم، وربما كان الفقير أكثر ميلا لقبول الفكر والسلوك المنحرف من غيره.

(١) رواه البخاري، كتاب: النفقات، باب: قول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)(من ترك كلا أو ضياعا)..، رقم (٥٠٥٦).

المبحث الثاني: مشكلة البطالة

ويشتمل هذا المطلب على ثلاثة عناصر:

أولاً: مفهوم البطالة وأسبابها:

البطالة لغة: بَطَلَ العامل: تعطَّل عن العمل،عُدِمَ الوظيفة ولم يجد ما يرتزق منه [١].

والبطالة بالمفهوم الاقتصادي هي: (التوقف عن العمل، أو عدم توافر فرص العمل لشخص قادر عليه وراغب فيه، وقد تكون بطالة حقيقية، أو بطالة مقنعة كما قد تكون بطالة دائمة، أو مؤقتة (موسمية).

وعرفت البطالة أيضا بأنها: (كل قادر على العمل وراغب فيه، ويبحث عنه ويقبله عند مستوى الأجر السائد، ولكن دون جدوى)[٢].

وعرفت أيضا بأنها: (الحالة التي يكون فيها الشخص قادرا على العمل وراغبا فيه، ولكن لا يجد العمل والأجر المناسبين)[٣].

ثانيًا: بعض الآثار التي قد تنتج عن البطالة:

سأشير لأثرين فقط من الآثار السلبية التي تنتج عن البطالة:

الأول: البطالة والجريمة:

(تشير بعض الدراسات التطبيقية إلى أن البطالة تحتوى على بذور الجريمة بذاتها؛ لأنها تتضمن العناصر الانحرافية التالية في طبيعتها وفي مضمونها:-

١- عدم استقرار العلاقات الاجتماعية للعاطل وتقلبها زمانيا ومكانيا.

٢- تحلل أساليب الرقابة وموانع الجريمة الذاتية في داخل العاطل.

٣- تركز عوامل الضياع وعدم التأكد وعدم الاستقرار ومن ثم طغيان شعور خيبة الأمل والإحباط بالنسبة للعاطل.

٤- ابتعاد العاطل عن المجتمع وقيمه السائدة نتيجة شعوره بالوحدة والعزلة والنبذ)[٤].

فالعاطل أحيانًا: لا تستقر علاقاته الأسرية، ويضعف لديه الضمير الإيماني الذي يُذَكِّره عند غفلته،

(١) المعجم الوسيط، مادة (بطل). وانظر: معجم اللغة العربية المعاصرة،ص ٢١٨.

(٢) الحل الإسلامي لمشكلة البطالة ص(١١)، د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى، دار الوفاء، الطبعة الأولى، (٢٠٠٤).

(٣) البطالة في العالم العربي وعلاقتها بالجريمة ص(٢٦)، د/ عاطف عجوة الناشر المركز العربي للدراسات الأجنبية بالرياض، (١٩٨٥).

(٤) البطالة في العالم العربي وعلاقتها بالجريمة ص(٣٨)، د/ عاطف عجوة، المركز العربي للدراسات الأجنبية بالرياض (١٩٨٥).

ويزجره عند زلته، وربما يبرر لنفسه ما يقع فيه من أخطاء، وإن طال إهماله تحول إلى قنبلة موقوتة توشك أن يتطاير منها شرر الإجرام والانحراف.

فالأب الذي له زوجة وأولاد، ولم تتيسر له سبل العمل، ولم تتأمن له طرق الكسب، ولم يجد من المال ما يسد به جوعته، وجوعة أهله وأولاده، ويؤمن لهم حاجاتهم الضرورية، ومطالبهم الحيوية، فإن الأسرة بأفرادها ستتعرض للتشرد والضياع، وإن الأولاد سيدرجون نحو الانحراف والإجرام، وربما فكر رب الأسرة مع من يقوم بأمرهم من أهل وولد، أن يحصلوا على المال عن طريق حرام ويجمعوه من وسائل غير مشروعة كالسرقة، والاغتصاب، والرشوة. ويعنى هذا أن المجتمع حلت فيه الفوضى، وأصيب بالدمار والانهيار.

ولقد أثبتت الدراسات: أن الجرائم تزداد لدى أسرة المجرم العاطل أكثر منها في أسرة المجرم العامل :

(أولا: تتسم أسرة المجرم العاطل بتزايد معدل الجريمة فيها، وانتشارها بين أبنائها

ثانيا: تتميز أسرة المجرم العاطل بوجود سوابق إجرامية بين أفرادها.

ثالثا: تنتشر البطالة بين أفراد أسرة المجرم العاطل بصورة ملحوظة.

وتدل هذه الخصائص الثلاث السابقة على اختلاف نوعية أسرة المجرم العاطل عن أسرة المجرم العامل من حيث تغلغل الجريمة، وتكرارها، وانتشار البطالة بين أفرادها)[1]. وهذا يعنى أن الإجرام لا يكون قاصرا على العاطل، بل يتعداه إلى غيره من أفراد أسرته، وتزداد نسبته أيضا. وبسبب البطالة يتحول الشاب إلى صيد سهل يسقط في شَرَكِ المنحرفين فكريا وسلوكيا وعقديا وغيرهم من المهربين والمروجين للمخدرات وغيرها.

الثاني: البطالة والانحراف الفكري:

البطالة مع الفقر يخلقان حالة من اليأس، والإحباط لدى الفرد، ويغلب عليه التشاؤم، والشعور بالمرارة، كما يؤديان إلى تدهور حالته النفسية، وانعدام الأمل في المستقبل، تلك المشاعر تجعل صاحبها في بيئة قابلة للتأثر بأفكار ومعتقدات مشوهة، ومتطرفة من أجل تغيير الواقع، فالعاطل بسبب يأسه، وإحباطه، وشعوره بالنقص، وأنه ليس كغيره من العاملين يتقبل تلك الأفكار دون مناقشة أو نقد.

ومن مظاهر ذلك الانحراف:

ومن مظاهره: الاستخفاف بالوعظ والحديث عن الفضيلة، وضرورة التمسك بالقيم والأخلاق، إذ يَعُدُّ ذلك الكلام بعيدا عن الواقع المرير الذي يعيشه، وأنه لن يجدي معه نفعا، ولن يحل مشكلاته – من وجهة نظره. كما أنه يسبب عدم الاتزان النفسي، حيث يصاب العاطل بخلل في وزن الأمور والحكم عليها؛ فينظر

(١) البطالة في العالم العربي وعلاقتها بالجريمة صـ١٠٨ مرجع سابق

لتوافه الأمور نظرة جدية، وينظر لعظام الأحداث بسطحية وتسفيه. ومما يدل على هذا التسطيح ما رواه البخاري، وغيره عن أبي نُعم، قال: كنت شاهدا لابن عمر، وسأله رجل عن دم البعوض، فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (هما ريحانتاي من الدنيا)[١].

وكلما طالت مدة البطالة ازداد العاطل تشاؤما، ونقمة على المجتمع، وحقدا عليه، ورغبة في إلحاق الأذى به، كما أنه يشك في المقدور، وعدالة التوزيع، وربما بسبب الفراغ القاتل، والحاجة الملحة تصيبه بعض شظايا الانحراف الفكري العقدي والذي ربما يفضى به للكفر والإلحاد.

ثالثًا: التوجيه الإسلامي لعلاج مشكلة البطالة:

ولقد جاءت نصوص القرآن والسنة تحث على العمل، وترفع من قيمة العامل، لذلك قرن الله الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة، وذلك لبيان قيمة وأهمية العمل قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٣] ، فلا إيمان إلا بالعمل الصالح الذي يؤكد صدق هذا الإيمان تأكيدا عمليا من خلال الكد، والاجتهاد، والبحث عن الرزق الحلال، وإعمار الأرض.

كما حرص الإسلام على دفع المسلمين للعمل، وحضهم عليه، ورغبهم فيه، وفتح أمامهم أبواب العمل الصالح على مصراعيها، ليختار كل إنسان ما يناسب قدراته، وإمكانياته، ومهاراته من عمل طيب، وجاء الأمر بالانتشار في الأرض بعد الصلاة طلبا للرزق قال تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٤].

ومن روائع الهدي النبوي في الحث على العمل، والترغيب فيه قال – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) – (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله أعطاه أو منعه)[٥] ووردت أحاديث كثيرة تبين فضل الكسب، والمهن والحرف اليدوية، فعن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده)[٦]، وفي الحث على المزارعة، والغرس روى البخاري عن أنس بن مالك – (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) – أن

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، رقم (٥٩٩٤) (٨/ ٧)، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته .

(٢) الكهف: ٣٠.

(٣) يونس: ٩.

(٤) الجمعة: ١٠

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه؛ رقم (١٤٧٠) (٢/ ١٢٣)، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه؛ رقم (٢٠٧٢) (٣/ ٥٧)، كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده،

رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال (ما من مسلم يزرع زرعا، أو يغرس غرسا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)[1]. ويروى عن ابن مسعود – (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) – أنه قال: (إني لأمقت الرجل فارغا ليس من شيء في عمل دنيا ولا آخرة)[2]. ويروى عن عروة بن الزبير (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنه سئل: (ما شر شيء ؟ قال: البطالة في العالم)[3]. والمجال لا يتسع لكثير من النصوص التي تحث على العمل، والمبينة لفضل وأجر العامل، فالهدف بيان الآثار الضارة التي تترتب على البطالة باعتبارها مشكلة اجتماعية مؤثرة على النفس، والفكر، ومضرة بصاحبها ومجتمعه، فهي تشكل سببا رئيسيا لمعظم الأمراض الاجتماعية في أي مجتمع، كما أنها تمثل تهديدا واضحا، للاستقرار الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، فالبطالة بمعناها الواسع لا تعنى فقط حرمان الشخص من مصدر معيشته، وإنما تعنى أيضا حرمانه من الشعور بجدوى وجوده.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، رقم (٢٣٢٠) (٣/ ١٠٣)، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وأخرجه مسلم في صحيحه؛ رقم (١٥٥٣) (١١٨٩)، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع.

(٢) أخرجه الإمام الطبراني في الجامع الكبير –خطبة ابن مسعود ومن كلامه – (٩/ ١٠٢) حديث رقم (٨٥٣٨) .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان؛ رقم (١٧٦٩) (٣/ ٣٢١)، وأبو داود في الزهد ولكن عن هشام بن عروة؛ رقم (٤٢٦) (٣٥٦).وأورده أبو الفداء في كشف الخفاء ومزيل الإلباس –(١/ ٣٢٨) وقال هو ضعيف.

المبحث الثالث: التفكك الأسري

ويشتمل هذا المطلب على عنصرين:

أولاً: مفهوم التفكك الأسري وأسبابه

مفهوم التفكك الأسري: (يعنى انهيار الوحدة الأسرية، وانحلال بناء الأدوار الاجتماعية المرتبطة بها عندما يفشل عضو، أو أكثر في القيام بالتزامات دوره بصورة مرضية)[١]

ويُعرَّفُ أيضا بأنه: (وَهَنُ أو سوء تكيف وتوافق، أو انحلال يصيب الروابط التي تربط الجماعة الأسرية كلا مع الآخر، ولا يقتصر وهن هذه الروابط على ما قد يصيب العلاقة بين الرجل والمرأة، بل قد يشمل أيضا علاقات الوالدين بأبنائهما)[٢].

ومن مظاهر التفكك الأسري وأسبابه:

١- الاختلال الذي يصيب دور الرجل، أو المرأة، ومن العوامل التي تؤدى إلى هذا الاختلال: الهجر، والموت، والطلاق.

٢- تنحلُ رابطةُ الزوجية، أو تتفكك الأسرة، بسبب استقلال المرأة الاقتصادي أو ضياع الود .

٣- يؤدى عدم إنجاب الأطفال؛ إلى احتمالات تؤدى إلى فصم عرى رابطة الزوجية .

٤- يتوقف قدر كبير من احتمالات تفكك الأسرة على مدى التسامح...، ولكن القدر المستطاع من التسامح عند الزوجين، أو عند أحدهما، إذا لم يمارس بطريقة واعية فقد تزداد التوترات، وتفضى إلى تفكك الأسرة.[٣].

٥- سوء العشرة، والخيانة الزوجية، والإدمان، والقسوة، والعنف، كل ذلك يضاف لما سبق كسبب من أسباب التفكك الأسري، ومظهر من مظاهره

يتضح: أن التفكك الأسري مصطلح عام يشمل الطلاق، الهجر والانفصال، وتنازع الأدوار، والإهمال، وعدم القيام بالمسئوليات من قبل الزوجين والنتيجة هي: انحلال رابطة الزوجية حقيقة، أو مجازا – بمعنى أن الأسرة تبقى شكلا بلا معنى – ومن ثم يتعرض البيت الصغير – الأولاد – لشتات وضياع وانحراف.

ثانيًا: أثر التفكك الأسري على انحراف الأولاد:

إن التفكك الأسري بشكل عام، والطلاق بشكل خاص، يؤثر تأثيرا سلبيا على توفير الرعاية اللازمة للأطفال في أسرهم الطبيعية، وإن ما يترتب على الطلاق من حرمان للأولاد من أحد أبويهم، ومن غياب الرعاية يكون أكثر قسوة، وتهديدا في حالة عدم تعويضهم عن هذا الحرمان.

---

(١) الزواج صـ٢٩٢، د/ سناء الخولي.

(٢) المشكلات الاجتماعية والسلوك الانحرافي، د/ محمد عاطف غيث صـ١٦١

(٣) المرجع السابق (١٦٢ - ١٦٤)، (بتصرف يسير)

ويترك الطلاق آثارا سلبية على نفسية الصغار، تتحول إلى ترسبات نفسية يمكن أن تنتج اضطرابات في الشخصية كرد فعل ضد الطلاق، وما يرافقه في العادة من صراع، أو تنتج عنه أنواع من الانحراف والتشرد، وخاصة عند غياب دور الوالدين الإيجابي؛ للتخفيف من تأثير الطلاق في السنوات المبكرة من حياة الأبناء، وبصفة أخص عندما يكون التفكك في الأسر التي تكون من أوساط فقيرة.

- ولا يقتصر تأثير تفكك الأسرة على حرمان الطفل من الرعاية الأسرية الطبيعية، بل قد تترتب عليه آثار سلوكية سيئة، كأن ينحرف الأولاد عن السلوك السوى، ويشكلون خطرا على أنفسهم، ومجتمعهم، ومعلوم أن الأولاد في الأسر المتفككة بالطلاق أو وفاة الأب أو الأم، أو وفاتهما معا قد يكونون أكثر عرضة للانحراف.

- والأطفال بعد الطلاق قد يُسْتَخْدُمونَ -أحيانا -كوسيلة للانتقام، أو الإيذاء المتبادل بين الزوجين، فالأم تحرم الأب من رؤية أولاده، ويعيش الأولاد تجربة نفسية قاسية تترك آثارها السيئة في وجدانهم، وتجعلهم ينفرون من البيت، ويكرهون ذلك الجو المشحون.

- ولا يقتصر أثر التفكك الأسري على الأبناء وعلى تخلفهم الدراسي فحسب بل تترسب في أعماقهم مشاعر الكراهية نحو الحياة، والأحياء معا، ويتمثل ذلك في الانحراف، والتمرد على القيم، والنظم، والقوانين .

- وأخطر ما يترتب على التفكك الأسري على الأولاد؛ أنه قد تمتد إليهم أيدى المتربصين الذين يتخذون منهم وسيلة لنشر السموم، أو سرقة الآخرين، أو الشذوذ والانحراف السلوكي، أو الانحراف الفكري الموصل للإرهاب، أو الكفر، والإلحاد.

- إن استخدام الأولاد كورقة يضغط بها كل طرف على الطرف الآخر يحمل الأولاد على احتراف ابتزاز والديهم، ويجعلهم عرضة للضياع، ويكونون صيدا سهلا في أيدي المرجفين، والمتربصين من المنحرفين فكريا، وسلوكيا.

(يبدو أن التفكك الأسري الناتج عن الفشل الذي يصيب أداء أحد الأبوين للدور المناط به في البيت، يمثل عاملا مدمرا للأولاد..؛ وينتج عن التفكك الأسري التفكك النفسي للفرد الذي يعيش في أسرة يسودها جو المنازعات المستمرة بين أفرادها، وخاصة بين الوالدين، ولوكان جميع أفرادها يعيشون تحت سقف واحد، وكذلك يشيع فيها عدم احترام حقوق الآخرين....)[1]، إن النبت الأخضر اليانع المزهر المثمر؛ ينبت في أرض الخصوبة، ومناخ الاعتدال والرعاية، ولا ينبت في أرض السبخ، والإهمال، والأولاد لا تستقيم

(١) التفكك الأسري وأثره على الفرد والمجتمع (٧)، د / محمد أحمد حسن القضاة بحث مقدم لندوة بعنوان: دور التشريعات في الحد من مشكلات العنف والتفكك الأسري، عمان / الأردن ٢٣/ ٥/ ٢٠١٥.

عقائدهم وسلوكهم، وفكرهم إلا في أرض الرعاية والاستقرار، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[1] ولذلك كان اهتمام الإسلام بالأسرة منذ الخطوة الأولى؛ لتكوينها، إذ هيأ النبي – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الأزواج على توقع حدوث شيء من التقصير من قبل الزوجات، فعليه أن يوجِّه بلطف، ويعظ بحكمة، قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)[2] ، وقال – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر)[3]. ومعنى الحديث: أي لا ينبغي للزوج أن يبغض زوجته، لعيب فيها فلا يوجد من لا عيب فيه، وعليه أن يكون منصفا، وذلك بتذكر محاسنها، وغض الطرف عن زلاتها، لتستمر الحياة، وتهنأ الأسرة، ويدوم الود.

ماسبق غيض من فيض من حرص الإسلام على تماسك الأسرة واستقرارها، حتى ينشأ الأولاد نشأة إيمانية سوية هادئة، خالية من الشجار، والنزاع، والعنف، بعيدة عن التفكك، والتشرد، والضياع، يكون من ثمرتها سلامة النفس، والعقل، والفكر، تلك السلامة العقلية، والإيمانية تُحَطِّمُ كلَ موجات الانحراف السلوكي، والفكري، أما الفراق والهجر؛ فيعني فقدان الشعور بالأمن، وضعف المناعة الإيمانية، والفكرية.

(١) الأعراف:٥٨.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم (٣١٠٤).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب:الرضاع ، بابك الوصية بالنساء ، رقم (٢٦٨٠)

الفصل الثالث: ضعف مواكبة المناهج الدراسية

المبحث الأول: مظاهر وآثار ضعف مواكبة المناهج الدراسية

ويشتمل هذا المبحث على عنصرين:

أولاً: مظاهر ضعف مواكبة المناهج الدراسية

١- عدم الاهتمام بمادة التربية الاسلامية، باعتبارها مادة غير مؤثرة في المعدل النهائي للتقويم، مما جعل الطلاب لا يلتفتون إليها، ولا يهتمون بكتابها، وإنما يعمدون إلى مذكرات صغيرة يطالعونها ليلة الامتحان، أو تكون معهم داخل لجنة الاختبار، مما ضاعف من عدم اكتراث الطلاب بها؛ لعلمهم أنها ليست في صلب المناهج الدراسية، وإنما هي مادة هامشية مكملة .

٢- قلة عدد الحصص المخصصة للتربية الإسلامية، والأخلاق، وجعلها في ذيل الجدول – أي في الحصص الأخيرة – حيث قل التركيز، وحل الملل، ورغب الطلاب في الانصراف بدعوى عدم تأثيرها على معدلاتهم، ومن ثم فُقِدتْ الثمرة وضاع أبناؤنا.

٣- إسناد تدريس منهج التربية الإسلامية – أحيانا – لغير المتخصص، أومن هو ضحل الثقافة الإسلامية، أو غير المهيأ لتدريسها، لافتقاده لعنصر القدوة والمثل لطلابه.

٤- كون المادة العلمية لمنهج التربية الإسلامية لا تمثل الإسلام الشامل الكامل المنظِم لكافة شئون الحياة، وإنما لاعتبارات كثيرة يحوي المنهج نذرا يسيرا عن الإسلام، دون التأكيد على القامات والقدوات الإسلامية، ومن ثم نتج الفراغ الديني، والأمية الدينية.

(يرى المهتمون بالمسائل الدينية: أن مشكلات الشباب نشأت من الفراغ الديني ذلك أن البرامج التعليمية لا تهتم اهتماما كافيا بالجانب الديني في العملية التربوية، فالمقررات الدينية جافة، صيغت بأسلوب لا يساعد على غرس التعاليم الدينية في نفوس الطلاب بل كثيرا ما ينفرهم منها، وبالتالي يقيم حاجزا معنويا بينهم وبين المجالات الدينية مما يساعد الأفكار الأجنبية على التغلغل في نفوسهم، والتمكن من توجيههم الفكري، وتشكيل سلوكهم الأخلاقي.

أضف إلى ذلك أن العلوم الأخرى ليس فيها ما يساعد على تثبيت الأفكار الدينية في أذهانهم، بل فيها من الإشارات، والتلميحات ما يزعزع عقيدتهم، ويهز إيمانهم، فيعرضون عنه ويتجهون إلى ساحات أخرى حيث يتخبطون في عماية ظلماء وضلالة بلهاء، أسدلت أستارها، واستحكمت منافذها، فلا يجدون لهم منها مخرجا عندما يتبين لهم أنها لا تشبع رغبتهم، ولا تلبي حاجتهم، فيسيرون دون هدف محدد ويتمردون على كل ما يرونه في طريقهم من غير أن يتبينوا الفرق بين ما يُقَدِّمُ لهم العونَ للخروج من هذا المأزق، وبين

ما يجذبهم إلى أعماق الضياع والهلاك)[١] وحتى يكون المنهج مجديا، ومنتجا ومؤثرا يجب أن يُلقي الضوء على مسائل مهمة تتعلق بالعقيدة والأخلاق، والمعاملات، والسيرة والتراجم، والفكر المعاصر والثقافة الإسلامية العامة.

وتنبه الأزهر لذلك فقرر منهجا للثقافة الإسلامية، يتناول موضوعات تعالج قضايا آنية معاصرة مثل:أدب الحوار، قضية التكفير، المفهوم الصحيح للجهاد، حكم التدخين والخمر والمخدرات، مفهوم المواطنة، سماحة الإسلام في معاملة أهل الأديان الأخرى، التطرف والإرهاب، حرمة الدماء، وأرى أن هذا المنهج يجب أن يعمم على المدارس كافة، والجامعات، ولا يكون قاصرا على المعاهد الأزهرية، وأرى أن يشتمل في المراحل العليا (الجامعات، والمعاهد) على موضوعات تعالج أسباب الانحراف السلوكي، ومكانة المرأة في الإسلام، وقيمة النفع المتعدي، وخدمة المجتمع والمقاصد العامة للإسلام، وبعض التيارات والمذاهب المعاصرة مع نقض ما ورد فيها من غمز وطعن في الدين، مثل نظرية داروين، والوجودية، والعلمانية، وغيرها...

٥- ينتهي تدريس التربية الإسلامية بالمرحلة الثانوية، وتكون صلة الطالب رسميا قد انتهت، وانقطعت عن الثقافة الإسلامية – عدا طلاب الكليات الشرعية المتخصصة – فهل الطالب بعد المرحلة الثانوية لا يحتاج في تعليمه الجامعي إلى تعلم دينه، وقيم الإسلام وأخلاقه؟! أليس الطالب وهو في هذه المرحلة أشد احتياجا وأكثر افتقارا لأنوار الهداية كما هو الحال في سائر مراحل التعليم؟!

فالطالب الجامعي يكون في أخطر مرحلة من حياته، يحتاج فيها إلى معرفة دينه، وعقيدته، وتَعَلُّم الأخلاق الإسلامية السامية، إذ هي المرحلة التي تكتمل فيها إدراكاته، وتنضج فيها غرائزه وشهواته، إنها المرحلة التي ينزوي فيها دور وتأثير الأسرة؛ لتبدأ المؤثرات الأخرى في العمل، ويشعر الشاب في تلك المرحلة باستقلالية معينة. إن الطالب الذي سيكون معلما في أمس الحاجة لمعرفة منهج التربية الإسلامية، وقيمة الإخلاص في العمل، وجلال الدور الذي يقوم به، والرسالة التي يؤديها، والخير الذي سيجري على يديه يحمل ثمرةً وفائدةً للبلاد والعباد، وكذا الطبيب، والمهندس، وسائر التخصصات.

وعليه: فإنه لابد أن تتضاعف مسئولية الأساتذة، وشئون الطلاب ومتابعة أولئك الطلاب ومناقشتهم قبل أن يخرجوا من أحضان الجامعة، وهم يحملون فكرا خاطئا، ومنهجا غير سوي...، ولعل (من الأمور المهمة، وضع استراتيجية، وخطط مستقبلية للنشاط الجامعي، وربطه باستراتيجية الجامعة والجهات ذات العلاقة، بشأن المحافظة على هوية وعقيدة وانتماء الطلاب، والخروج من صروح الجامعات، وهم يحملون الفكر السليم، والعلم النافع والعقيدة الصافية)[٢].

(١) الشباب مرآة المجتمع (٥٨) مرجع سابق.

(٢) انظر؛ دور الجامعة في تعزيز مبدأ الوسطية بين طلابها من خلال أنشطة التربية الإسلامية (٢١)، د/ عايش بن عطية

٦- ينظر البعض للدين نظرة توجس، وينظر إليه البعض– أيضا – بعين الريبة باعتبار مناهج التربية الإسلامية سببا من أسباب التطرف والتشدد، وبدلا من إعادة النظر بالتركيز على الدين باعتباره أمثل وسيلة لمعرفة الحرمات وتنمية الوازع الديني – الشرطي الذاتي –، راح البعض يطالب بعدم تدريس التربية الإسلامية، واستبدالها بمنهج آخر يتناول القيم بصورة عامة بعيدة عن النصوص الدينية.

لذا أرى: ضرورة قيام المؤسسات الدينية، والإعلامية بمحو الصورة السلبية لبعض المنتسبين للإسلام، وإتاحة الفرصة للعلماء الثقات بعرض القيم الإيمانية والخلقية بأسلوب مشوِّق يعكس الصورة الحقيقية للإسلام.

كما أن التطرف لا يكون دينيا فقط بل يكون بسبب أيدلوجيات أخرى: علمانية، أوماركسية أو لا دينية. وكما يتسبب الفكر الديني الموسوم بالتطرف والانحراف، فكذلك يؤثر الفكر العلماني، والماركسي والصهيوني في التطرف والانحراف، لذا يجب على الجهات المنوط بها المتابعة والتقييم أن تحرص على إبعاد أبواق الفكر المسموم حتى لا تسمم أفكار الأجيال القادمة.

ثانيـًا: نتائج عدم مواكبة المناهج الدراسية

١ – عدم وجود مناعة فكرية تقي العقول من الانحراف الفكري، وذلك بسبب الفراغ العقلي، أي خلو العقل من القيم الإيمانية، والأخلاقية.

وعدم وجود تلك المناعة الإيمانية؛ تجعل الشاب، أو الناشئ أكثر تأثرا بأقل موجات الفكر المسموم، وربما تَلَقَى الناشئُ تعليما موجها يحمل صاحبه على التطرف، أو تبني أفكارٍ إلحادية.

إن تحصين الطالب بالإيمان بربه إيمانا يحمله على العمل له، والخوف منه، يجعله لا ينطق إلا بالصدق، ولا يحكم إلا بالعدل، ولا يأخذ ما ليس له، سيكون مصدر إصلاح وتعمير، ولن يكون أداة تخريب وتدمير.

إن الذين انحرفت أفكارهم، وزلت أقدامهم فعاثوا في الأرض فسادا، وفهموا الدين فهما ملتويا، وذلك نتيجة عدم تحصينهم بالدين الوسطي السمح الصحيح،كانوا صيدا سهلا للمضلين.

(وقد ثبت من دراسة أجريت على أعضاء الجماعات الإسلامية المتشددة في مصر، أن أدنى نسبة كانت من العمال، والفلاحين، وأكبرها كانت من الطلبة وبالذات من طلاب الجامعات الحديثة، أي من المتعلمين تعليما مدنيا حديثا، وليس تعليما دينيا، ومرد ذلك أن التعليم الديني يجعل الطالب أكثر فهما لقواعد الإسلام وأصوله، ولا يجعله ينزع بسهولة فيما تروج له الجماعات المتشددة.....فإذا اجتمع للمرء

البشري، بحث مقدم لمؤتمر: دور الجامعات العربية في تعزيز مبدأ الوسطية بين الشباب العربي، جامعة طيبة. المدينة المنورة ، ٤ صفر ١٤٣٢هـ.

العلم، والالتزام الديني سَلِمَ في دينه، ودنياه، وصح سلوكه، وطهُرت دوافعُه ونوازعُه)[1].

٢- انحسار مفهوم الطاعة، والعمل الصالح، وقصره على العبادات فقط، وما عداها لا علاقة للدين بها، ومعلوم ومقرر: أن المجتمع محراب عبادة، وأن النفع المتعدي لا يقل ثوابا وفضلاً وأجراً عن النفع الذاتي.

٣- ضعف الوازع الديني، واختلال منظومة القيم الإسلامية بسبب ضعف، وقلة القيم الإيمانية التي يدرسها الطالب، ولذا ينحرف الشاب سلوكيا، وفكريا، ويتحول إلى مصدر ضرر وأذى أينما حل ورحل. إن معدل الجرائم التي تقترف يمكن أن يتضاءل بقوة الإيمان بالله والخوف من الحساب، واليوم الآخر، فالأطباء الذين يتاجرون في الأعضاء البشرية...، والمهندسون الذين يبنون مساكن يدفع أصحابها عرق عمرهم لتسقط فوق رؤوسهم، والمدرسون الذين يتسربون من مدارسهم ويتركون طلابهم من أجل دروس خصوصية... إلخ، هؤلاء: لو تربوا تربية إيمانية صحيحة؛ لحدت من جنوحهم وفسادهم؛ ولأيقظت ضمائرهم.

٤- إن إهمال تدريس طلاب المرحلة الجامعية منهج التربية الإسلامية حمل بعضهم على الميوعة، والانحلال، وذبح الفضيلة على عتبات الحرم الجامعي بانتشار الزواج العرفي، والوقوع في الفواحش والمخدرات، وربما الاقتناع بما يدرس لهم من نظريات ماركسية، أو علمانية، أو وجودية... وغيرها، على اعتبار أنها من المسلمات، وذلك بسبب ضعف المناعة الدينية، وربما أفضى بهم ذلك التصور للإلحاد، وكل هذا بسبب عدم تحصينهم بالقيم الإيمانية المناسبة.

٥- ضعف مواكبة المناهج الإيمانية، والقيمية يؤدي إلى تصور خاطئ ومشوه عن الإسلام وعن المتمسكين به، باعتبارهم يتمسكون بشيء لا يستحق الاهتمام به -من وجهة نظرهم - والإنسان عدو ما يجهل كما يقال.

٦- التشكك، والتذبذب أمام أدنى شبهة بسبب قلة الثقافة الإسلامية وضعف المناعة الإيمانية، بل والسقوط من الجولة الأولى أمام أي متربص من الملحدين، أو المشككين، أو العلمانيين الذين ينفثون سمومهم الفكرية في عقول وقلوب الناشئة لبلبلة أفكارهم وهز ثقتهم في دينهم وقيمهم، فلدى هؤلاء أسئلة معدة سلفا يمكن الإتيان عليها بسهولة من قبل المتخصصين، لكنها تصيب قليل الثقافة والمناعة بحيرة ربما تلازمه، ولا تزول عنه، ويمكن أن تتعداه لغيره، جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي، في دورته الـ١٥ ما يلي:

١- أن تركز عملية أسلمة المناهج على صياغة مناهج التعليم، والتربية بأهدافها، ومحتواها، وأساليبها، وطرائق التقويم في إطار التصور الإسلامي الكلي الشامل للإنسان، والكون، والحياة وذلك بهدف إعداد إنسان

---

(١) سياسة الإسلام في التعامل مع الفتن المعاصرة صـ٢٢٠ مصطفى بن أحمد عسيري، جامعة نايف للعلوم الأمنية ١٤٢٥هـ الرياض (رسالة ماجستير).

صالح ملتزم بقيم دينه وقادر على القيام بمهمة الخلافة في الأرض، وعمارتها على وفق المنهج الإسلامي.

٢- أن تستهدف العملية التعليمية، والتربوية غرس القيم الإسلامية وتعميقها في نفوس الناشئة، وتمكينهم من تمثلها، والعمل بها في حياتهم العملية.

٣- صياغة الموضوعات، والمقررات التعليمية في إطار التصور الإسلامي مع العمل على إبراز الرؤية الإسلامية (عقيدة، وشريعة، ومنهاج حياة) في مشمولات المحتوى.

٤- استشراف المنهجية الإسلامية في طرائق، وأساليب التعليم، والتربية، مع الاستفادة من مستجدات الوسائل التعليمية، وتقنيات التعليم المعاصر، وتنفيذ برامج تحقق الغرض الإسلامي في إطار مطلوب، كتخصيص جوائز للمبدعين والمبتكرين.

٥- الالتزام بالقيم الإسلامية عند تقويم الأداء في العملية التعليمية، والتربوية مع الاستفادة من طرائق التقويم الحديثة، وتحقيق التنسيق المطلوب، وتبادل المعلومات بين الأقطار الإسلامية.

٦- تنقيح المناهج التعليمية، والتربوية السائدة في العالم الإسلامي، وتطويرها بما يجمع بين الأصالة، والمعاصرة، وذلك بذاتية دون تدخل خارجي.

٧- تعميم تعليم اللغة العربية في جميع مراحل التعليم المختلفة؛ ليصبح بلغة القرآن والسنة، وذلك للحفاظ على الشخصية الإسلامية، وللربط بالميراث العلمي المدون بالعربية.

٨- تنقية العلوم في مختلف المجالات من المفاهيم الدخيلة على المبادئ الإسلامية.

٩- العناية بإعداد المعلم إعدادا سلوكيا، ومعرفيا، وتربويا، وكذلك إعداد الكتب المنهجية بما يتوافق مع الأصول والقيم الإسلامية.

١٠- العناية بمبادئ التربية الإسلامية، وأسسها لتكون الموجه الرئيسي للعملية التعليمية، وإيلاء التربية الأخلاقية العناية اللازمة بحيث يكون المتعلم مزودا بالسلوكيات والقيم الإسلامية.

١١- تضمين المناهج التعليمية ما يعزز الوحدة، وثقافة التعايش الإيجابي مع شعوب العالم)[1].

وليس بعد توصيات فقهاء الأمة الإسلامية من كلام، فقد قطعت توصياتهم قول كل بليغ، ولو رأت تلك التوصيات النور، ومثلت واقعا تربويا، وتعليميا، لأنتجت استقامة، وسلامة للأخلاق والأفكار وشموعا ملأت الدنيا عدلا، وسلاما، ونور هداية.

(١) قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته الـ١٥ رقم ٤/ ١٣٨ المنعقدة في مدينة مسقط بسلطنة عمان في الفترة من ٦-١١ مارس ٢٠٠٦م.

المبحث الثاني: أهمية مواكبة المناهج الدراسية

وتكمن أهمية التربية الإسلامية في أنها: ربانية المصدر، وأنها شاملة بحيث لم تغفل نصوصها أي جانب من جوانب حياة الإنسان، وأنها تربية تتسم بالتوازن، والوسطية، وتجمع بين الثبات والمرونة، وأنها متدرجة، والتدرج مهم في عملية تعديل السلوك والفكر وتغيير العادات غير المرغوبة، وأنها تربية واقعية تراعي ظروف الشخص فتيسر وترفع الحرج.

ثم إن كثيرا من الذين يعيشون التذبذب العقدي ضحايا مناهج تعليم زرعت في نفوسهم عناصر سامة، فلم تستطع نفوسهم أن تطرد هذه العناصر، وتلفظها، ولم تستطع هذه السموم أن تقضي على كل بذور الفطرة، ومن ثم ظلوا ضحايا صراع فكري ونفسي.

إن المؤسسات التربوية (المدارس، والمعاهد، والجامعات) منها اليوم ما هو قويم المنهج، ويعتمد على الوسائل الناضجة في تربية الجيل، ويضع المنهاج الصحيح لمختلف سنوات الدراسة، ومنها من أخفق في ذلك: - بقصد، أو بدون قصد - نتيجة هيمنة الأفكار الغربية، والنظريات المستوردة، والاتجاه نحو العلمانية، أو العولمة، مع أن واجبها الأساسي يلزمها باختيار أفضل الوسائل للتعليم والتربية، وأقوم المناهج، والتركيز على الغايات، والأهداف التربوية الصحيحة التي تنطلق من مقومات الأمة الإسلامية المرتبطة بالقرآن والسنة، والمحافِظة على دوام، ونضارة وازدهار التاريخ، والتراث العربي، والإسلامي.

(تعتبر التربية، والتعليم من أهم مداخل الإصلاح الفكري بنشر العلم، باعتبارها رافعة لتنمية الموارد البشرية وتكوينها، ومن هنا فإن على المؤسسات التربوية مسئولية تنشئة الأجيال على مفاهيم الاعتدال نظريا وعمليا في نفوس وعقول أبناء الأمة، ويتم ذلك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بناء الشخصية الإسلامية المتوازنة الممثلة لحضارة الإسلام عقيدة، وسلوكا، هذه الشخصية التي بناها الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بناء متينا على العقيدة النقية الصافية، والأخوة الإيمانية، والشعور بالمسئولية...

المرحلة الثانية: نقض الفكر المؤدي للتطرف، فكر التعصب، والتقليد الأعمى والانغلاق؛ ليحل محله الاجتهاد، والحوار، وإشاعة ثقافة الاختلاف والحوار) .

وللوصول إلى أهداف هاتين المرحلتين عمليا (لا بد من تخصيص مساحة كبيرة في العملية التربوية؛ لإعادة بناء منظومة القيم الاجتماعية وإصلاح هذه المفاهيم التربوية عبر غرس ثقافة التجديد في الفكر الإسلامي لتصحيح النظرة؛ لنستطيع التمييز بين فقه الشريعة، وبين الاجتهاد والفتوى، والتعمق في فهم حقيقة الإسلام في حضارته المادية والروحية، وعقيدته القائمة على التوحيد، وعباداته المعنية بتهذيب الفرد والجماعة، وإدراك مفاهيم الاعتدال في الإسلام، التي ينبغي التركيز عليها في مناهج التعليم في جميع

مراحله الأساسية والثانوية والجامعية، وهي الكفيلة بإعداد وتربية وتنشئة المواطن الصالح، وتحقيق الإشعاع الفكري، والعقدي، والاجتماعي، والتصور الصحيح للإسلام ومبادئه، ولفت أنظار العالم، لأباطيل خصومه، ولا سيما، أولئك الذين يشوهون حقائق الإسلام)[١]

إن التربية الإسلامية تمتاز بربانيتها، وقدرتها على حماية الدنيا جميعا إن أتيحت للمنهج الفرصة، مع وجود مربٍّ صاحب رسالة، يقشع بنورها ظلام الجهل بالدين.

وعن أهمية التربية الإسلامية، والأضرار التي تترتب على إهمالها:

(فإن التربية الإسلامية بما تضمه من مفاهيم وأهداف وما تستند عليه من مصادر قادرة على أن تربي نشئا مؤمنا بعقيدته صالحا مصلحا، وإن أخطر أسباب الانحراف في بعض المجتمعات الإسلامية، هو: الجهل بالدين والبعد عن التمسك بالشريعة الإسلامية، كما أن التربية الإسلامية تعمل على تحصين الطلاب ذاتيا ببناء شخصية مؤمنة بالله محصنة ضد الانحرافات، والجرائم، وأنها تعمل على مواجهة الجرائم، والفساد في الأرض بأسلوب الترغيب والترهيب)[٢].

ولا يمكن للمنهج أن ينتج أثره المرجو بدون معلم مُهيَّأ، ومُعَد إعدادا خاصا لنقل المنهج من الجانب النظري المجرد إلى الجانب القيمي الملموس والمشاهد، فدور المعلم لا يقل أهمية وخطورة عن المنهج، ولو كانت المناهج تكفي لما كلف الله الأنبياء بالتبليغ والدعوة، وجعلهم أئمة الهدى وقدوة حسنة قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الأنعام ٩٠

فاختيار، وانتقاء المعلمين جزء من مكونات التعليم الناجح (فمن الضروري انتقاء الأساتذة الذين يقومون بالتدريس بكل دقة بحيث يتصفون بالفطنة، والذكاء، والقدرة على إيصال المعلومة الصحيحة للطالب، إضافة إلى المقدرة الشخصية التي تمكنهم من استيعاب المتغيرات الحضارية التي يعيشونها وربطها بالمناهج الدراسية بشكل مشوق، مع تحفيز الأستاذ لطلابه على المناقشة والحوار، والإبداع، والتفكير بصورة علمية من خلال استشعار الواقع، والتأمل فيه وطرح الأفكار، ومناقشتها بشكل مجرد من الأوامر والنواهي التي تؤخذ قوالب جاهزة)[٤].

---

(١) دور المدرسة في مقاومة الإرهاب د/ عبدالله عبدالعزيز اليوسف صـ١٤ نشر جامعة نايف للعلوم الأمنية، الرياض.

(٢) دور التربية الإسلامية في مواجهة الإرهاب صـ٢١١ د/ خالد بن صالح الظاهري – دار عالم الكتب الرياض ٢٠٠٢م رسالة دكتوراه.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) دور المدرسة في مقاومة الإرهاب صـ١٥ د/ عبدالله عبدالعزيز اليوسف.

تعد التربية الإسلامية الصحيحة السلاح الأول في مواجهة كافة صنوف الفساد، والانحراف الفكري والسلوكي، وإذا كنا جادين في علاج جذري للظواهر الانحرافية المختلفة؛ فلا بد من تطوير منهج التربية الإسلامية تطويرا يتفق مع معطيات العصر الثقافية، والفكرية، ويلبي حاجة العقل والقلب، بأسلوب مشوق مقنع، على أن يصاحب ذلك المنهج الطلاب في كافة المراحل من الروضة إلى المرحلة الجامعية، ويختار الوقت المناسب، والمعلم الكفؤ الفاهم المؤمن برسالته، وأن تكون مادة التربية الإسلامية، والأخلاق في صلب العملية التعليمية، وليست على هامشها كما هو الحال.

فنحن في زمن السماوات المفتوحة، وسهولة التواصل والاتصال، وتيارات فكرية تموج موج البحر تعصف بعقول فلذات أكبادنا، وتسمم أفكارهم، وتفسد عقيدتهم وأخلاقهم. فلا بد من الاهتمام بمنهج التربية الإسلامية – بصفة خاصة – وبما يتناسب مع متطلبات العصر، مع تأكيد مبدأ وسطية الإسلام وسماحته، وتضمين المنهج وسائل التفكير العلمي السليم، وتنمية مهارات الطالب ليقف صلبا أمام الغزو الفكري الموجه لقطع حبل الصلة بينه وبين خالقه، وهدم شرف الانتساب للإسلام والاعتزاز بالهوية الإسلامية، وألا تكون صلة الطالب بالمنهج مؤقتة بنهاية الامتحان وإنما يكون لها انعكاسها على حياته.

وتكتمل مواكبة المناهج الدراسية بضرورة أن تصبغ بالصبغة الإيمانية، فعند الحديث عن الأفلاك، والكواكب أيعقل أن نغفل من جعلها في مدارات ومواقع بلغت غاية الدقة والإحكام!! قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[2] ، وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[3] .

والنصوص القرآنية، والنبوية تشير إلى خلق الإنسان، وإلى أهمية الماء، والهواء والبحار، والنبات، والجبال وطبقاتها، فيجدر أن نربط المواد العلمية من أحياء وفيزياء، وكيمياء، ورياضيات، وتاريخ وغيرها، بنصوص قرآنية، ونبوية توثق صلة الدارس بربه – سبحانه وتعالى – ومن ثم نحصن عقله من أن يسمم بما يطالعه على منصات الحوار والدردشة وغيرها، ونردم الهوة المصطنعة –زورا– بين الدين والعلم (وعلاج هذه المشكلة يقوم على إعادة تأليف مناهج، وكتب لسائر المعارف والعلوم من منطلق إسلامي، بشرط القيام بدورات تربوية إسلامية تدرب المعلمين على تحقيق هذا المنطلق في جميع جوانب التربية والتعليم المدرسي)[4] .

---

(١) الواقعة: ٧٥-٧٦.

(٢) الرحمن: ٥-٧.

(٣) يس: ٣٩-٤٠.

(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها صـ١٦٨، مرجع سابق.

كما (يتعمق التفاعل بين الرسالة وأدوات تحقيقها – أي بين العلوم الدينية، والعلوم الكونية – ويقوي ويفرز ثمراته الحضارية بمقدار توافق الحقائق الدينية والحقائق العلمية، يتوقف التفاعل بين الدين، والحضارة ما دامت الحقائق الدينية الصحيحة تمد الحضارة، وتوجه أهدافها، وتحفظ المجتمع)[1].

إن غرس القيم الإيمانية والأخلاقية في نفوس أبنائنا من خلال المناهج والبيئة الدراسية، لأعظم وسيلة من وسائل الحماية للإنسان والأوطان، حيث تحفظ تلك القيم عقله وقلبه، وتجعله بصيراً على نفسه، منسجماً مع مجتمعه.

(١) فلسفة التربية الإسلامية صـ٢٨٥ د/ ماجد عرسان الكيلاني – مكتبة المنارة – مكة الكرمة – الطبعة الأولى عام ١٩٨٧.

الفصل الرابع: ضعف مواكبة الخطاب الدعوي

المبحث الأول: مفهوم الخطاب الدعوي وأهميته

مفهوم الخطاب:

كلام نافع، يستند إلى الحجج والبراهين، قصد به المخاطِب من يخاطبه ، بغرض إفهامه فهما معينا، والتأثير فيه تأثيرا يحمله على الالتزام به.

الدعوي نسبة إلى الدعوة؛ والدعوة في اللغة هي: النداء والاستمالة إلى الشيء[١]، فإذا كان النداء نداءً إلى خير، أو شر، كانت الدعوة دعوةً إلى الخير والهدى، أو إلى الشر والضلالة، قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيء ، ومن دعا إلى ضلالة كان له من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيء)[٢].

ومنه جاء تعريف الدعوة بأنها: (تبليغ الناس جميعا دعوة الإسلام، وهدايتهم إليها قولا، وعملا في كل زمان ومكان، بأساليب تتناسب مع المدعوين على مختلف أصنافهم وعصورهم)[٣].

ومن ثم جاء تعريف الدعوة الإسلامية، أو الخطاب الدعوي على أنه: (فكر متكامل، وبرنامج يتضمن التخطيط، والأهداف، والاستراتيجيات، والأساليب والوسائل، والمحتوى، والجمهور، والتوقيتات، وأساليب التنفيذ، وإجراءاته، ومتطلباته المادية، والبشرية، ويتضمن في الوقت نفسه المتابعة، والتقويم الفوري لكل أنشطة الدعوة سواء أكانت على مستوى الداعية الفرد، أو على مستوى المؤسسات الدعوية، أو من خلال التكامل بين هذه المؤسسات، ومؤسسات المجتمع الأخرى)[٤].

والخطاب الديني هو: تبليغ عن رب العالمين، بالمنهج والكيفية التي وضعها سبحانه في آية سورة النحل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٥] أي: بفهم ووعي، ورفق، والتزام، ومراعاة لحال

---

(١) انظر؛ لسان العرب مادة (دعا) (١٤/ ٢٥٨)، دار صادر بيروت، وانظر المعجم الوجيز صـ٢٢٨ طبعة مجمع اللغة العربية.

(٢) أخرجه أحمد في المسند؛ رقم (١٩١٥٦) (٣١/ ٤٩٤)، ومسلم في صحيحه؛ رقم (٢٦٧٤) (٤/ ٢٠٦٠)، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

(٣) خصائص الدعوة الإسلامية، محمد أمين حسن صـ١٧ مطبعة المنارة الزرقاء الأردن سنة ١٩٨٣

(٤) انظر: تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر، محمد منير حجاب، صـ١٢ دار الفجر للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠٤م، القاهرة.

(٥) النحل: ١٢٥

المدعوين، وبأساليب، ووسائل تأتي بمجامع قلوبهم، وبحجج وبراهين ساطعة مقنعة، وبعلم وثقافة شاملة .

والخطـاب الدعـوي: بمكوناته، وأبعاده هو نفسه منهج الدعوة الإسلامية التي هي: مجموعة الطرق، والقواعد، والإجراءات، التي تحدد السبل المثلى؛ لممارسة الدعوة الإسلامية، والضوابط الخاصة بكل عنصر من عناصر عملية الاتصال الدعوي؛ لضمان تحقيق الدعوة؛ لأهدافها بما يساعدها على الوصول إلى الحق وتحقيق الفهم السليم للإسلام، والتصدي للتحديات التي تواجه الأمة.

المبحث الثاني

مظاهر ونتائج ضعف مواكبة الخطاب الدعوي وعلاجه

تمهيد:

يتحمل بعض علماء الأمة، ومفكريها، ومثقفيها في جميع المجالات، وزرًا لا يستهان به فيما يتعلق بانحراف الشباب فكريا، وذلك أن بعض العلماء عزلوا أنفسهم بقصد، أو بدون عن شريحة واسعة من شبابنا الذين التبس عليهم الحق بالباطل فراحوا يبحثون بأنفسهم عن مخارج شرعية، لحالة الإحباط الاقتصادي، والاجتماعي وغيرها التي تعيشها الأمة، وذلك دون الرجوع إلى العلماء، ولا يخفى خطر ذلك على أحد... قال ابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): (لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم، هلكوا)[١].

وقال ابن قتيبة الدينوري[٢]: (سُئلت عن قوله: لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم؟ فقلت: يريد لا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم المشايخ، ولم يكن علماؤهم الأحداث، لأن الشيخ قد زالت عنه متعة الشباب وحدته وعجلته وسفهه ،واستصحب التجربة والخبرة فلا يدخل عليه في علمه الشبهة ولا يغلب عليه الهوى، ولا يميل به الطمع، ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث، ومع السن الوقار، والجلالة، والهيبة، والحدث قد تدخل عليه هذا الأمور التي أمنت على الشيخ، فإذا دخلت عليه وأفتى، هلك وأهلك)[٣]

وكون الخطاب الدعوي به بعض القصور، فهذه حقيقة، لكنه انعكاس للجو العام، وهو ليس بدعا، فقد أصابه شيء من القصور، وضعف المواكبة؛ لمؤثرات إعلامية، وغيرها أضعفت تأثيره، ولعدم قيام بعض الدعاة بما يجب عليهم إعدادا وأداء.

ومن مظاهر ضعف مواكبة الخطاب الدعوي وعلاجه:

١- (انعزال بعض الدعاة عن الحياة الواقعية، والبعد عن عامة المسلمين، مما أدى إلى إيجاد حاجز يفصل بينهم وبين الناس)[٤] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، رقم (٨١٥) (١/ ٢٨١)، باب: ما جاء في قبض العلم.

(٢) عَبْد الله بْن مُسْلِم بْن قتيبة، أَبُو مُحَمَّد الكاتب الدينوري- وقيل: الْمَرْوَزِيّ سكن بغداد وكان ثقة دينًا فاضلا صاحب التصانيف المشهورة. والكتب المعروفة، منها: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن مات، أول ليلة من رجب سنة ٢٧٦ ه تاريخ بغداد وذيوله -أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) -(١٠/ ١٦٨) - دار الكتب العلمية – بيروت -تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا -الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ

(٣) نصيحة أهل الحديث (٣٠)، الخطيب البغدادي، الناشر دار المنار الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

(٤) انظر؛ سياسة الإسلام في التعامل مع الفتن المعاصرة، مصطفى عسيري،(٢٢٥).

فالداعية، والعالم يشارك الناس أفراحهم، وأتراحهم، ويساعد في حل مشكلاتهم، ويتلمس علل البيئة التي يقيم فيها، ليعالجها في خطبه، ودروسه بفكر ثاقب، وأسلوب جذاب مشوق، وحجج مقنعة، واضحة ساطعة.

٢- (جمود الأسلوب الذي يستعمله بعض الدعاة، وخلوه من الروح، والاكتفاء بتزهيد الناس في دنياهم، دون دعوتهم؛ لالتماس حسن الجزاء في الدنيا والآخرة)[١].

والمنهج القرآني، والنبوي، هو أمثل منهج للدعوة حيث اشتمل على الوعد، والوعيد، والترغيب، والترهيب، والجنة، والنار، والقصة، والمثل، والخبر والإنشاء، والسؤال والجواب، والاستفهام.....إلخ، كما كانت دعوة القرآن إلى العمل للدنيا والعمل للآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[٢] .

فالداعية النابه، والناجح هو الذي يلوِّن في خطابه، ويغير في أسلوبه، ويتفنن في وعظه، ويتخير الوقت المناسب للدعوة، والموضوع المناسب حتى لا يمل الناس

قال ابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):(إن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كان يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا)[٣]

٣-(كما أن بعض الدعاة يكفر بعض المسلمين، من أصحاب البدع، أو يرميهم بالجهل، وبالتالي ينفر الناس، ويحدث عكس ما يريد)[٤].

والكفر من أخطر ما يُرمى به مسلم، ولذا لا يترك تكفير الناس لآحادهم، حيث لا يُكَفَّرُ أحُد بشبهة، أو بسوء ظن، والحكم بالكفر من أخطر الأحكام، حيث تسبقه مراحل من التوضيح والبيان، ثم الاستتابة، ثم الحكم بالكفر أو عدمه، ويكون الحكم بكفر الشخص من قبل المؤسسات الشرعية، وليس من قبل آحاد الناس.

روى البخاري ومسلم أن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: (أيما رجل قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها

(١) نفس المرجع صـ٢٢٥.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) متفق عليه.

(٤) المرجع السابق (٢٢٥).

أحدهما.)[١] وزاد مسلم في رواية: (إن كان كما قال وإلا رجعت عليه)[٢].

٤- مخاطبة الناس بما لا يعرفون، وهذا قصور، وعجز من المتحدث يؤدي إلى نتيجة عكسية، وهي تكذيب الدين، ووصمه بالجهل، ففي صحيح البخاري عن علي- (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)- موقوفا: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذّبَ اللهُ ورسولُه)[٣]، وفي مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: (ما أنت بمحدث قومًا حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة)[٤].

٥ - استعمال لغة التهديد والوعيد، فبعضهم يتحدث بنبرة استفزازية، وتهديدية منفرة، وهذا خطاب يجلب النفور للمخاطبين، ولا يعبر بحال عن طبيعة الإسلام دين الرحمة والسماحة.

٦- استعمال الألفاظ الممجوجة، والسباب، والشتم، واللعن، والتقبيح، مما ينفر العقلاء، ويجلب التافهين والحمقى والمغفلين، وهذا على خلاف هدي النبي – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) – الذي كان مثالا يحتذى به في الأدب، والخلق وحلاوة اللسان، قال– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء)[٥].

٧ - (التصدي للخطابة، والكتابة، والدعوة، والتبليغ من قبل الجهلة الذين يتطفلون على غير حقلهم، وغير تخصصهم، فيسيئون، ولا يحسنون، ويفسدون ولا يصلحون)[٦].

٨ ـ ضيق الأفق، وقلة الثقافة الدينية واللغوية، مما يؤثر سلبا على الخطاب، ويقلل من قيمة الداعية عند السامعين والمتابعين، ويحشو أفكارهم بمعلومات ناقصة مشوشة.

ولذا؛ يجب انتقاء أفضل العناصر أدبا، وعلما، وثقافة، ولغة وفكرا؛ ليمثلوا دين الله، وليبلغوا خطاب الله، وليكونوا نماذج مشرفة للإسلام مع توفير ما يلزمهم من كتب وحواسيب، وحوافز مادية ومعنوية.

٩- يشعل بعضهم معارك جانبية متخذا من المنبر وسيلة؛ لتأجيج نيران العداوة والبغضاء، وتصيد الأخطاء، وبدلا من أن يكون الداعية وسيلة جذب وتأليف وحب، ومصدر إشعاع ينير للجميع طريقهم،

(١) أخرجه الإمام البخاري؛ رقم (٦١٠٣) (٨/ ٢٦)، كتاب: الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، ومسلم في صحيحه؛ رقم (٦٠) (١/ ٧٩)، كتاب: الإيمان، باب: بيان حال إيمان باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر.

(٢) أخرجه الإمام مسلم؛ رقم (٦٠) (١/ ٧٩)، كتاب: الإيمان، باب: بيان حال إيمان باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر.

(٣) أخرجه البخاري؛ رقم (١٢٧) (١/ ٣٧)، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا

(٤) مقدمة الإمام مسلم؛ (١/ ١١)، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٥) سبق تخريجه ص ٩٣.

(٦) انظر؛ تجديد الخطاب الديني ضرورة ملحة (٤).

يتحول إلى بوق يبث العداوة والبغضاء، ويبذر بذور الكره والشحناء.

١٠- تصنيف الناس حسب ميولهم السلفية، أو الصوفية، أو غيرها، فإن كان الداعية صوفيا مال لأهل التصوف، وأقصى غيرهم، ومدح جماعته، وذم غيرهم، والعكس صحيح.

والذي يجب أن يكون عليه الداعية، أن يكون مسلما شاملا لديه قدرة على احتواء واحتضان الجميع، وأن يكون وسيلة جذب وتجميع، لا وسيلة فرقة وتمزيق.

١١- قلة الإلمام بالعلوم الإنسانية مثل علم النفس، والأخلاق، والاجتماع، والتاريخ بجانب العلوم الشرعية.

ومن المعروف: أن معظم النظريات الفكرية، والفلسفية خرجت من رحم العلوم الإنسانية، فمن تمام ثقافة الداعية الإلمام بتلك العلوم، ومعرفة أعلامها وأفكارهم بجانب التزود بزاد واف من التاريخ، والثقافة العامة، مما يعطيه مصداقية لدى متابعيه، وقدرة على الإقناع، والحوار، والتشخيص، والعلاج.

١٢- تناول موضوعات محددة، ومكررة لا يكاد بعض الدعاة ينفكُّون عنها مثل (التوبة – التقوى – الصلاة – الموت – النار – أهوال القيامة – وفاة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) -) وغض الطرف عن أمور في غاية الأهمية، وتعد من صلب شعب الإسلام مثل أدب الحوار، المشكلات الاجتماعية، ووسائل حلها في ضوء الإسلام، خطورة التكفير، أثر الإيمان على السلوك، الحرية وضوابطها، حرمة المال العام، الرشوة، وأثرها على المجتمع.. وغيرها كثير.

١٣- الفتور وضعف الهمة، فقد نسي هؤلاء أن مهمتهم التذكير، والتبليغ، قال تعالى: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾[٢] ، وعلى الداعية أن يتذكر دوما أنه يعمل لله، وأن أجره وجزاءه منه سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٤]

فالداعية: مطالب بالدعوة، والبيان، ببذر الحَب، وانتظار الهداية والرزق من الرب.

١٤- حصر الدعوة بالمساجد فقط، مع أن أماكن العمل، والنوادي، والمدارس وغيرها أماكن للدعوة، بل والشارع والبيئة كلها أماكن للدعوة، ولا يظنَّ أحدٌ أن الدعوة تعني خطبا عصماء فقط، الدعوة تكون بالكلمة، بحسن الخلق، بالنصيحة، بالتذكير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل هذا بالحكمة

(١) الغاشية: ٢١-٢٢.

(٢) الذاريات: ٥٥.

(٣) الكهف: ٣٠.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

والموعظة الحسنة.

١٥- فقدان أو ضعف القدرات، والمهارات الخطابية، كالقدرة على الإقناع والقدرة على جذب الانتباه، والتأثير وإثارة المشاعر.

وعلاج هذه المشكلة: يكون بدراسة فنون التدريس، وفن الوعظ، والخطابة مع الاستماع للبارعين في هذا الفن، دون تقمص لشخصياتهم.

١٦- قصر الخطاب الدعوي في كثير من الأحيان على الشباب المستقيم القريب من الدعاة، والمتمسك بدينه بطبعه، وإغفال البقية ممن هم أحوج إلى ذلك الخطاب، مما يزيد المتمسك تمسكا، والمهمل إهمالا وبعدا، والداعية مطالب بدعوة الجميع.

١٧- الاختلاف الكثير بين الدعاة في كثير من القضايا والأحكام بشكل يثير الاضطراب والارتباك لدى الجمهور، مما يؤدي إلى شبه فوضى فكرية، وفقهية، وهذا بلا شك يؤدي إلى نتائج سيئة، تبدأ بتأخر القناعات، وتنتهي بتخلف الاستجابة.

وإن كان الخلاف لا مفر منه في جانب من جوانبه، فيمكن أن نختلف دون أن ننتقص من مخالفينا، ودون أن ندعي العصمة لرأينا ما دامت المسألة خلافية مَرَدُ الحكم فيها للاجتهاد والرأي ، والرأي يخطيء ويصيب. ومن أقوال الإمام الشافعي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غير خطأ يحتمل الصواب).

١٨- اعتماد الخطاب الدعوي المجرد، دون ربطه بواقع المجتمع، ودون التعرض لمشكلاته، ومتطلباته، مما جعل الخطب، والدروس المعزولة عن الواقع المعاش كلاماً ثقيلاً، أو ليست مهمة من وجهة نظر بعض المتلقين، إن المجتمع لا يمكن أن يتفاعل مع خطبة الجمعة، أو غيرها من ألوان الخطاب الدعوي حتى يشعر فيها بالطابع العملي التفاعلي، وحتى ترتبط بهمومه وطموحاته، وحتى يكون فيها العلاج لمشكلاته وأزماته، أما أن تظل المواعظ المجردة محلقة في سماء الدعوة فهذا يعني أنها ستظل في عليائها مرفرفة، دون أن تحرك الواقع، أو تؤثر فيه.

١٩- النقل من كتب التراث، وغيرها دون مراعاة حال المخاطبين، وبلا شك أن الثقافة العقلانية المعاصرة لها تأثير كبير على عقول كثير من الناس في هذا الزمان، وهذا يدعونا ألا نستغرق في التفسيرات التي استغرق فيها السابقون، وإنما نأخذ بجانب الأصالة جانب المعاصرة، حتى تستوعب عقول الناس لغة عصرهم، وطرح زمانهم.

(ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وأمكنتهم، وأحوالهم، وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس

كلهم على اختلاف بلادهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل أضر ما يكون على أديان الناس، وأبدانهم والله المستعان)[1].

فإذا تزود الداعية بخير الزاد، وتقوى الله والعلم الواسع، مثَّل نجما يَهْتَدي به الحيارى في ظلمة الفتن وحيرة الفكر، فالدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، وهم على الحق أدلاء، وهم منارات الهدى، ومصابيح الدجى، الذين ينيرون للناس الطريق ليصلوا بهم إلى مدارج التوفيق.

قال ابن القيم[2] واصفا لهم: (فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام؛ فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء؛ بنص الكتاب، قال الله - تعالى -:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[3] ، [4]

ثم إن المجتمع: يدرك أهمية الكلمة الواعية الصادقة، التي تجمع بين بلاغة المنطق وقوة الحجة، وبين رقة الخطاب، وعذوبة الأسلوب، إن الداعي ينثر عبير كلماته، وطيب حججه وعباراته؛ لتخترق حجب القلوب والوجدان، وشاء الله أن تكون روحانية الصلاة، وإيحاءات المكان، وجلال الموقف عوامل مساعدة لإرهاف الإحساس، وتليين الوجدان؛ لاستيعاب مضمون الخطاب.

(١) إعلام الموقعين؛ (٣/ ٦٦)، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩١).

(٢) الإمام المحقّق أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المشهور بـ: ابن قيّم الجوزية صاحب المؤلفات النافعة: إعلام الموقعين، إغاثة اللهفان، زاد المعاد، توفي سنة ٧٥١هـ. ذيل طبقات الحنابلة - عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) -(٢/ ٤٤٧) -تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين -مكتبة العبيكان – الرياض -الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) إعلام الموقعين (٢٥)، ابن القيم الجوزية، الطبعة الأولى، المكتبة التوفيقية، تحقيق: هاني الحاج، القاهرة.

المبحث الثالث: حول تجديد الخطاب الديني

تعالت في العقود الأخيرة أصوات تطالب بتجديد الخطاب الديني، وانقسم المؤيدون، والمعارضون إلى ثلاث فرق؛ فرقة ترفض الدعوة جملة وتفصيلا، وتعد ذلك عدوانا على الدين، وتفريغا له من محتواه، ومحاولة من محاولات الالتفاف لإضعاف تأثير النصوص الدينية، والأحكام الشرعية على الناس، وفرقة ثانية تطالب بالإتيان على كتب التراث، وقطع صلة الحاضر بالماضي بدعوى أن هؤلاء كتبوا لزمانهم، فلنكتب نحن لزماننا، ولنجتهد لزماننا كما اجتهدوا لزمانهم، والتقطوا بعض شوارد من افتراضات الفقهاء، أو الشاذ من الآراء؛ ليبرهنوا على صوابهم، وقوة حجتهم، غاضين الطرف عن روائع ما أنتجته العقلية الفقهية الإسلامية من درر يعتز بها كل مسلم غيور، والفرقة الثالثة وافقت وأسهمت في المطالبة بتجديد الخطاب الديني، ولكن بمعان وضوابط.

فالتجديد: عند هؤلاء- الفرقة الثالثة- يعني جعل القديم جديدا، أي إعادة ورد القديم إلى ما كان عليه أول مرة، فالتجديد يبعث في الذهن تصورا تجتمع فيه ثلاثة معان متصلة:

١ – (أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودا وقائما وللناس به عهد.

٢ – أن ذلك الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديما.

٣ – أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق[١]. ويتبين هنا أن تجديد الدين لا يعني تغييره أو تبديله، وإنما يعني المحافظة عليه ليكون غضا طريا كما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(والشيء إذا مرت عليه أحوال حتى صار قديما فإنما يأتيه التغيير والاختلاف عما كان عليه أول أمره من أحد ثلاثة أوجه:

– إما أن تطمس بعض معالمه حتى لا تتضح لمن ينظر فيها.

– وإما أن يُقتطع منه شيء، فتنقص بذلك مكوناته.

– وإما أن يضاف إليه، ويزاد فيه حتى تختلف صورته.

والتجديد في تلك الأحوال يكون بإظهار ما طمس، وإعادة ما نزع ونقض وإزالة ما أضيف وألحق)[٢]

ويتضح: أن الفرقة الثالثة قد ضبطت عملية التجديد، وأحكمتها، فالتجديد يعني: عودة للمنابع،

---

(١) انظر؛ تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف (١١)، محمد شاكر الشريف، الناشر، مجلة البيان الطبعة الأولى، الرياض سنة ١٤٢٥هـ.

(٢) المرجع السابق صـ١٢

والأصول، ودعوة للثبات على الحق وترك التقليد الفاسد القائم على الاتِّباع والمحاكاة على غير بصيرة، ومن هنا يتبين أن التجديد عملية إصلاحية محافظة، وليس عملية تخريبية منفلتة. وقد بين النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن الدين محفوظ من التغيير والتبديد، حيث قال: (إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[١].

وقد أورد العلماء بيانا وشرحا لمفهوم التجديد، ومن جملة ما قالوا: (المراد من تجديد الدين للأمة: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما...والمجدد للدين لا بد أن يكون عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، قاصدا للسنة قامعا للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه، وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام العلماء فيها غالبا، واندراس السنن، وظهور البدع، فيُحتاج حينئذ إلى تجديد الدين فيأتي الله تعالى من الخلق بعوض من السلف، إما واحدا، أو متعددا.

وقال القارى[٢]، في المرقاة: أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، ويعز أهله، ويقمع البدعة، ويكسر أهلها.

فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالما بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن، ونشرها ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها)[٣]

ولا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، (فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد: أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل فعلى هذا كل من كان متصفا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا)[٤].

وعلى هذا فالتجديد المشروع هو: إعادة الدين إلى النحو الذي كان عليه أهل القرون الثلاثة المفضلة،

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه؛ رقم(٤٢٩١) (٤/ ١٠٩)، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، والطبراني في الأوسط؛ رقم (٦٥٢٧) (٦/ ٣٢٣)،وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٥٩٩)

(٢) علي بن محمد، نور الدين الملاّ الهروي القاري (ت ١٠١٤ه): فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره. ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها. قيل: كان يكتب في كل عام مصحفا وعليه طرر من التفسير فيبعيه فيكفيه قوته من العام إلى العام. وصنف كتبا كثيرة، منها « تفسير القرآن – « ثلاثة مجلدات، و « الأثمار الجنية في أسماء الحنفية « و « الفصول المهمة – الأعلام للزركلي (٥/ ١٢).

(٣) انظر: عون المعبود ج ١١ صـ٢٦٣، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٥).

(٤) فتح الباري؛ (١٣/ ٢٩٥)، ابن حجر، دار المعرفة بيروت، (١٣٧٩ه).

فالمجدد ينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتفلت الفاسقين، كما أن التجديد مطلب شرعي، بنص الحديث السابق.

إن (التجديد مطلوب شرعا، وواقع قدرا، أما وقوعه القدري ففيما أخبر عنه الله - سبحانه وتعالى - من حفظه الدين من التغيير إلى قيام الساعة فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[١]، ففي هذه الآية البشرى ببقاء هذه الأمة ظاهرة على الحق، وعدم هلاكها حتى مع تغلب أعدائها عليها، إذ لابد من بقاء طائفة حتى يظل القرآن عن طريقها محفوظا، وهو ما دل عليه الحديث السابق...

وأما طلبه الشرعي: ففيما جاء من التكليف بالعمل بما فيه، وتبليغه للناس ونشره بينهم، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة الآمرة بالتمسك بالدين، والعمل به قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢] وفي قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٣] ... والآيات في ذلك كثيرة)[٤].

ضوابط مهمة لتجديد الخطاب الديني:

من أهم الأمور التي ينبغي مراعاتها في ذلك أن نحدد من المجدد؟ ومادام التجديد مضافا للدين، فإنه من العبث أن يقوم بالتجديد، أو يدعيه من لا تربطه بالدين إلا علاقة التضاد، أو النقد والتهجم عليه، كما أنه من العبث، وإضاعة الوقت، والجهد أن يقوم بالتجديد ضحل العلم محدود الثقافة الإسلامية، وعلى ذلك يمكننا أن نحدد بعض المواصفات الهامة التي يجب اتصاف المجدد بها، فمن ذلك:

١ - أن يكون من أهل هذا الدين المؤمنين به على النحو الذي جاء به رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

٢ - أن يكون من المتفقهين فيه، المتمسكين به في أقوالهم وأفعالهم، لا يظهر منه تهاون فيه أو خروج عليه، أو تساهل وتفريط فيما دل عليه النص الشرعي.

٣ - أن يكون خبيرا بواقع الأمة، وعارفا بعللها، وأن يكون محيطا بالمشكلات الفكرية التي لها علاقة بأمته، ودينه.

وأرى: أن الأمة لم ولن تعدم قامات علمية جديرة بأداء المهمة بأمانة وإتقان وموازنة تحفظ أصالة التراث، ومتطلبات الحاضر، تصون النصوص، ولا تلوي أعناقها؛ لتفرغها من الأحكام المستنبطة منها.

جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي حول: الخطاب الإسلامي ومميزاته، والتحديات التي

(١) الحجر: ٩.

(٢) الزخرف: ٤٣.

(٣) الأعراف: ٣.

(٤) تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف صـ١٤-١٥ مرجع سابق.

تواجهه ما يلي :

أ- المقصود بالخطاب الإسلامي: طريقة التعبير التي تبين حقائق الإسلام وشرائعه في شتى مجالات الحياة العامة والخاصة.

ب- ما يثار حول هذا الموضوع في الظروف الراهنة؛ يوجب تجلية خصائص الخطاب الإسلامي، ودفع الشبهات عنه؛ لصد الهجمة الجائرة على الإسلام، ومقاومة الحملات الإعلامية التي تعمل على تشويه حقائقه.

ج- لا يجوز أن يؤدي تجديد الخطاب الإسلامي، بدعوي مواكبة المتطلبات والمعطيات العصرية إلى تغيير الثوابت، أو التخلي عن أي مبدأ من مبادئ الإسلام أو الأحكام الشرعية المقررة.[1] .

وأرى: أن تجديد الخطاب الديني لا ينبغي أن يتم في أجواء مشحونة، ولا تحت ضغط إعلامي مكثف، ولا وفق ما يريد العلمانيون وأضرابهم، ولا يتم من قبل من يشعر أنه في موطن المدافع المهتز الثقة بالوحي المنزه المعصوم، وأختم بقول الله- تعالى- الذي يحذر من تلك الدعوات المشبوهة قال سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[2] .

(١) قرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته ال (١٥) سلطنة عُمان، مارس ٢٠٠٦م .

(٢) الإسراء: ٧٣-٧٥.

الفصل الخامس: وسائل التواصل الحديثة

المبحث الأول: مفهوم وسائل التواصل الحديثة

(تعرف وسائل التواصل الاجتماعي بأنها: منظومة من الشبكات الإلكترونية عبر الإنترنت، تتيح للمشترك فيها إنشاء موقع خاص، ومن ثم ربطه من خلال نظام اجتماعي إلكتروني مع أعضاء آخرين لديهم الاهتمامات، والهوايات نفسها)[١].

تلك الشبكات تطورت مع الزمن؛ لتصبح على شكل مواقع كبيرة تضم في محتواها الكثير من الصفحات الشخصية، للمشتركين يتم إنشاؤها بسهولة بدلا من إنشاء موقع متكامل، وتَحَمُّل تكلفته، ثم انتقلت تلك الشبكات لتصبح مواقع مثل موقع فيسبوك، وتويتر وغيرهما.

كما تعد شبكات التواصل (شكلا مبسطا من أشكال التواصل الإنساني؛ لأنها تسمح بالتواصل مع عدد من الناس (أقارب، زملاء، أصدقاء...) عن طريق مواقع، وخدمات إلكترونية توفر سرعة توصيل المعلومات على نطاق واسع، فهي مواقع لا تعطيك معلومات فقط بل تتزامن، وتتفاعل معك أثناء إمدادك بتلك المعلومات من الذين في نطاق شبكتك، وبذلك تكون أسلوبا لتبادل المعلومات بشكل فوري عن طريق شبكة الإنترنت)[٢].

كما تتيح للمشترك إنشاء موقع خاص به فيها، ومن ثم ربطه من خلال نظام اجتماعي إلكتروني مع أعضاء آخرين لديهم نفس الاهتمامات، أو مع أصدقاء بالمراحل التعليمية، أو غير ذلك، وتسمح تلك المواقع لمستخدميها بإنشاء صفحات خاصة بهم يديرونها بحرية، وبرقابة محدودة من قبل الشركة المستضيفة حيث يمكن للمستخدم توضيح أفكاره وآرائه، ونشر الصور، ومقاطع الفيديو، والأفلام وتبادلها، وإضافة وحذف الأصدقاء، والتواصل كتابة ومحادثة في أي وقت، ومن أي مكان تتاح فيه شبكة، وقد برزت أهمية تلك المواقع في نقل أحداث العالم عبر الصوت، والصورة أثناء وقوعها رياضية كانت، أو سياسية، أو غيرها، مما جعلها مصدرا من مصادر التعبير عن الرأي، ونشر الخبر السريع بعيدا عن سيطرة وسائل الإعلام الرسمي والحكومي، وقد تصدرت قائمة تلك المواقع شبكات معروفة مثل موقع فيسبوك، وموقع تويتر، واليوتيوب... وغيرها من المواقع والتطبيقات والمدونات.

---

(١) استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي (٢٣)، زاهر رامي، مجلة التربية عدد ١٥، جامعة عمان الأهلية، عمان ٢٠٠٣.

(٢) انظر؛ ثورة الشبكات الاجتماعية (٢٤)، خالد غسان المقدادي، دار النفائس للنشر عمان، الطبعة الأولى.

ويسجل لهذه الشبكات: كسر احتكار المعلومة، ومن هنا بدأت تتجمع، وتتحاور بعض التكتلات والأفراد داخل هذه الشبكات والتي تحمل أفكارا ورؤى مختلفة، أو متقاربة، أو موحدة أحيانا، ومما زاد تلك الشبكات غنى شعور المستخدمين بشيء من الحرية، والتعبير عن الذات، إضافة إلى شعور المستخدم بانعدام، أو ضعف المراقبة، وهو ما أثر سلبا على القيم بسبب حرية التنقل عبر الصور، ومقاطع الفيديو، والمواقع المختلفة، والتي تحوي أفكارا ونظريات، وعادات ونحلا، وسلوكيات لأمم وشعوب مختلفة تتعارض في كثير منها مع قيم ديننا وأخلاقنا.

المبحث الثاني

سلبيات وسائل التواصل الحديثة

وسائل التواصل، يمكن أن تكون نعمة إذا أحسنا استخدامها، وقَصرنَا ذلك الاستخدام على الأمور الواجبة والمستحبة شرعا، ويمكن أن تكون نقمة إذا ولجنا عبرها إلى ما حرم الله.

والذي يتضح: أنه لا يمكن النظر إلى تأثير وسائل التواصل الاجتماعي باعتبارها نعمة أو نقمة في المجمل، وإنما طريقة استخدامنا هي التي تحدد هذا التأثير سواء كان إيجابيا أو سلبيا، حلالا أو حراما، نافعا أو ضارا.

فهذه الوسائل مثلها مثل الكثير من الوسائل المشتركة التي يمكن الاستفادة منها في الحلال إلى أبعد درجاته، كما يمكن الانغماس بها في الحرام إلى أبعد دركاته؛ فالمسألة تتعلق بالمستخدِم لتلك الوسائل وليس بالمستخدَم.

على الرغم من كثرة فوائد، وإيجابيات، وسائل التواصل، إلا أنها تؤدي إلى أضرار وسلبيات كثيرة؛ بسبب ما تحويه من سموم فكرية، وأخلاقية مع سوء استخدام من بعض المرتادين والمستخدمين لتطبيقاتها؛ ومن أبرز السلبيات:

١- التضليل: ليس كل ما يكتب أو يقال في مواقع التواصل الاجتماعي حقيقة، فقلة هي التي تتميز بالأمانة، البعض يكتب الأكاذيب، والبعض الآخر يروجها من دون تمحيص.

٢- أتاحت مواقع ووسائل التواصل الاجتماعي للكثير من الناس نشر الأفكار والتعليقات التي تنم عن جهل كبير، ويصدقها الكثير من الناس.

٣- تحمل على الكسل، حيث لا يتطلب استخدام تلك الوسائل أي مجهود فيمكن أن تشارك، وتعلق وأنت تحمل هاتفك، أو حاسوبك الصغير وأنت في فراشك.

٤- خطورتها على أفكار وأخلاق الأطفال، حيث يمكنهم التجول بحرية عبر مواقعها، وتطبيقاتها المختلفة، والتي تحوي سموما فكرية، وأخلاقية، وصورا خليعة تدفعهم للوقوع في الرذائل، والمنكرات، وهم ما زالوا صغارا[1].

٥- تدفق المعلومات يقلل الإبداع، ويصيب مركز التفكير بالكسل.

٦- يمثل استخدامها أثناء القيادة أحد أهم أسباب حوادث السير حاليا.

---

(١) انظر؛ سلامة الأطفال على الإنترنت، دراسة وطنية حول تأثير الإنترنت على الأطفال في لبنان (١٤)، د/ ندى عويجان، د/ جاد سعادة، نشر المركز التربوي للبحوث والإنماء لبنان.

٧- ارتكاب الجرائم الإلكترونية، وانتشارها بصورة واسعة باستخدام التقنية الحديثة.

٨- صعوبة الحفاظ على أمن الوثائق، والمعلومات بسبب عمليات الاختراق للحسابات الخاصة.

٩- سهلت عملية انتهاك حقوق النشر، والملكية الفكرية.

١٠- أسهمت في نشر الرذيلة، وتسهيل الوقوع في المحرمات، وتسهيل التواصل بين الجنسين[١].

١١- أتاحت الفرصة؛ لنشر الفضائح، والترويج للإشاعات، وابتزاز الفتيات بالتهديد بنشر مقاطع فاضحة حقيقية، أو مفبركة.

١٢- تتسبب في تدمير القيم، والترويج لعادات، وثقافات دخيلة على مجتمعنا.

١٣- نشر أفكار تدعو للعنف، والتطرف بسبب ضعف المراقبة، وصعوبة الملاحقة.

١٤- طول مدة استخدامها يؤدي إلى العزلة، والاغتراب النفسي، وإضاعة الوقت، وإدمان الاستخدام مما ينتج آثارا ضارة على النوم، والصحة، والعلاقات الاجتماعية[٢]

١٥- تؤدي إلى مشكلات أسرية بسبب إهمال الأسرة، وعدم القيام بالواجبات تجاه الزوجة أو الزوج أو الأولاد.

١٦- تسببت وسائل التواصل في دمار كثير من الأسر بسبب المواقع الإباحية التي أدمنها الزوج، أو الزوجة، أو بسبب سهولة التواصل مع الجنس الآخر مما أحدث شروخا في العلاقة الزوجية، ونفورا، أو ربما فرقة.

وسائل التواصل عالم الملحدين المُفضل:

كما تعد وسائل التواصل الحديثة، وسيلة مثلى؛ لسهولة نشر الفكر الإلحادي بجانب وسائل أخرى، ويحرص الملاحدة على لفت أنظار الناس إليهم، واعتراف الدوائر الرسمية بوجودهم، فيبالغون في زيادة عددهم، ويحرصون على تطوير وتدعيم وسائل نشر باطلهم لا سيما في محيط أبناء المسلمين وذلك لأمور:

أ-(إن الملحد في العالم الإسلامي: يشعر بالغربة فهو يريد أن يَكْثُرَ عددُ الداخلين في هذا الفكر حتى تخف عنه هذه الغربة، وهكذا الشأن في كل ذي أمر قبيح، فإنه يتمنى أن يصير الناس كلهم مثله، حتى يذهب

---

(١) انظر؛ العلاقة العاطفية بين الجنسين باستخدام الوسائل الإلكترونية (١٥١)، زموري زينب وبغدادي خيره، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ج ورقلة الجزائر/ عدد خاص الملتقى الدولي حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري ٢٧-٢٨ فبراير ٢٠١١م.

(٢) أنظر: حلمي خضر ساري، تأثير الاتصال عبر الإنترنت في العلاقات الاجتماعية، مجلة جامعة دمشق مجلد ٢٤ عدد١، ٢٠٠٣م.

عنه بعض ما يجد.

ب- إذا كثر الملاحدة، وعلا صوتهم، أصبحوا قوة مؤثرة في المجتمع، تستطيع أن تؤثر في الواقع بحسب أهوائها، وغالب الملاحدة من ذوي الإلحاد النفعي المادي فلا يرجون إلا الشهوات.

ج- رغبة الملحد أن يطمئن نفسه، فالملحد ذو شخصية قلقة شكاكة – وإن كابر – فإذا رأى الواحد تلو الآخر ينضم إلى فكره الإلحادي سكنت نفسه بعض الشيء[١].

وإزاء تلك الظاهرة – ظاهرة الإلحاد – التي كادت تفسد على بعض المسلمين عقيدتهم وبسبب تنامي المواقع، والصفحات الإلحادية، اعتبرت دار الإفتاء المصرية أن: (الممارسات العنيفة للإرهابيين والتشدد لدى بعض الجماعات الإسلامية سبب انتشار الإلحاد في بعض البلدان العربية.

وقال مرصد الفتاوى التكفيرية التابع لدار الإفتاء في تقرير نشره: (إن ظاهرة الإلحاد من الظواهر المعقدة التي تتداخل فيها العوامل الفكرية، والنفسية والاجتماعية، وتحليلها والبحث في أسبابها يحتاج إلى جهد كبير، وبحث دقيق من اختصاصيين في الفكر، والدين، والفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع). وأوضح المرصد أن (مواقع التواصل الاجتماعي، وفرت لهؤلاء الشباب المغرر بهم مساحات كبيرة من الحرية أكثر أمانا للتعبير عن آرائهم، ووجهة نظرهم في رفض الدين، بعيدا عن التابوهات التي تخلقها الأعراف الدينية والاجتماعية...)[٢]

و عليه: لابد من مواجهة الترويج للفكر الإلحادي عبر وسائل التواصل الحديثة، ولا ينبغي التقليل من حجم الظاهرة، والاستهانة بأمر مواجهتها وسرعة علاج آثارها بعمل مؤسسي ممنهج بعيدٍ عن الشعارات التي تحدث ضجيجا دون أن تعطي نتائج، ولا يُترك أمر المواجهة للمجهودات الفردية الحماسية التي تُصلح حينا، وتفسد أحيانا، والتي تعالج جانبا، وتهمل جوانب أخرى.

كما أن الملحدين – اليوم – قد أطلوا برؤسهم، وأفرغوا سموم فكرهم، وأمراض صدورهم، وتفننوا في عرض شبههم واستمالة غيرهم بشتى وسائل الخداع والتغرير. فالأمر لا يعالج بخطط بدائية، ولا بطرح سطحي، ولا بعمل فردي، وإنما يحتاج إلى عمل مؤسسي يجمع صفوة الغيورين من المتخصصين، وأنبغ الشباب البارعين في استخدام تلك الوسائل، ولديهم حصانة إيمانية وثقافة إسلامية وغيرة دينية، حيث إن مواقع، ومنتديات الملحدين تشهد نقاشات حادة لا تقف عند سقف معين، فالتعامل معها يحتاج إلى درجة عالية من الحرفية، والذكاء، والوعي العلمي، والثقافي والنفسي، والاجتماعي، والخبرة السابقة بمعرفة

---

(١) انظر؛ الإلحاد: وسائله، خطره، سبل مواجهته صـ٥٨، د/ صالح بن عبدالعزيز بن عثمان سندي، دار اللؤلؤة للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٣

(٢) انظر: اليوم السابع، وصدى البلد، والبوابة نيوز عدد ١٠/ ١٢/ ٢٠١٤م.

ما يلوكه هؤلاء من أراجيف، وشبهات ممجوجة بُحِثَت مرارا وتكرارا من قبل علمائنا قديما وحديثا، ولكنهم ألبسوها ثوب العصر؛ لتبدو جديدة، وما هي بجديدة، وحتى تأتي النقاشات بثمارها لابد من مقابلة الحجة بالحجة، والفكرة بالفكرة، حتى تتهاوى شبه الملحدين على رؤوسهم، وحتى لا ينخدع بضلالهم غيرهم من أبناء وبنات المسلمين. مع ملاحظة: تعدد أسباب الإلحاد ودوافعه، فمن الملحدين الناقم على الخطاب الدعوي التقليدي، أو الناقم على بعض الشعائر الدينية، ومنهم المؤمن بالله المنكر للرسالات، ومنهم ضحل العلم والثقافة، والذي دخل عالم الإلحاد تقليدا، أو موضة، أو رغبة في شهوة، ومنهم من لجأ لتلك الفكرة هروبا من مشكلات نفسية، أو اجتماعية، أو مالية، أو حتى أمنية، ومنهم الملحد المنكر لوجود الله، والداعي للإلحاد، والطاعن في الأديان، ولذلك لابد من مراعاة تلك الفروق والأسباب عند التعامل المباشر، وعند الرد والمناقشة، فالمرض واحد والأسباب مختلفة، والأمر يحتاج إلى تشخيص دقيق، وعلاج يوافق العلة؛ ليتم تهميشها، والسيطرة عليها، أما تركها، فيمثل شررا ربما أشعل حرائق...، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

المبحث الثالث:
مكانة الكتب السماوية من الوجهة الإسلامية

١- كل مسلم مطالب بالتصديق الجازم، والإيمان الكامل بكل الكتب السماوية التي جاءت النصوص بذكرها، وبالتأكيد على الإيمان بها، وأنها كلام الله أنزله تأييدا لأنبيائه، ورسله، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[٤] ، فأخبر سبحانه أنه أنزل التوراة، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم، والزبور الذي آتاه الله داوود (عليه السلام). والكتب التي يؤمن بها المسلم هي الكتب التي أنزلها الله على موسى، وعيسى وإبراهيم، وداوود، والتي لم تصل إليها يد التحريف، والتغيير.

٢- يؤمن، ويعتقد كل مسلم أن الكتب السماوية كلها دعت إلى عبادة الله وحده، وأنها نزلت بالهدى، والنور، والنفع، والصلاح؛ للبشر في دنياهم، وأخراهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٥] .

٣- يعتقد كل مسلم أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم المصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا على كل الكتب، وأنه المعجزة الكبرى الخالدة لرسول الله محمد (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٦]، وأن القرآن محفوظ من التحريف، والتبديل الذي طال غيره من الكتب، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٧] .

-(وتعاليم القرآن هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشر، أراد الله لها أن تبقى على الدهر وتخلد على الزمن،

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) الأعلى: ١٨- ١٩.

(٣) آل عمران: ٢- ٤.

(٤) النساء: ١٦٣.

(٥) المائدة: ٤٤.

(٦) المائدة: ٤٨.

(٧) الحجر: ٩.

فصانها من أن تمتد إليها يد التحريف، أو التصحيف، أو التغيير، أو التبديل)[١]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

ومن أهمية الإيمان بالكتب السماوية السابقة:

١- الإيمان بها ركن من أركان الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٣].

٢- الإيمان بالكتب السابقة هو: الصفة اللائقة بالأمة المسلمة وارثة العقائد السماوية ووارثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة والمحافظة على تراث العقائد، وتراث النبوة، ورائدة موكب الإيمان على الأرض إلى آخر الزمان.

٣- الإيمان بالكتب السابقة: ينقي روح المؤمن من التعصب الذميم ضد الديانات، وضد المؤمنين بالديانات، ما داموا على الطريق الصحيح.

٤- الإيمان بالكتب السابقة يؤكد للناس أن دين الله واحد وأن الإسلام جامع لكل الديانات السماوية.

٥- (الإيمان بالكتب جزء من الإيمان بالقرآن، وجزء من الإيمان بأن الله هو الهادي وأن هداية الله لم تنقطع عن البشر، فما من أمة إلا وقد أنزل الله لها هدى)[٤].قال تعالى﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا﴾[٥].

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق، (ص: ١٦٠).

(٢) فصلت: ٤١- ٤٢.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

(٤) كتاب التوحيد، د/ الزنداني، (٢، ١٠- ١١).

(٥) فاطر: ٢٤.

الفصل الرابع: إنكار الملحدين بعثة الرسل والرد عليهم

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول تصوير الشبهات وتفنيدها

أولاً: تصوير الشبهات:

أشرت من قبل إلى أن الملحدين يرفضون كل ما يمت للسماء بصلة؛ وما داموا ينكرون وجود الله أصالة، فهم ينكرون كل ما جاء منه - سبحانه - تبعا، بل ويطعنون فيه، ويحاولون تشويهه ووصمه بالخرافات والأساطير. ولقد نال رسل الله (عليهم السلام) من الافتراء، والبهتان والإفك ما لا يمكن تصور صدوره إلا من معتوه فاقد العقل والوعي.

ولقد طفحت مواقع الملحدين العرب - خاصة - بقذف الأنبياء بتهم وافتراءات يعف القلم عن سطرها، ونال حبيبنا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) القدر الأكبر من إفكهم وبهتانهم عبر مواقعهم ومواقع المنصرين والحاقدين على الإسلام، وأشير باختصار لبعض طعناتهم ومزاعمهم، ثم أرد على بعض ما نال حبيبنا محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومنها:

- قولهم: لا وجود للأنبياء فهم مجرد خرافات، وأساطير تناقلها الناس عبر الزمان، ولم تُثبت الآثار والحفريات وجود واحد منهم، لا عيسى، ولا موسى، ولا غيرهما.

-النبي محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان مصابا بالهلاوس، والفصام، والصرع، والأمراض النفسية المختلفة، وتحت تأثيرها يزعم أن وحيا يتنزل عليه، ويزعمون أن الذي جاء به نتيجة للمرض النفسي والهلاوس التي تعتريه.

-إن محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان رجلا شهوانيا محبا للنساء، فقد تزوج بعائشة، وهي لم تتجاوز السادسة من عمرها، وهي لاتعي شيئـًا عن أمر الزواج.

-إن محمدا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان ملحدا، أو لا أدريا ثم مسيحيا ثم ادعى ما ادعاه[1].

ثانيـًا: تفنيد الشبهات وإبطالها

سأقتصر في الرد على شبهتين فقط تخصان نبينا محمدا ((صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهما:

---

(١) انظر: الأنبياء وهم أم حقيقة، الملحد: جهاد علاونة، موقع الحوار المتمدن، العدد ٣٥٠٣، ١/ ١٠/ ٢٠١١م، وانظر: الأنبياء بين الرواية الدينية وعلم الآثار، الملحد: شامل عبد العزيز، موقع مصر المدنية، وانظر: محمد النبي الملحد، الملحدة: جميلة جمال، موقع الحوار المتمدن، العدد: ٣٧٦٨، ٢٤/ ٦/ ٢٠١٢م.

الأولى: زعمهم أن رسول الله كان مصاباً بالصرع.والثانية: طعنهم في زواجه من السيدة عائشة وهي صغيرة(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

وسوف يكون الرد على الشبهة الأولى بالأدلة العقلية، ثم بأقوال المنصفين من العلماء غير المسلمين، ثم بأقوال العلماء المسلمين في ضوء آيات القرآن الكريم، والرد على الشبهة الثانية: من خلال عشر نقاط، تحوي أدلة عقلية منطقية، وتاريخية.

تفنيد الشبهة الأولى

أولاً: الرد العقلي:

أ- لو كان الذي جاء به رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نتيجة صرع، أو مرض نفسي؛ لوجد كفار قريش في ذلك فرصة سانحة للطعن عليه، فالصرع كان معروفا بأوصافه عند العرب، وكانوا يميِّزُون المصروعين من غيرهم[1] فلو أنهم رأوا آثار وأعراض الصرع على النبي - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) - لكانوا أول المشهِّرين والقائلين به، لكنَّ ذلك لم يحدث، ولم ينقل عنهم مع تربصهم به، وكثرة افتراءاتهم كذبا عليه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وبما أن المعايشين، والمخالطين له (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من المحبين والمبغضين لم يقل واحدٌ منهم ذلك، فقد بان بهتانه وظهر كذبه وبطلانه .

والحق الذي لا ريب فيه: أنه لا نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ولا أحد من إخوانه المرسلين - عليهم السلام- أصيب بصرع، ولا غيره من تلك الأمراض المنفِّرة ، وذلك لعصمة وحفظ ربهم لهم.

ب- الفرق بين الوحي وأعراض الصرع؛ فالنبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانت تعتريه بعض الأحوال عند نزول الوحي عليه، كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة[2]، منها: أنه كان يصيبه عرق شديد حتى في الليلة الباردة،

---

(١) بدليل حديث أم زفر وفيه أنها أتت النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وقالت له: (إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» قالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها)،أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، كتاب: المرضى، باب: فضل من يصرع من الريح .

(٢) فقد وصف الصحابة حال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند نزول الوحي في عدة أحاديث وذكروا عدة ملاحظات لاحظوها على النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند نزول الوحي عليه، منها:

١- أن جبينه وجبهته تفيضان بالعَرَق حتى في اليوم الشديد البرد:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا) أخرجه البخاري (٢)، (كتاب الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

٢- يثقل وزنه جدا:

عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، أنها قالت: (إن كان ليوحى إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٩١٢)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط حديث صحيح.

وعن زيد بن ثابت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ((أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النساء: ٩٥

وتغشاه السكينة، ويسمع له أطيط، فإذا سُرِّي عنه أخبر بما أوحي إليه، ويثقل وزنه، ويسمع صوت أزيز منه بجوار أذنه، ثم ينفصل عنه وقد وعى ما أوحي إليه، وكل ما كان يصيبه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند نزول الوحي كان بسبب ثقل الوحي، والذي أخبره الله تعالى به، قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[1] .

ومن ثم فالأحوال المنقولة عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) التي كانت تصاحبه عند نزول الوحي سببها؛ ثقل الوحي الذي يتلقاه - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) -، وهي على خلاف ما نعرفه من أحوال المصروعين. وهناك فرق واضح بين صور الوحي الذي كان يتلقاه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وبين أعراض مرض الصرع الذي زعمه وافتراه المبطلون والملحدون.

والصرع هو: (اضطراب وجداني موسمي)[2] وهو ليس نوعا واحدا، بل هو أنواع فمنه الأصغر، ومنه الأكبر:

فمن أعراض الأصغر: السرحان، وفقدان الذاكرة، وفقدان القدرة على الكلام، أو الكلام غير المفهوم، وتوقف الجسم عن أي حركة.

ومن أعراض الصرع الأكبر: تصلب الجسم، واهتزاز متكرر في الجسم كله، واحتقان في الوجه، ولعاب كثيف في الفم، وعض اللسان [3].

فهل يمكن لرجل يعاني من كل هذا أن يؤسس أمة ؟!، وهل يمكن لمن كان عاجزا عن الكلام، أو كلامه غير مفهوم، أن يترك من التعاليم، والتشريعات، ما لم تزده الأيام إلا ثباتا، وتألقا وإعجازا؟

ج- من المعلوم أن المصروع لا يذكر ما حدث له أثناء صرعه، ويحتاج إلى فترة راحة لشدة ما عاناه من تعب النوبة، كما أنه يصرخ، ويهذي بكلام لا معنى له أثناء صرعه، أما النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فكان يأتي

﴿ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٩٥ «، قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان رجلا أعمى- فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ (النساء: ٩٥) أخرجه البخاري (٢٨٣٢)، (كتاب: الجهاد والسير، باب: باب قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ (النساء: ٩٥) إلى قوله﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

٣- كانوا يسمعون عند وجهه دويّا كدويّ النحل: قال عمر بن الخطاب - (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) - (كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل) أخرجه الترمذي (٣١٧٣)، (أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون).

(١) المزمل: ٥.

(٢) معجم مصطلحات الطب النفسي، د لطفي السيد، ص ١٦٢، مركز تعريب العلوم الصحية الكويت.

(٣) انظر:داء الصرع، د/ ماثيو والكر ود/ سيمون سيرفون، ترجمة / هنادي مزبودي، ص ٨ -١٢ ، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم ، ١٤٣٤ه. وانظر:النبي المعصوم (٢٩٩- ٣٠٠)، د/ نور لدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠١٥م ، الجزائر.

بأجل الحكم، والأحكام، والمواعظ الحسنة، فأين هذا من ذاك؟، كما أن المصروع لا ينقدح في ذهنه فكر منظم ولا كلام مفهوم، بخلاف حاله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كما جاء في السنة الصحيحة قوله عن الوحي: (يفصم عني وقد وعيت عنه)[١].

د- (إن المصابين باعتلال الأعصاب لا يتنبأون فتصدق نبوءاتهم، ولا يتصدون للخرافات هدما، ولا يصححون الانحرافات التي وقع فيها أصحاب الديانات السابقة فيردونهم إلى الصواب، ويقولون لهم: إنّ الله واحد لا اثنان ولا ثلاثة، وإنه رب العالمين، لا رب هذه الأمة وحدها، وإنه صاحب السلطان المطلق، والقدرة اللامحدودة، وإن البشر جميعا سواسية أمام عدله الذي لا يحده حد، و إن الحياة ليست عبثا لا طائل تحتها، بل هي ممتدة إلى ما بعد الموت، حيث الحساب الدقيق..أمن الممكن أن يكون هذا كله نتاج اعتلال عصبي وعقل مضطرب ونفس مكتئبة؟!) [٢].

فبان بطلان الشبهة واستحالة تصديقها من قبل العقلاء، والأطباء، والواقع.

ثانيـًا: رد العلماء المنصفين من غير المسلمين:

كثير من المستشرقين الذين درسوا سيرة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) دراسة واعية، أو أقاموا في بلاد المسلمين واطلعوا على نظام حياتهم، خرجوا بانطباعات إيجابية عن الإسلام ورسوله، حتى ولو ظلوا على ما هم عليه من ديانة، وكثير منهم انبرى لدحض وإبطال شبهات روَّجَ لها مغرضون، والتقطها ملحدون، وهذه بعض أقوالهم المنصفة:

يقـول المستشـرق (بودلـي): مفندا شبهة إصابة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالصرع قائلا: (لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد، حتى قبل وفاته بأسبوع واحد، ولو كان ممن تنتابه حالات الصرع لاعتبر مجنونا، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد)[٣]

ويقول المستشرق الطبيب (ماكس مايرهوف): ردا على من نسب هذا المرض لمحمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلا مصابا بمرض عصبي، أو بداء الصرع، ولكنّ تاريخ حياته من أوله إلى آخره، ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول)[٤]

ويرد د « ميلر» على بعض الموسوعات والكتب التي تذكر أن القرآن الكريم نتاج هلوسة كانت تمر

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.(١/ ٦) - حديث رقم(٣).

(٢) مصدر القرآن (٢٠٦)، د/ إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٣) النبي المعصوم (٢٩٨).

(٤) المرجع السابق (٢٩٧).

بالنبى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (لو كانت هذه الفرضية صحيحة بأن هناك مشاكل نفسية كان الرسول يمر بها، لظهر ذلك جليا فى نص القرآن الكريم ذاته، هل يوجد فى القرآن الكريم ما يدعم هذه النظرية ؟ للإلجابة على هذا السؤال إيجابا أو سلبا، فلينظر المرء إلى ما هى هذه الأشياء التى كان يعايشها رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وكان لها انعكاس على نصوص القرآن ؟) [١].

ويقـول: (ول ديورانـت): (وليس في تاريخ محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء، وقدرة على التفكير، وثقة بالنفس، وقوة بالجسم والروح، والزعامة، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر.

وقصارى القول: أننا لا نجد دليلا قاطعا على أن ما كان يحدث للنبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان من قبيل الصرع)[٢].

والخلاصـة: إن حقيقة الوحي وثقله عند نزوله، وما يعانيه الأنبياء، أمر لا يعرفه إلا من أُنْزِل عليهم الوحي، وهم الأنبياء عليهم السلام، ثم إن أحدا من العقلاء لن يقبل فكرة أن هذا الرجل الذي أنشأ أمة من العدم والشتات، قادت حضارة إنسانية مثلت إعجازا تشريعيا، وقيميا وإنسانيا مؤسسا على الوحي الذي تنزل على نبيهم محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولن يصدق أحد لديه أدنى بديهيات الفهم والوعي، أن الوحي كان الذي كان يوحى إليه به نتيجة الصرع والهلاوس.

ثم إن كثيرا من المعادين للإسلام، احترموا عقولهم، وحتى لا يكونوا أضحوكة أحجموا عن ذكر تلك الشبهة لتناقضها التام مع الواقع البياني والتشريعي والأخلاقي الذي اشتمل عليه الوحي الذي أُنْزل على نبينا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهكذا تأكدت براءة شخص حبيبنا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مما يقوله الملحدون، وأن ما قالوه ما هو إلا رجع صدى لما قيل للأنبياء من قبل.

ثالثـًا: رد علماء الإسلام:

إن مزاعم الكذبة المفترين على ديننا ونبينا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لا تنتهي، فمنذ أن بُعث (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلا وانهالت عليه الافتراءات، والأكاذيب، كقولهم: ساحر، أو كاهن، أو مجنون، وليس هذا بجديد؛ فقد نال إخوانَه المرسلين من قبل مثلُ هذا، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[٣] ، (وهذا العموم يفيد أنه لم يخل قوم من الأقوام المذكورين إلا قالوا لرسولهم أحد القولين)[٤].

(١) القرآن المذهل، د/ جاري ميلر/ ص ١٢ ، مرجع سابق.

(٢) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي (٤٧)، د/ عز الدين فراج، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، نقلا عن كتاب: قصة الحضارة، ول ديورانت.

(٣) الذاريات: ٥٢.

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١).

(وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾[١] فالتهمة متوارثة، اتُهم بها المرسلون السابقون، وبما أن الرسالات ختمت بـ - محمد - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) - فسيظل المشككون والملحدون يلقون بنقائص عقولهم، وأمراض قلوبهم عليه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾[٢].

(وقيل: إنما قيل: إنما أعظكم بواحدة، وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى. (مَثْنَى) يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة: هل علمتم بمحمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) جنونًا قطُّ؟ ثم ينفرد كل واحد منكم، فيتفكر: هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذٍ أنه نذير لكم)[٣].

(فإذا قمتم لله، مثنى وفرادى، واستعملتم فكركم، وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ليس بمجنون؛ لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدبا، وسكينة، وتواضعا، ووقارا، ولا يكون هذا إلا لأرْزَن الرجال عقلا ..

فكل من تدبر أحواله ومقْصِدُهُ استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقا، ونبيه صدقا، خصوصا المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره)[٤].

وتلك المقولة المفتراة التي أطلقها المشركون قديما، والمغرضون حديثا، عند رد القرآن عليها اكتفى بمجرد نفي الجنون عنه دون استدلال عليه؛ لأن مجرد التأمل في حال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كاف في تحقق انتفاء ذلك الوصف عنه، فلا يحتاج في إبطال اتصافه به أكثر من الإخبار بنفيه؛ لأن دليله المشاهدة، وهو دليل كالشمس في رابعة النهار:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٥).

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ٤١٨).

(٤) تفسير السعدي (٦٨٢).

وهذه بعض نماذج قرآنية لنفي الجنون:

قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[٣] ، ثم إن سبب اتهامه بالجنون؛ أنه أتى بخلاف ما هم عليه، ثم عجزوا عن وجود نقيصة، فرموه بالأسهل وهو الجنون كدأب السابقين.

تفنيد الشبهة الثانية:

طعنهم في زواجه – (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)- من السيدة عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)وهي صغيرة:

هذه الشبهة حديثة نسبيا، فرغم عداء المشركين، وأهل الكتاب لرسول الله - (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) - زمن نزول الوحي وبعد وفاته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لم يثرها أحدٌ أبدا، أو يطعن في زواجه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من السيدة عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -حسب علمي- ثم بعد ذلك جاء ما يسمى بعصر النهضة بمفاهيمه الحديثة وثقافته، فكان الطعن في رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من قبل النصارى -خاصة- في تعدد الزوجات؛ وذلك لحاجة في نفوسهم منها تنفير أتباعهم من الإسلام، وتصوير نبي الإسلام بتلك الصورة المُشَوَّهة حتى يَفتقد دور القدوة والمثل، ثم جاء الملحدون حديثا؛ ليرددوا نفس الاسطوانة المشروخة المجروحة، والتي أشبعها العلماء إبطالا وردا، وظهر زيفها وبهتانها.

وسوف يشتمل الرد والإبطال على النقاط العشر الآتية:

١- لم يكن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أول الخاطبين لعائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- بل كانت مخطوبة لجبير بن مطعم، مما يدل على اكتمال النضج والأنوثة عندها أو ظهور علاماتها، وشيوع أمر الاقتران بمن بلغت أو ناهزت البلوغ.

٢- (الثابت في السيرة المطهرة أن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تزوج في الخامسة والعشرين من عمره من السيدة خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وهي في سن الأربعين من عمرها، وعاش معها دون أن يعدد أزواجا حتى توفيت، وهو عليه الصلاة والسلام، قد تجاوز الخمسين من عمره، ولم يثبت أن أحدا من خصومه خلال هذين العقدين والنصف جرؤ على أن ينسب إليه دنسا، أو يتهمه بريبة بل كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو في هذه الحقبة الرحبة من عمر الإنسان يتألق جبينه برونق العفاف والشرف حيث سار، ولو أراد الزواج بأكثر من واحدة آنذاك ما عاب عليه أحد؛ حيث كان ذلك مألوفا ولكنه لم يفعل، وبعد وفاة خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أراد أن يتزوج فلم يبحث عن جمال أو مال، بل أراد أن يقوي صلته بأصحابه كأبي بكر وعمر فاختار عائشة

---

(١) القلم: ٢.

(٢) التكوير: ٢٢.

(٣) الطور: ٢٩.

-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- على صغر سنها، وحفصة بنت عمر على قلة حسنها...)[١].

وحول شهوانية الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول توماس كارليل: (وما كان محمد أخا شهوات على الرغم مما اتُّهم به ظلما وعدوانا، وأشد ما نجور ونخطئ، إذا حسبناه رجلا شهوانيا، لا همَّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت، لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه، ومشربه، وملبسه، وسائر أموره وأحواله)[٢].

(فلو كان المراد من الزواج الجري وراء الشهوة، أو السير مع الهوى، أو الاستمتاع بالنساء لتزوج في سن الشباب لا في سن الشيخوخة، ولتزوج الأبكار الشابات لا الأرامل المسنات)[٣].

٣- إن الأبوين أحرص الناس على مصلحة أبنائهما وسعادتهم، وهذا باتفاق العقلاء، فلو لم يكن في زواج عائشة من رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مصلحة وسعادة، لكان الصديق وزوجه أول الرافضين، ولم يثبت ولو من طريق ضعيف أدنى غضاضة في ذلك الزواج المبارك، بل كانت سعادة أبي بكر بتلك المصاهرة كبيرة، ولذلك أولى بغير الوالدين أن يسكتوا. ثم ألم تكن قريش أولى بالطعن على رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا كان ما فعله بالزواج من عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مستهجنا في ذلك الوقت، وهم الذين يعادونه ويسعون للقضاء عليه؟.

(ولم تُدهش مكة حين أُعلن نبأُ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما نستقبل أمرا طبيعيا مألوفا متوقعا، ولم يجد فيها أي رجل من أعداء الإسلام موضعا لمقال، بل لم يفكر رجل واحد من خصومه الألداء أن يتخذ من زواج محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مطعنا، أو منفذا للتجريم والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه)[٤].

٤- لم تذكر كتب السير، والتراجم على كثرتها ما يشي بكره السيدة عائشة لذلك الزواج أو أنها رغبت يوما في الطلاق، أو أن زواجها بمن يسبقها بأربعة عقود أثَّر على نفسيتها، بل الثابت من جميع تصرفاتها في بيت النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حسب عموم الروايات التي وردت - أنها كانت زوجة سعيدة ناضجة تمام النضج، وليست صغيرة لا تدرك في أي بيت تعيش، ولا بمن تزوجت؟، ومهما يكن من أمر فإنها سعيدة أشد سعادة بزواجها من النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وترى أنه فخر لها، كما أنها تحب النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حبا

---

(١) صور من افتراءات المستشرقين حول الإسلام، د/ بهجة كامل عبداللطيف، (ص: ٧٣٨)، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد ٢٠٠٩م.

(٢) السابق: (ص: ٧٤٤).

(٣) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، محمد علي الصابوني، (ص: ١١)، طبعة مجانية.

(٤) سيدات بيت النبوة، د/ عائشة عبدالرحمن، (ص: ٢٥٦)، ط١، ١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة.

شديدا، وتغار علية بقوة، وكان يسرها أن تسمع صوته وتصغي إلى حديثه، وحينما عرض عليها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) البقاء معه على الوضع المتقشف الذي كان عليه بيته، أو تسريحها إلى بيت أبويها، وطلب منها أن تشاور أبويها في ذلك، رفضت ذلك من فورها ورضيت أن تكون زوجة لرسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع الزهد والتقشف، وتصور هذا آية (التخيير) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

(هذا أمر من الله لرسوله – صلوات الله وسلامه عليه –، بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن اللهَ ورسولَه والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة)[2]. فاجتمع بذلك رضا أبويها، ورضاها، وسعادتها؛ فدل كل هذا على عكس ما يروجه المرجفون والملحدون.

٥- كان زواج النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، بعائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وهي بنت ست، أو سبع سنوات ودخل بها، وهي بنت تسع سنوات، فعن الأسود عن عائشة قالت: «تزوجها رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة»[3].

وانتظر رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثلاث سنوات كاملة ليدخل بها، فلم يدخل بها وهي غير قادرة أو مؤهلة لذلك، ثم إنها كانت تعلم أنها مسماة لرسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وتعي مفهوم الزواج يقينا.

يقول بودلي: (فلو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه، لكانت عائشة بنت أبي بكر، فلقد تكونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه بيت النبي، وراحت تديره)[4]. ثم ما السر في انتظاره (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تلك المدة؟ أليس انتظار اكتمال نضجها وبلوغها؟

ثم إن زواج رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من فتاة صغيرة لم يكن بدعا في ذلك العصر، ولا في العصور التالية له، خاصة في البلاد التي تقوم على النظام القبلي، ولا أدل على ذلك من زواج «عبدالمطلب» الشيخ الكبير في السن من «هالة» بنت عمّ «آمنة» في اليوم الذي تزوج فيه «عبدالله» أصغر أبنائه من صبية هي في سن «هالة»

(١) الأحزاب: ٢٨- ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦/ ٤٠١)، دار طيبة للنشر والتوزيع.

(٣) أخرجه الإمام البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة، وقدومها المدينة، وبنائه بها، ح. رقم (٣٨٩٦). مسلم، واللفظ له، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة، ح. رقم (١٤٢٢).

(٤) الرسول، حياة محمد، ر.ف بودلي، (ص: ١٤٢). ترجمة محمد محمد فرج، عبدالحميد جودة السحار، الناشر مكتبة مصر، القاهرة.

وهي آمنة بنت وهب.[١].

٦- من التجني في الأحكام أن يوزن الحدث منفصلا عن زمانه ومكانه وبيئته، فكيف يحاكمونه بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام من ذلك الزواج، فيهدرون فروق العصر والإقليم ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه الجمع بين الطفولة والكهولة، ويقيسون بهواهم زواجا عقد في مكة قبل الهجرة بما يحدث اليوم في بلاد الغرب حيث لا تتزوج الفتاة إلا بعد الخامسة والعشرين، وفي الوقت نفسه تمارس الجنس، وهي دون سن العاشرة، وكما يقول د/ بودلي: (فإن محمدا كان يتبع عادة فقط، ولا يمكن الحكم على دولة، أو منطقة بدولة أخرى، أو منطقة أخرى...، وهذا يتعلق بعادات الأسرة التي سادت كل شيء في حياته. ومن سوء حظ كثير من كتاب سيرة محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنهم يصدرون أحكامهم دون تردد، ودون تقدير للظروف المشتركة فأغلبهم لا يعرفون شيئا عن العرب)[٢].

وقال أيضا: (وشغلت مسألة زواج الرجل الذي في سن الخمسين، من الفتاة التي كانت في العاشرة بعض مؤرخي محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع، وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذي يعيشون فيه، فلم ينظروا إلى هذا الزواج على أنه كان ولازال عادة آسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادة لازالت في شرق أوروبا وكانت طبيعية في أسبانيا، والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية البعيدة في الولايات المتحدة)[٣].

٧- وعلى الرغم من فارق السن كان الحب متبادلا بينها وبين رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[٤].

وعن عمرو بن العاص أنه قال: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». قال: من الرجال؟ قال: «أبوها»[٥]. ولقد عاشت -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أهنأ وأسعد حياة بجوار أكمل البشر خلقا، وأحسنهم خلقا، وألينهم قلبا، وألطفهم عشرة، وأعذبهم حديثا، صلوات ربي وسلامه عليه.

٨- لقد تجاهل هؤلاء الملحدون وغيرهم، مثل ذلك الزواج وكونه أمرا طبيعيا في تلك الحقبة الزمنية ولا يستوجب النقد، والظاهر أن هؤلاء لم يهتموا بنقد ظاهرة الزواج المبكر لفتيات في التاسعة برجال

---

(١) انظر: البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، ج ٢ ص٣٠٩ ط١،دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٩٨٨م

(٢) الرسول، حياة محمد، ر. ف بودلي : (ص: ٣٤٠).

(٣) السابق: (ص: ١٤١).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ح. رقم (٣٤١١). والإمام مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، ح. رقم (٢٤٣١).

(٥) رواه الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب من فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ح. رقم (٣٨٨٦). بسند حسن صحيح.

تجاوزوا الخمسين بقدر اهتمامهم بنقد نبي الإسلام، والتحريض ضده وتشويه صورته، مما يقلل من مصداقيتهم، وينسف تشدقهم بالإنسانية وحقوق الإنسان.

ثم ندع الأمر لذوي الشأن أولًا، والذين كساهم جميعا الرضا والفرح، ثم لذوي الاختصاص من الأطباء، والذين خلصوا إلى أن بلوغ الفتاة، وصلاحيتها للزواج لا يرتبط بسن محددة وإنما يتوقف على نموها وخصوبة بدنها، كما يرتبط أيضا بعوامل مناخية، وبيئية تؤثر على التبكير، أو التأخير لسن البلوغ[١].

٩- إن الملحدين والمبشرين قد تعاموا عن الإنجاز، والإعجاز الرباني الذي أحدثته بعثة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في مناحي الحياة كافة، ويكفي أنه حول عُبَّاد الأوثان إلى قادة وسادة في العلم والحضارة، ثم راح هؤلاء يفتشون عن أوهام ليست موجودة إلا في خيالهم المسموم، وقلوبهم المريضة، فرسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليس بشرا عاديا إنما هو رسول من الله يوحى إليه.

(إن محمدا ليس رجلا عاديا، وإنما هو نبي رسول صاحب دعوة عامة، وقد استخدم لنشرها أنجح الوسائل وأقربها إلى السلم، وأصحاب الدعوات لا يُلزمون بقوانين العامة؛ لأن عليهم من أعباء الإصلاح وإنجاح الدعوة ما ليس على غيرهم، والناقدون الحاقدون لا يقفون عند قياسه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على غيره، بل يقيسون أعماله هو دون غيره بمقاييس عصرنا، أنكروا زواجه من عائشة في سن مبكرة وقد رأينا صفية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تتزوج اثنين من اليهود قبل أن تنتهي إليه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهي دون السابعة عشرة، فلم قبلوا هذا من اليهود وأنكروا ذلك من المسلمين؟)[٢]، فزواج البالغات صغيرات السن كان مألوفا، كما سبق، وبيت رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليس كسائر البيوت.

١٠- ثم إن الأربعة عقود التي مثلت الفارق العمري بين النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وعائشة، قدَّر اللهُ أن تعيشها عائشة بعد وفاته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث تجلى ذكائها الفطري، وذاكرتها الحافظة، وعقلها القادر على الاستنباط والتفنيد، ومثلت مرجعا مهما للمسلمين يعودون إليه عند الاختلاف والرغبة في التثبت من مسألة فقهية، أو حديث نبوي، حيث روت أكثر من ألفي حديث.

- (قال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه، ولا بطب ولا بشعر من عائشة. وقال الزُّهري: لو

---

(١) انظر ذلك مفصلا في: المرأة بين الفقه والقانون، د/ مصطفى السباعي، (ص: ٤٩- ٥٤)، ط ٧، الناشر المكتب الإسلامي، بيروت ،١٩٩٩م.

(٢) رد مفتريات على الإسلام، د/ عبدالجليل شلبي، (ص: ٤٩- ٥٠)، ط١، ١٩٨٢م، دار القلم، الكويت.

جُمع علم جميع زوجات النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل)[١]. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

فقد تهاوت شبهة الملحدين وغيرهم، وبان زيفهم وجهلهم بأحوال شبه الجزيرة العربية منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، بل ولا يزال زواج الصغيرات منتشرا في أكثر من بقعة في الكرة الأرضية، ثم إن زواجه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من عائشة لم يكن نزوة كما يردد مرضى القلوب، وإنما كان لأهداف سامية جلّتها العقودُ الأربعة التي عاشتها عائشة بعد رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

(إن السيدة عائشة تُرِينا النبي في بيته، فتُرِينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى أعلى مراتب الإنسانية، ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم إلى حواء)[٢].

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، ج-٢، ص-٣٩٤، ٣٩٥، ط١ دار ابن كثير ١٩٩٢م، دمشق.

(٢) الصديقة بنت الصديق، العقاد، (ص: ٢٤)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

المبحث الثاني

الإيمان بالرسل من الوجهة الإسلامية

حاجة الناس إلى الرسالة:

إن أسئلة كثيرة يعجز الإنسان عن الإجابة عليها مثل: لماذا خلقت؟، ومن الذي خلقني؟ وما هي صفات الخالق الذي خلقني؟، وما يجب علي نحوه؟ وما سبب وجودي في الحياة؟ وما سر الموت؟ وما مصيرنا بعد موتنا؟، وما الذي يجب عليّ فعله أو تركه؟، وما الذي يُصلح أحوال البشر وينقذهم من الشقاء؟

أسئلة كثيرة تعجز كل الفلسفات عن الإجابة عليها؛ لذا كانت حاجة البشر إلى رسالة ربانية من خالقهم ورازقهم، والمطلع عليهم، والعليم بما يسعدهم وما يشقيهم، ومن هو أقرب إليهم من أنفسهم، ومن هو أرحم بهم من رحمتهم بأنفسهم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخبير ﴾[١] تلك الرسالة التي هم في حاجة إليها تهدي إلى الهدى، وتحذر من الوقوع في الضلال والردى، هي روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عُدم الروح والحياة والنور؟!، ولهذا سمى الله رسالته روحا، والروح إذا عُدمت عُدمت الحياة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[٣] .

مما سبق نعرف: أن البشرية بدون رسل ورسالة من الله، تحيا فاقدة لنورها وروحها، تحيا حياة التائه الأعمى الذي لايدري ما البداية، ولا يدري ما النهاية، يعيش لايدري لماذا يعيش؟. (لن يعرف الإنسان الحكمة من وجوده إلا بتعليم من خالقه الذي أوجده، ولن يعرف خالقه ومالكه، والحلال والحرام إلا بأن يأتيه هدى من ربه، ولن يعرف الإنسان مصيره الذي يسير إليه إلا بهدى من خالقه الذي أحياه، ولن يعرف ما يصلح شئونه إلا بتعليم من منشئه وخالقه)[٤].

لهذا كانت بعثة الرسل ضرورة، ومصلحة لا تتحقق بدون إرسالهم، وحاجة البشر إليهم فوق حاجتهم إلى كل شيء، والدنيا مظلمة إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة، ولا سبيل إلى السعادة في الدارين إلا على أيدي الرسل، وذلك أن العقل البشري قاصر عن معرفة كل ما يصلحه وما يضره.

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) الشورى: ٥٢.

(٣) المائدة: ١٥.

(٤) كتاب التوحيد (٢/ ٤٩)، د/ الزنداني، مرجع سابق.

(إن المصالح التي تقوم بها أحوال العبد لا يعرفها حق معرفتها إلا خالقها وواضعها، وليس للعبد بها علم إلا من بعض الوجوه، والذي يخفى عليه منها أكثر من الذي يبدو له؛ فقد يكون ساعيا في مصلحة نفسه من وجه لا يوصله إليها، أو يوصله إليها عاجلا لا آجلا، أو يوصله إليها ناقصة لا كاملة، أو يكون فيها مفسدة تربو في الموازنة على المصلحة؛ فلا يقوم خيرها بشرها، وكم من مدبر أمرا لا يتم له على كماله أصلا، ولا يجني منه ثمرة أصلا، وهو مشاهد بين العقلاء، فلهذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)[١].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] .

- الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان:

الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة، قال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٣] ، فدلت الآية على وجوب الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- دون تفريق بينهم، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٤]، (وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل، ولم يؤمن بالبعض الآخر، وفرق بينهم في الإيمان فهو كافر)[٥]، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[٦] .

وقال (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[٧].

---

(١) الموافقات (١/ ٥٣٨ - ٥٣٩)،لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهوربن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،القاهرة، (١٩٩٧)

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

(٤) البقرة: ١٣٦.

(٥) العقائد الإسلامية (١٦٩)، السيد سابق.

(٦) النساء: ١٥١،١٥٠.

(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تعريف الإيمان، حديث رقم (١) من حديث عمر بن الخطاب - (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)-.

ويتبين لنا من هذه النصوص - وأمثالها كثير في القرآن والسنة - أن الإيمان بالرسل ركن أساسي من أركان الإيمان لا يتم إيمان المؤمن إلا به، ويستوي عند الله من أنكر الرسل جميعا ومن أنكر واحدا منهم بعينه؛ فالمنكرون كلهم عند الله كفار، والمؤمن هو الذي يؤمن بالرسالات جميعا دون تفريق.

- معنى الإيمان بالرسل:

(الإيمان بالرسل: هو التصديق الجازم، بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادته – سبحانه- وحده، والكفر بما يُعبد من دونه، وأنهم جميعا مرسلون صادقون قد بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، فمنهم من أعلمنا الله باسمه، ومنهم من استأثر الله بعلمه)[١] (والإيمان بالرسل ضروري، لا يتوقف على نظر واستدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى لأن الله هو الذي نبأهم، وأرسلهم، وأخبر عنهم، وأمر بالإيمان بهم وتصديقهم، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به؛ من الملائكة، والكتب، والرسل، والبعث والجزاء، والقضاء، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به، فيكفي المؤمن دليلا أن يبلغه خبر الله، وأمره بالإيمان بالرسل، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٢])[٣].

- الواجب على المسلم نحو الرسل:

١- تصديقهم جميعا والإيمان بهم، وبما أرسلوا به وعدم التفريق بينهم، ويؤمن بمن ذكروا في القرآن وبمن لم يذكروا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[٤] .

٢- ومما يجب على المسلم أن يؤمن به أن كل رسول أرسله الله تعالى أدى أمانته، وبلغ رسالته على الوجه الأكمل، وبينها بيانا واضحا كافيا.

٣- كما يجب على المسلم طاعتهم وعدم مخالفتهم؛ لأن طاعتهم من طاعة الله، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾[٥] .

---

(١) ركائز الإيمان (٢٥٥)، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة. وانظر؛ الإيمان وأركانه (٢٨)، محمد نعيم ياسين ، دار عمربن الخطاب للطباعة والنشر، الأسكندرية.

(٢) النساء: ١٣٦

(٣) عقيدة المؤمن (٢١٨)، الجزائري.

(٤) غافر: ٧٨.

(٥) النساء: ٦٤.

٤- كما يعتقد المسلم أنهم أكمل الخلق خُلقا، وعلما، وعملا، وفضلا، وصدقا، وأن الله ميزهم بفضائل لا تتوفر لغيرهم، وأنه عصمهم ونزَّهَهُم عن الكذب والخيانة والكتمان.

٥- كما يؤمن كل مسلم بأن الأنبياء والرسل رجال فليسوا من الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[١] ، وأنهم - عليهم السلام - يأكلون ويشربون، ويمشون في الأسواق، ولهم أزواج وذرية، غير أن الله اصطفاهم واختصهم بالرسالة، وأيدهم بالمعجزات والآيات الدالة على صدقهم، وحلَّاهم وجملهم بجميل الأخلاق وجليل الصفات، قال تعالى:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[٤] .

٦- كما يعتقد المسلم أن الأنبياء، والرسل لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون الضر والنفع، ولا يعلمون الغيب، إلا أن يطلعهم الله عليه قال تعالى عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[٥] .

٧- ويعتقد المسلم أن خاتمهم، وأفضلهم هو نبينا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأنهم يتفاضلون في المنازل عند الله، قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[٦] ،[٧].

- مهمة الرسل ووظائفهم:

١- إن المهمة الأولى والوظيفة الكبرى هي هداية البشر إلى معرفة الخالق وتوحيده وإبلاغهم ما

---

(١) يوسف: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) غافر: ٧٨.

(٥) الأعراف: ١٨٨.

(٦) البقرة: ٢٥٣.

(٧) انظر؛ الإيمان وأركانه (٣٠)، د/ محمد نعيم ياسين.

أوحاه الله إليهم، وما أُرسل رسول إلا بإعلام الناس بنفي كل الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[١] .

٢- تعريف الناس بالمنهج الحق الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا، وينالون به رضوان الله في الآخرة، وتطبيق ذلك على أنفسهم حتى يقتدي بهم الناس، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾[٣] .

٣- ومن مهام الرسل (عليهم السلام) تعريف الناس بالحقائق التي تستحق الاعتبار فهم في حاجة لمن يرفعهم من جاذبية الطين الذي يتمسكون به، ويربطون سعادتهم بما يملكون منه إلى التمسك بالقيم العليا، والأخلاق الفاضلة حتى يكونوا جديرين بتكريم الله لهم، وتفضيله لبني آدم على كثير من خلقه سبحانه وتعالى[٤].

- أثر الإيمان بالرسل:

١- معرفة محبة الله لعباده، وعنايته بهم؛ حيث أرسل إليهم الرسل يهدونهم إلى عبادة ربهم، وكيف يعبدونه عبادة صحيحة.

٢- شكر الله على هذه النعمة العظيمة.

٣- محبة الرسل والثناء عليهم وتعظيمهم من غير إطراء يخرجهم من نطاق بشريتهم؛ لأنهم رسل الله قاموا بعبادته، وإبلاغ رسالته، والنصح لعباده.

١- اتباع الرسالة التي جاءت بها الرسل من عند الله، والعمل بها، فيتحقق للمؤمنين في حياتهم الخير والهداية والسعادة في الدارين، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾[٥][٦] .

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) انظر؛ ركائز الإيمان (٢٥٠)، محمد قطب، وانظر؛ الرسل والرسالات (٤٣ - ٤٤)، الأشقر.

(٥) طه: ١٢٣-١٢٤.

(٦) انظر؛ شرح الأصول الثلاثة (٩٩)، ابن عثيمين، دار الإيمان، الاسكندرية (٢٠٠١).

الفصل الخامس
طعن الملحدين في بعض أحكام الشريعة الإسلامية والرد عليهم

وسأعرض لثلاث شبه من شبههم ثم أفندها وأبطلها -إن شاء الله-.

أولاً: تصوير الشبهات:

يزعمون أن الإسلام يحث على الرق، واستعباد الأحرار (إن العبودية شرعها الإسلام في أغلب الدول التي احتلها، والتي لازالت تحت الاحتلال الإسلامي، ليس هناك سوى بلدان مثل: السعودية وموريتانيا التي تسمح بالعبودية تحت مسميات أخرى اليوم. بل تعف نفوس الغالبية العظمى من المسلمين اليوم عن أستعباد إنسان آخر بحجة أن الإسلام أباح لهم ذلك.) [١].

وأن الإسلام أهان المرأة وظلمها، حيث أباح تعدد الزوجات، وجعل ميراث المرأة على النصف من ميراث الرجل[٢].

ويمكن حصر مطاعنهم في الشبه التالية :

١ -الإسلام والرق .
٢ -الإسلام وتعدد الزوجات .
٣ -الإسلام وميراث الأنثى.

ثانياً: تفنيد الشبهات الثلاث:

تفنيد الشبهة الأولى: الإسلام والرق:

وسوف يشتمل إبطال الشبهة على النقاط التالية:

١- أقر الإسلام الرق بمفهومه الإنساني الراقي، ونظامه الذي يفضي لتقليل أعدادهم، وحفظ كرامتهم؛ فمن التجني البيِّن أن يُتهم الإسلام أنه حث على الاسترقاق، ووسع منافذه بدعوى عدم وجود نص صريح يجرِّمه ويحرمه، ذلك أن الإسلام أقر الرق السائد في ذلك الوقت تحت تأثير ضرورات اجتماعية، واقتصادية قاهرة، حيث كان العبيد يمثلون العمود الفقري للرعي، والزراعة والعمل والخدمة والتجارة، وأن الاستغناء عنهم فجأة يمثل سلب الحياة طاقتها، والآلة وقودها، كما أن أي محاولة للقضاء عليه كانت

(١) أسئلة جريئة الملحد: بسام البغدادي، مجلة الملحدين العرب، موقع الحوار المتمدن.

(٢) انظر: قراءة نقدية للإسلام، الإسلام وكراهية النساء وعدم التسامح، دراسة منهجية الإسلام، الملحد د/ كامل النجار، مكتبة الملحدين، موقع الحوار المتمدن، وموقع قناة الملحدين بالعربي.

ستُمْنَى بفشل ذريع، فقد أقر الإسلام الرق بصورة رائعة هي نفسها التي مهدت؛ لفتح أبواب جديدة للعتق، وغلق منافذ كثيرة كانت تمده وتغذيه، وكل ذلك بالتدرج.(وبذلك أصبح الرق أشبه شيء بجدول كثرت مصباته، وانقطعت عنه منابعه التي يستمد منها الماء، وخليق بجدول هذا شأنه أن مصيره إلى الجفاف، وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق في صورة سلمية وهادئة)[١].

فلم يكن من المقبول أن تقوض دعائم الرق فجأة، وإلا لحدث زلزال اجتماعي واقتصادي رافض لفكرة التقويض المفاجئ. (وهل كان من الموافقة المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عادات العالم كله منذ وجد الاجتماع الإنساني، وتوالت عليه الأيام والأعوام والشهور والدهور إن ذلك يجر وراءه بلا شك انقلابا عظيما في نظام الاجتماع، وفتنة كبيرة في نفوس الأقوام فلهذا جاءت شريعة الإسلام بهذه الغاية من طريق آخر تزول أمامه الصعوبات، وتتذلل العقبات، بدلا من تهييج العقول وإثارة الخواطر والأفكار بإلغاء الاسترقاق مرة واحدة)[٢].

(فالإسلام أنصف الارقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية،أو منازعة اقتصادية،أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح)[٣].

٢- من أمارات جهل المفترين على الإسلام جهلهم بتاريخ ومآسي أهل الشرق والغرب مع العبيد، أو تعاميهم عن ذلك للانتقاص من الإسلام الذي يعادونه جهلا وظلما.

يقول د/ دراز: (وإن تعجب لشيء فاعجب؛ لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده، وهم الذين أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود، ولم يَكْفِهِم استرقاقُ الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب. في اليونان، والرومان وغيرهما فتحت أبواب الرق على مصراعيها، فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولي الدم، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه، وكان السارق الذي يضبط عنده متاع غيره يصبح رقيقا لرب المال، كما في قصة يوسف، قال تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤] .

فكان السلطان المطلق لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء، أو أن يبيع من شاء،

(١) انظر: حقوق الإنسان في الإسلام، د/ علي عبدالواحد وافي، (ص: ١٥٦)، ط٦، ١٩٩٩م، الناشر: دار نهضة مصر، القاهرة.

(٢) الرق في الإسلام، أحمد شفيق، (ص: ١١٥)، ترجمه عن الفرنسية: أحمد زكي، ط١، ٢٠١٠م، الناشر: دار النافذة، القاهرة.

(٣) ما يقال عن الإسلام، عباس العقاد، (ص: ١٩٢).

(٤) يوسف: ٧٥.

وكان نير العبودية متى وضع على عنق، فلا فكاك له منه أبد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته)[١].

٣- ضيق الإسلام منافذ الرق، والتي كانت موجودة في الجزيرة العربية، وغيرها واستثنى منها منفذين فقط:

أ- رق الحرب. ب- رق الوراثة.

- أما رق الحرب فقد قيده الإسلام بعدة قيود:

الأول: ألا تكون الحرب بين طائفتين من المسلمين لأن المسلمين لا يُسْترقون.

الثاني: أن تكون الحرب مشروعة بين المسلمين والكفار.

الثالث: ألا يكون المسلمون في الحرب معتدين[٢].

-وأما الوراثة: ما تأتي به الأَمَةُ من عبد مثلها، وليس من حر أو من سيدها؛ لأنها ستصبح أم ولد يعتقها ولدها، كما جاء في حديث مارية لما ولدت إبراهيم بن محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٣]، كما قيد الإسلام رق الوراثة، ومن أهم القيود التي قيد بها الإسلام رق الوراثة:

-(أنه استثنى منه أولاد الجواري من مواليهن، فقرر أنه من تأتي به الجارية من سيدها يولد حرا، وإذا لاحظنا أن الغالب في أولاد الجواري أن يكونوا من مواليهن أنفسهم؛ لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجواري إلا لمتعهم الخاصة غالبا، تبين لنا أن القيد الذي قيد به الإسلام رق الوراثة وانفرد به كفيل بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه، ونضوب معينه بعد أمد غير طويل[٤]. ولم يُبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله.

٤- توسيع منافذ العتق، فإن كان الإسلام قد أقر الرق باعتباره ضرورة اجتماعية، فإنه جفف منابعه حقيقة حيث لم يبق عمليا إلا باب واحد للرق، وهو باب ضيق لا يفتح إلا بضوابط يقل وجودها، وفي نفس

---

(١) نظرات في الإسلام، د/ محمد عبدالله دراز، (ص: ١١٢- ١١٣)، إصدار خاص لهيئة كبار العلماء بالأزهر، الكتاب الرابع، ذو القعدة ١٤٣٦هـ.

(٢) سماحة الإسلام، د/ محمد أحمد الحوفي، (ص: ٢١١)، ط٢، ١٩٧٩م، دار نهضة مصر القاهرة، نقلا عن بدائع الصنائع، (٧/ ٩٧)، والميداني علي القدوري، (ص: ٣٦٧).

(٣) عن ابن عباس، قال: ذكرت أم إبراهيم عند رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فقال:» أعتقها ولدها» أخرجه ابن ماجة (٢٥١٦)، (أبواب العتق، باب أمهات الأولاد)، وفي إسناده حسين بن عبد الله وهو ضعيف جداً، والحديث ضعيف، انظر: التلخيص الحبير، أحمد ابن حجر العسقلاني، ج٤، ص ٤٠١، ط١، مؤسسة قرطبة، ١٩٩٥م.

(٤) حقوق الإنسان في الإسلام، (ص: ١٥٧- ١٥٨).

الوقت جعل مخارج كثيرة ينال عبرها العبيد حريتهم الإنسانية فلم يكن قبل الإسلام إلا منفذ واحد للعتق، وهو رغبة المولى في تحرير عبده، وبدون هذه الرغبة كان مقضيا على الرقيق أن يظل هو وذريته راسفين في أغلال العبودية أبد الآبدين.

(جاء الإسلام وهذه حالة العتق في ضِيق منافذه وقسوة شروطه فحطَّم جميع هذه القيود، وفتح للعبيد أبواب الحرية، وفتح لتحريرهم آلافا من الفرص، وتلمس للعتق من الأسباب ما يكفي بعضه للقضاء على نظام الرق بعد أمد غير طويل)[١].

ومن الأبواب التي فتحها الإسلام للعتق:

أ- ترغيب السادة في العتق وتشجيعهم عليه، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[٢]. فاقتحام العقبة يكون بعتق رقبة أو أكثر، وإطعام الجائع، ورغبت السنة النبوية في العتق وبشرت بالأجر العظيم للمعتق، فعن شرحبيل بن السمط، أنه قال لعمرو بن عبسة:حدثنا حديثا سمعته من رسول الله (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: سمعت رسول الله يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار»[٣].

وعن أبي هريرة (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) قال: قال رسول الله (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار)[٤]. وكان من بركة وثمرة هذه المرغبات والتوجيهات القرآنية والنبوية، أن أقبل المسلمون بصدق وإخلاص على تحرير الأرقاء طيبة نفُوسُهم قريرة عيونُهم ليحظوا بفضل الله، ورضوانه وجنته في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ب- العتق بالكفارات، لئن كانت الجنايات سببا في الرق، ففي ظل التشريع الإسلامي صارت الجنايات سببا من أسباب العتق، وما أكثر الذنوب، والمخالفات التي يقع فيها المسلم.

وهذه أهم وسائل العتق بالكفارة كما نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية:

- كفارة القتل الخطأ:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ

(١) المرجع السابق: (ص: ١٦٠).

(٢) البلد: ١١- ١٣.

(٣) رواه أحمد، ح. رقم (١٩٤٣٧)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. ورجاله ثقات وأبو داوود، كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، ح. رقم (٣٩٦٦). وغيرهما. وانظر: صحيح الجامع، رقم (٦٠٥٠).

(٤) أخرجه الإمام البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب،ح. رقم (٦٧١٥).والإمام مسلم، كتاب العتق، باب فضل العتق، ح. رقم (١٥٠٩).

يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[١] .

- كفارة الإفطار العمد في رمضان:

فعن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال: جاء رجل إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: هلكت. قال: «وما شأنك؟» قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: «تستطيع تعتق رقبة»[٢].

- كفارة الحنث في اليمين:

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

- كفارة الظهار، كأن يقول الرجل لزوجته أنتِ علي كظهر أمي أو كلمة مثلها:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٤] .

- (وتقرر الشريعة الغراء أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات، ولم يكن يملك عبدا، وجب عليه أن يشتري عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك)[٥].

جـ- ومن أسباب وأبواب العتق:

- قال ابن رشد: (أن يجري على لسان السيد في أي صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده، سواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له، بأن جرى خطأ على لسانه، وسواء أكان جادا أم هازلا)[٦]. وذلك لحديث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، وعد منها العتاق)[٧]، وقال أيضا: (إذا قال السيد لعبده يابني، أو لأمته يابنيتي، أو قال يا أبي أو يا أمي، قال أبو حنيفة: يعتق عليه.

(١) النساء: ٩٢.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب كفارات الأيمان، باب قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ التحريم: ٢ متى تجب الكفارة على الغني والفقير، ح. رقم (٦٧٠٩). والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم...، ح. رقم (١١١١).

(٣) المائدة: ٨٩.

(٤) المجادلة: ٣.

(٥) حقوق الإنسان في الإسلام، (ص: ١٦٣). مرجع سابق.

(٦) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد القرطبي، (٢/ ٤٠٦)، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٨٢م، تحقيق د/ محمد سالم، د/ شعبان محمد إسماعيل.

(٧) هذا الحديث ورد بلفظ « ثَلاَثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلاَقُ، وَالرَّجْعَةُ » وقد أخرجه بهذا اللفظ أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم.

وقال زفر: لو قال سيد لعبده هذا ابني عتق عليه، وإن كان للعبد عشرون سنة، وللسيد ثلاثون سنة. ومن نادى عبدا من عبيده باسمه فاستجاب له عبد آخر، فقال له: أنت حر وقال: إنما أردت الأول، فقيل: يعتقان عليه جميعا)[١].

هذا بعض ما جادت به قرائح الفقهاء المسلمين، وهذا بعض ما حوته كتب التراث الإسلامي التي يريد بعض الحمقى حرقها، والخلاص منها بدعوى أنها تدعو للقتل...، هذه هي بعض إنسانية الإسلام المفترى عليه بسبب جهل بعض أبنائه، وكيد أعدائه.

د- ومن منافذ العتق:

الكتابة: بمعنى أن يكاتب السيد عبده إن أدى إليه قدرا معينا من المال، أو أنجز عملا معينا، أو خدم مدة معينة فهو حر، ووجب على المسلمين إعانته على فكاك رقبته من الرق حيث جعل الإسلام سهما من مصارف الزكاة لتحرير العبيد، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، ولقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[٣].

٥- ومن منافذ العتق:

التدبير: هو (تعليق عتق بحدث[٤]) وهو أن يجري على لسان السيد في أيَّة صورة لفظ يفيد (التدبير)، أي يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده، كأن يقول السيد لعبده: أنت حر بعد موتي، أو متى مت فأنت حر، أو دبرتك، أو بالكناية مثل: خليت سبيلك بعد موتي.

-(فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تفيد هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده، وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد، فحظر على السيد في أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر، أو يرهنه، أو يهبه، أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته إلى شخص آخر)[٥].

و- العتق بأم الولد:

---

(١) السابق: (٢/ ٤٠٦).

(٢) التوبة: ٦٠.

(٣) النور: ٣٣.

(٤) انظر: منهاج الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، (ص: ٣٦٢)، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢م، ومكتبة الثقافة عدن.

(٥) حقوق الإنسان في الإسلام، (ص: ١٦١)، مرجع سابق.

-(فهو كذلك وسيلة من وسائل التحرير، ومأثرة عظيمة من مآثر الإسلام في تكريم المرأة، فلأن الأمة حينما تكون مملوكة لمسلم، فيجوز أن يعاشرها معاشرة الأزواج، فإذا ولدت له ولدا واعترف به أصبحت في نظر الشرع أم ولد، وفي هذه الحالة يحرم على السيد أن يبيعها، وإذا مات ولم يعتقها في حياته تصبح حرة بعد مماته مباشرة)[١].

ز- العتق بالضرب أو ظلم السيد لعبده:

ويمكن أن يسمى ذلك المنفذ بمنفذ كفارة الإساءة كما سماه د/ دراز: (فجزاء من لطم مملوكه لطمة، أو ضربة، أو جرحه، وشوهه، فإن حكمه عند أكثر الأئمة أن يصير العبد حرا بمجرد إصابته، فيُنزع من ملك السيد قهرا عنه)[٢]، لحديث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (من لطم مملوكه، أو ضربه، فكفارته أن يعتقه)[٣].

وبعـد: فلقد رأينا أن الإسلام المفترى عليه فتح سبعة أبواب؛ لينطلق الأرقاء عبرها من أغلال الرق لاستنشاق هواء الحرية، لكن ما مصير من بقى مقيدا بالعتق؟ هل يترك لامتهان كرامته ووأد إنسانيته؟ أم قدم الإسلام لهم شيئا؟

(نعم لقد فتح لهم منافذ للتهوية، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات، وذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة؛ لخادمهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[٤][٥].

فالحديث يلفت إلى بشرية العبيد، ويراعي إحساسهم، وطاقتهم، وحاجتهم للشعور بالآدمية وأنهم إخواننا قدَّرَ ربُنا أن يكونوا تحت أيدينا، ويرتقي رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بوعينا، ونظرتنا لهم بإعادة صياغة عقولنا، وألفاظنا لنكون على قناعة أنهم مثلنا، حيث أمر النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن ينادى الرقيق بكلمات لا تؤذي مشاعرهم، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك ربي وربتي، وليقل المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون والرب الله - (عز

---

(١) نظام الرق في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، (ص: ٦٢)، ط٤، ٢٠٠٤م، دارالسلام للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) نظرات في الإسلام، د/ محمد عبدالله دراز، (ص: ١١٨) مرجع سابق.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، ح. رقم (١٦٥٧).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في، كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ح. رقم (٣٠).

(٥) نظرات في الإسلام، د/ دراز، (ص: ١١٧- ١١٨).

وجل)-)[١].

فإذا كان الإسلام قد حرر العبيد بفتح منافذ العتق، فإنَّه بِحَثِّهِ على حسن معاملتهم قد حررهم روحيا وإنسانيا أيضا.

فَيُعَامَل (على أنه بشر كريم لا يفترق عن السادة من حيث الأصل، وإنما هي ظروف عارضة حدَّتْ من الحرية الخارجية للرقيق في التعامل المباشر مع المجتمع، وفيما عدا هذه النقطة كانت للرقيق كل حقوق الآدميين)[٢].

وبعد: إن نظرة الإسلام للرق تمثل صفحة مشرقة يفخر بها كل مسلم، بل ويرفع رايتها، وينقل روائعها لغيره من المسلمين، وغير المسلمين، (فالإسلام لم يجعل الرق أصلا من أصوله بدليل أنه سعى إلى تحريره بشتى الوسائل، وجفف منابعه كلها لكي لا يتجدد، فيما عدا رق الحرب المعلنة للجهاد في سبيل الله..)[٣].

فلا يوجد نظام من أنظمة العالم الاجتماعية عمل على تحرير الرقيق بوسائل عملية إيجابية ومتنوعة مثل ما صنعه الإسلام. ألا فليخرس المتطاولون زورا على الإسلام وقيمه وتشريعاته.

وأختم: بحديث نبوي يحوي أبلغ رد على هؤلاء المفترين، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أيما رجل كانت له جارية، فأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها، وتزوجها فله أجران)[٤]، وفي رواية (ثلاثة يُؤتَون أجرهم مرتين...، ومنهم: ورجل كانت له أمة فغذاها، فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران)[٥].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه -كتاب النذور -باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (٢/ ١٢٨٢) حديث (١٦٦١).

(٢) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، (ص: ٤٣)، دار الشروق القاهرة، ط١٦، ١٩٨٣م.

(٣) السابق: (ص: ٥٧).

(٤) البخاري، كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، ح. رقم (٢٥٤٧).

(٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، ح. رقم (١٥٤).

تفنيد الشبهة الثانية: حول تعدد الزوجات في الإسلام.

مدخل:

لا يكاد غير المسلمين في الشرق والغرب يعرفون عن الإسلام إلا أنه يبيح للرجل أن يتبعه قطيع من النساء يتقلب بينهن كيفما شاء، وأن المرأة في ظل الإسلام ما هي إلا وعاء للمتعة، والخدمة، مع تجريدها من أبسط حقوقها كإنسانة، وهذا الفهم نتيجة للصورة المعكوسة التي تصل لهؤلاء، وتترك لديهم انطباعا سلبيا عن الإسلام والمسلمين، وبسبب تقصيرنا في إيصال صورة حقيقية عن الإسلام إلى غيرنا.

وقد غذَّتْ تلك الصورة السلبية كتابات المستشرقين والمستغربين، والتي تصورنا بصورة أقرب للفوضى من النظام، وأبعد عن كل مظاهر الحضارة والمدنية، إضافة إلى واقعنا والذي تلتقط منه عيون الردى سلبيات تُنسب للإسلام ظلما وزورا، ثم تلقَّف المستشرقون والملحدون تلك الشبهات، وملأوا بها مواقعهم ومدوناتهم وكتاباتهم. ثم كانت معظم ردودنا تبريرية دفاعية استجدائية في زمن لا يسمع فيه العالم إلا أصوات الأقوياء، وليس الضعفاء.

والذي يتضح: أن من أهم عوامل تأثير تلك الدعوات في الداخل، وإعطاء الفرصة للمتربصين بالخارج، عاملان:

الأول: السلبيات والممارسات الخاطئة التي يقع فيها بعض المسلمين في تعاملهم مع المرأة، والإسلام منها براء.

الثاني: كتابات بعض المستشرقين، أو المحسوبين على الإسلام من المستغربين، والتي طالت الكثير من أحكام الشريعة، واتهمتها بالقصور والجور؛ فأعطت الفرصة لغيرهم للافتراء والتطاول على أحكام الإسلام وتشريعاته.

أشير أولاً إلى أن التعدد كان موجوداً قبل الإسلام، وليس كما يزعم الملحدون، ثم أُبْطِل الشبهة بأقوال المنصفين من علماء الغرب، ثم الرد على الشبهة من الوجهة الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية:

أولاً: تعدد الزوجات كان موجودا قبل الإسلام:

لم يظهر تعدد الزوجات مع ظهور الإسلام، وإنما كان نظاما اجتماعيا سائدا، له طقوسه وتقاليده والتي تختلف من أمة إلى أخرى، ومن حضارة إلى أخرى، وكان أقرب للفوضى منه إلى الزواج –أحيانا–، وكانت المرأة في بعض البيئات، والمجتمعات تعامل على أنها سقط متاع، أو من جنس الحيوان، وليس الإنسان، ولم يأخذ صورة التعدد المعروف، بل كان يأخذ صورا أخرى أكثر إهانة للمرأة.

(إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصا بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس، والعرب، وغيرهم من أمم

الشرق قبل ظهور محمد)[١].

ومن أمثلة ذلك:

في الصيـن القديمـة: (كان الصينيون في أقدم عصورهم يسيرون على نظام تعدد الزوجات، وكان لهم نظام خاص في ذلك، يباح للزوج أن يشتري فتيات يستمتع بهن، ويَكُنَّ زوجات، إلا أنهن يخضعن للزوجة الأصلية، فيكون ذلك أشبه بالرياسة، وتكون منزلتهن أقل من الزوجة الأصلية، وكان الأولاد يُعدُّون أبناء الزوجة الأصلية)[٢].

في الهند:

-(كان التعدد مباحا في الهند القديمة، وكانت المرأة في منزلة أقل من منزلة الرجل، فكانت مطيعة مخلصة، وكان غالبا ما يتزوج الرجل من طبقته الاجتماعية، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات...، وإذا مات الزوج كان زواج امرأته من بعده جريمة لا تغتفر...، ولذلك كان الزوج كثيرا مايعاهد زوجاته على أن يحرقن أنفسهن بعد مماته)[٣].

عند الرومان:

- (على الرغم من أن الأصل عند الرومان كان الاكتفاء بزوجة واحدة، مع انتشار نظام التسري، والخليلات؛ لدوافع اقتصادية بحتة، بحيث كانت التكاليف باهظة -كما يذكر المؤرخون- وإن كان هذا القول لا يسلم به، فإنه كان شائعا في الممالك الرومانية، وقد أصدر الملك فالنتين الثاني مرسوما بإباحة التعدد، ولا يروي لنا التاريخ أي استنكار قام به الأساقفة أو رؤساء الكنائس الرومانية ضد أمر الملك الذي خالف تقاليد الرومان القديمة المعمول بها)[٤].

التعدد عند اليهود والنصارى:

بعث موسى (عليه السلام) وكان التعدد موجودا في بني إسرائيل، وكذا عيسى عليه السلام، ولم يرد نص واحد لا في التوراة ولا في الأناجيل الأربعة المعترف بها بتحريم التعدد، (وقد أقرت الشريعة الموسوية هذه العادة، وأباحتها التوراة دون تحديد في العدد، لكن التلمود قيد هذا العدد ونص كتاب «بياعوث» على أن للرجل أن يتزوج من النساء بقدر ما يستطيع أن يعولهن، وفي مكان آخر قصر العدد على أربع)[٥]. فالاكتفاء

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، (ص: ٤١١)، ترجمة عادل زعيتر، الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣م.

(٢) تعدد الزوجات في الإسلام، إبراهيم الجمل، (ص: ١٥)، دار الاعتصام للنشر، القاهرة.

(٣) السابق: (ص: ١٦)، نقلا عن قصة الحضارة، (٤/ ١٨٣).

(٤) المرأة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي، (ص: ١٠)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) تعدد الزوجات في الإسلام، إبراهيم الجمل، ص ٢٣.

بزوجة واحدة معقود عليها كان لدى الأمم الوثنية التي انتشرت فيها المسيحية وظل ذلك التقليد بعد وصول المسيحية إليهم.

(والحقيقة أنه لا علاقة للدين المسيحي في أصله بتحريم التعدد، وذلك أنه لم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على هذا التحريم، وإذا كان السابقون الأولون إلى المسيحية من أهل أوروبا قد ساروا على نظام وحدة الزوجة، فما ذلك إلا لأن معظم الأمم الأوروبية الوثنية التي انتشرت فيها المسيحية في أول الأمر، وهي شعوب اليونان والرومان كانت تقاليدها تحرم تعدد الزوجات المعقود عليهن، وقد سار أهلها بعد اعتناقهم المسيحية على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل، فلم يكن نظام وحدة الزوجة لديهم نظاما طارئا جاء به الدين الجديد الذي دخلوا فيه، وإنما كان نظاما قديما جرى عليه العمل في وثنيتهم الأولى)[١].

وقد كُسِر ذلك التقليد على سمع وبصر رجال الكنيسة حيث عقد أكثر من ملك من ملوك أوروبا على زوجتين.

(فقد حدث في منتصف القرن السادس أن «ديارميت» ملك أيرلندا كانت له زوجتان شرعيتان، وتزوج الملوك الميروفيون عدة مرات بأكثر من زوجة، وكان «لشارمان» (٧٤٧- ٨١٤) زوجتان، وعدة سريات، ويستفاد من أحد قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولا حتى بين القساوسة. وقد حدث بعد ذلك أن الملك هيس فيليب والملك فريدريك وليم الثاني «القرن ١٦» البروسي تزوجا بأكثر من واحدة بموافقة القساوسة اللوثريين)[٢].

-(وقد كان التعدد معروفا بل سائدا في الشرائع الوضعية والأديان السماوية السابقة، وفي التوراة نصوص ووقائع شاهدة على ذلك، وليس في الإنجيل نص على منعه، وكان مباحا حتى منعته الكنيسة في القرون الوسطى وكانت ترضى به أحيانا لبعض الملوك والأمراء)[٣].

كما أن التعدد كان موجودا عند العرب وبأكثر من أربع زوجات.

فعن قيس بن الحارث، قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فأتيت النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فقلت ذلك له فقال: «اختر منهن أربعا»[٤].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أسلم غيلان الثقفي وتحته عشر نسوة في الجاهلية، فأمره النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

(١) المرأة في الإسلام، د/ علي عبدالواحد وافي، (صـ١٦١)، ط٤، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

(٢) المرجع السابق (ص: ١٦١).

(٣) انظر: بيان للناس من الأزهر الشريف، (٢/ ٢٢٧)، مطبعة الأزهر، ١٩٨٨م.

(٤) رواه أبو داوود كتاب الطلاق، باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان، ح. رقم (٢٢٤١)، وابن ماجة واللفظ له كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة، ح. رقم (١٩٥٢). وقال المحقق: إسناده حسن.

أن يختار منهن أربعا)[١].

ثانيـًا:رد العلماءالمنصفين من غير المسلمين:

على الرغم من كثرة سهام الطعن في الإسلام من قبل الحاقدين، والملحدين، إلا أن بعض من تجردوا من الهوى، وتحلوا بالإخلاص للحقيقة العلمية من عقلاء ومنصفي الغرب، ما وسعهم إلا أن يُقِروا بالحق ويصدعوا به، لمَّا رأوا ما انطوى عليه التشريع الإسلامي من حَلٍ لمعضلة حقيقية، مع التوجيه والتقنين، والصرامة والمرونة، والإباحة المشروطة.

من هؤلاء المستشرقين:

المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم)، يقول: (لقد أباح محمد (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) تعدد الزوجات، ولم يوص به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات، فلا يهب إحداهن إبرة دون أخرى). ثم تساءل: (وأيهما أفضل تعدد الزوجات الشرعي، أم تعدد الزوجات السري؟ إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر)[٢].

ويقول غوستاف لوبون[٣]: (ولا نذكر نظاما أنحى الأوربيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاما أخطأ الأوربيون في إدراكه كذلك المبدأ...، ثم قال: إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطا ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراهما في أوروبا...، ولا أرى سببا في جعل تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوربيين، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزرا)[٤].

لقد حقق التشريع الإسلامي بتشريع تعدد الزوجات عدم الانزلاق مع الشهوات الجامحة، وحقق تماسك الأسرة، وحماية النسل.

آنـي بيزانـت[٥]، تقول:(ومتى وزنا الأمور بقسطاس العدل المستقيم أظهر لنا أن نظام تعدد الزوجات الإسلامي الذي يحفظ ويغذي ويحمي ويكسو، أرجح وزنا من البغاء الغربي الذي يسمح أن يتخذ رجل

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده -ـ(٨/ ٢٣٠) حديث (٤٦٠٩) وقال المحقق حديث صحيح بطرقه وشواهده .

(٢) الشخصية المحمدية، السيرة والمسيرة، إميل درمنغم، ترجمة عادل زعيتر، ص ٣٠٣، الشعاع للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٥م.

(٣) غوستاف لوبون، (١٨٤١_ ١٩٣١م) طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوربا وآسيا وشمال أفريقيا، له مؤلفات عدة منها: حضارة العرب. الموسوعة الحرة: ويكيبيديا.

(٤) حضارة العرب، (ص: ٤١١- ٤١٢).

(٥) آني بيزانت (١٨٤٧—١٩٣٣م)اشتراكية بريطانية، ناشطة في مجال حقوق المرأة، برعت في الكتابة والخطابة.

امرأة لمحض إشباع شهواته، ثم يقذف بها إلى الشارع متى قضى منها أوطاره)[١].

حيث إن نفقة الزوجة وتوفير مايلزمها من متطلبات الحياة، مع وجود الأنس والود والمعاشرة بالمعروف من صلب حقوقها على زوجها، سواء كانت زوجة واحدة أو أكثر، ويأثم الزوج لو قصر في أداء بعض تلك الحقوق، فهل يتحقق ذلك للرفيقة ؟

ويقول الفيلسوف الألماني شوبنهور[٢]: (إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا، وضاعفت علينا واجباتنا...، ثم قال: ولا تعدم امرأة من الأمم التي تجيز التعدد زوجا يتكفل بشؤنها، والمتزوجات عندنا قليل، وغيرهن لا يحصيهن عد تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت، وهي هائمة متحسرة، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار، ففي مدينة لندن وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبح الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة، ونتيجة تعنت الزوجة الأوربية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل)[٣].

أيهما أكرم لها: أن تعيش وهي مطمئنة على مستقبلها، أم تعيش وهي تعاني من كوابيس وهواجس الخوف من تخلي صديقها عنها إن مرضت أو كبرت؟ كما أن اقترانها بزوج ضرورة فطرية لحاجة كل طرف للطرف الآخر، ولوعُدمت الزوج فهي بين أحد خيارين: أن تعاني لوعة الحسرة والحرمان، أو تزل قدمها لمستنقع الرزيلة.

هذا ما رآه شوبنهور في منتصف القرن التاسع عشر حيث كانت هناك بقية من القيم، فماذا عساه أن يقول إذا عاش بيننا الآن؟ علما بأنه توفى عام ١٨٦٠م.

والأقوال السابقة هي غيض من فيض فمثلها كثير من أقوال المنصفين.

ثالثًا: رد علماء الإسلام:

ويشتمل الرد على النقاط التالية:

---

(١) الأهرام اليومي، عدد ٤٥٠٨٥، بتاريخ ١٥/ ٥/ ٢٠١٠م، مقال بعنوان تعدد الزوجات وحقيقته، د/ علي جمعه، نقلا عن كتاب «الأديان المنتشرة في الهند» ل:آني بيزانت.

(٢) آرثر شوبنهور: فيلسوف ألماني، «١٧٨٨- ١٨٦٠»، التحق بدراسة الطب ١٨٠٩م، لكنه سرعان ما تركها واتجه لدراسة الفلسفة، من مؤلفاته: «العالم كإرادة وتصور»، و«المشكلتان الأساسيتان في الأخلاق». انظر: معجم الفلاسفة، (ص: ٤٠٦)، جورج طرابيشي.

(٣) انظر: الإسلام روح المدنية، الشيخ/ مصطفى غلاييني، (ص: ٢٢٤)، المكتبة الأهلية ،بيروت ١٩٠٨م.

١- قرر الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء إلا فيما دعت الحاجة الواضحة إلى استثنائه، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[٣] ، فالقرآن عمّ الرجال والنساء بالمساواة في الأجر والجزاء، والمساواة في الأصل، والخلق، وإثبات نصيب في الميراث لكل منهما مهما قل أو كثر. ولكنه التعصب، والجهل الذي أعمى أبصار الملحدين وأمثالهم فجعلهم يطعنون فيما يجهلون حكمه وحكمته.

٢- لم يأت الإسلام بالتعدد - كما يشيع البعض- فقد كان التعدد شائعا في كل الشرائع السماوية، والوضعية، وإنما جاء الإسلام بوضع حدود وضوابط له.

- (فلم يرد تعدد الزوجات في القرآن الكريم بمعزل عن سببه وضابطه)[٤].

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾[٥] ، وقد أبيح التعدد مقترنا بشرط «وإن خفتم» أي إن ظننتم حيفا وظلما لليتيمات، واليتيمة امرأة ضعيفة، ثم اباح الاقتران بغيرها مثنى وثلاث ورباع ولكن بشرط العدل الذي يكون في طاقة الزوج، ثم جاء قوله: «ذلك أدنى ألا تعولوا» أي الاكتفاء بواحدة عند ظن عدم العدل أدعى لسلامة الزوج نحو: (أي ذلك أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا)[٦]، ثم جاءت الآية الأخرى والتي تكبح جماح هوى الزوج، وتحد من ميله وظلمه، قاال سبحانه: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾[٧] .

قال مجاهد: (لا تتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية في القسم والنفقة، لأن هذا مما يستطاع)[٨].

والذي يبدو: أن التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع مباح ابتداء، وأن ما ورد بالآية مرتبطا باليتيمات،

---

(١) التوبة: ٧١.

(٢) آل عمران: ١٩٥.

(٣) النساء: ٧.

(٤) الأهرام اليومي، عدد ٤٥٠٨٥، بتاريخ ١٥/ ٥/ ٢٠١٠م، مقال د/ علي جمعة، «تعدد الزوجات وحقيقته».

(٥) النساء: ٣.

(٦) انظر: تفسير القرطبي، (٥/ ٢٠)، دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٧) النساء: ١٢٩.

(٨) انظر: تفسير القرطبي، (٥/ ٤٠٧) .

فالمقصود به الوعظ، وليس سببا في تشريع حق التزوج من أكثر من واحدة، فهو موجود في الأصل مثنى وثلاث ورباع، فإذا خاف الجور وعدم العدل بين نسائه إذا تزوج بأكثر من واحدة، يحرم عليه التزوج بأكثر منها، وهذا القيد مقصود منه منع الضرر الذي ينتج عن استعمال الحق الأصلي بالزواج بأكثر من واحدة، ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾[١]، فكان تشريع التعدد إصلاحا لما فسد، وتحديدا لما أطلق، وتقويما لما اعوج، وضبطا لما أبيح، كل ذلك لصيانة كرامة المرأة وحماية إنسانيتها من الابتذال والامتهان.

٣- من خلال النصوص القرآنية السابقة نستخلص الآتي:

أ- أن تعدد الزوجات في الإسلام ليس فرضا، ولا واجبا ولا مندوبا، بل هو مباح بضوابطه.

ب- أن التعدد لا يكون إلا عند أمن الخوف من عدم العدل.

جـ- أن للتعدد تبعات أقلها العدل في الأمور الدنيوية، وهي ليست بالسهلة في التطبيق[٢].

٤- إن إباحة التعدد في الإسلام-بضوابطه- قد عالج جملة من المشكلات الاجتماعية، والنفسية والاقتصادية، بل والأمنية والصحية.

(فقد يحدث أن تصاب الزوجة بمرض عضال يقعدها عن واجباتها الزوجية، ويفقدها وظيفة الأمومة، فإذا امتنع تعدد الزوجات في جميع الحالات، فلا محيص للزوج الذي عقمت زوجته، أو عجزت عن تدبير بيتها، من تطليق تلك الزوجة، أو الإبقاء على زواج فقد معناه، وبطل الغرض الأكبر للأسرة والنوع...، فالسماح بتعدد الزوجات في هذه المشكلة البيتية حل مقبول أسلم، وأكرم من نبذ المرأة المريضة، ومن إكراه الرجل على العقم والمشقة، وليس من غضاضة أن يبني الزوج من زوجة أخرى)[٣].

وقد توجد امرأة فقدت زوجها، وترك لها أطفالا في حاجة إلى عائل يعولهم، فأيهما أولى أن تُترك لتعاني الفقر، والحرمان من العائل والمؤنس، أم يقترن بها زوج يعولها وصغارها، مادام قادرا على الاقتران بثانية؟ وقد تكون الزوجة مريضة، وغير قادرة على الوفاء بمتطلبات الزوجية، فهل يظل زوجها عزبا حقيقة، ومتزوجا في الظاهر، فهي إما تطلق وتبقى مهملة حتى يأتيها أجلها، أو تبقى في عصمة زوجها يتكفل بها ويقترن بأخرى؟

(بقاء الزوجة الأولى في عصمة زوجها في مثل هذه الأحوال أكرم لها هي نفسها وأدنى إلى صيانتها من طلاقها، فإنَّ طلاقها يعرضها للكثير من مآزق الحياة، ويهدر كثيرا من كرامتها ومكانتها الاجتماعية،

---

(١) النساء: ٣.

(٢) تعدد الزوجات في الإسلام، (ص: ٥٣).

(٣) المرأة في القرآن الكريم، عباس العقاد، (ص: ٧٢).

وخاصة إذا لاحظنا أن مثلها لا يُرْغَبُ في الزواج بها للأسباب التي دعت زوجها إلى الزواج بأخرى)[١].

وقد تقع حروب تودي بحياة الآلاف بل الملايين من الرجال كما هو الحال في بعض الدول اليوم، فهل من العقل، والإنصاف أن تبقى معظمهن بلا أزواج أم يمكن أن يقترن الرجل بأكثر من زوجة؟ وقد تكون لدى الرجل طاقة جنسية وافرة، ولا تقوى زوجة واحدة على إشباعه وإعفافه بسبب عدم تحملها، أو بسبب حملها ووضعها، ونفاسها وحيضها، فلو لم يقض حاجته في الحلال فلا سبيل له إلا أن يعيش نكدا تعيسا، أو أن ينحرف، فكان السبيل أن يأتي بزوجة ثانية لتحمل عن الأولى بعض ما لم تحتمل. وفي بعض الدول يزيد عدد النساء عن عدد الرجال، فما المانع أن تعالج الزيادة بزواج الرجل بثانية أو ثالثة، بدل أن يتحولن إلى خليلات لكل الرجال، فأيهما أكرم أن تكون حليلة أم خليلة؟

(ومن حسنات السماح بتعدد الزوجات عند الضرورة، أن يكون ذريعة من ذرائع المجتمع لدفع غوائل العيلة والفاقة عند اختلال النسبة العددية بين الجنسين)[٢].

٥- إن الإسلام لما أباح التعدد لم يأمر به ولم يندب إليه، وإنما جعله مباحا ليكون مظهراً من مظاهر الإعجاز التشريعي من خالق البشر القائل: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٣] .

(وشريعة الله حينما أباحت التعدد إنما تركت الباب مفتوحا لمعالجة الضرورات الفردية والاجتماعية، ولم ترغب في ذلك ولم تنفر،... لأن التشريع الخالد ما وجد فيه الناس جميعا حاجاتهم، وما وجدت فيه الأمم طلباتها في مختلف ظروفها وأحوالها، فليس في ترك التعدد مباحا كما هو في الشريعة ترغيبٌ للناس في ذلك، وهذا هو الواقع المشاهد، ولكن في تضييقه أو منعه حيلولة دون معالجة مشكلات خاصة تجد علاجها في التعدد، ومنع الأمة في ظرف من ظروفها الطارئة من حل مشكلة من مشكلاتها لا علاج لها إلا بالتعدد، والتشريع الحكيم هو الذي يترك الباب مفتوحا لمعالجة المشكلات ولا يوصد الباب دونها)[٤].

٦- ثم الزوج الذي يتزوج بثانية، أليست الثانية امرأة قبلت أن تكون زوجة لرجل متزوج ورضيت وسعدت بذلك الزواج؟ فلو كل النساء رفضن الاقتران بمتزوج لما وجد معددون.

والواقع يؤكد أن النساء أدرى بما يصلحهن أكثر من أدعياء الإنسانية وغيرهم من تجار الكلام وأعداء الأديان.

(فالإسلام لا يجبر امرأة على قبول الزواج برجل متزوج، ولا غير متزوج، بل يضع لها ولأهلها مطلق

---

(١) المرأة في الإسلام، د/ علي عبدالواحد وافي، (ص: ١٣١).

(٢) المرأة في القرآن الكريم، العقاد، (ص: ٧٣).

(٣) الملك: ١٤.

(٤) انظر: المرأة بين الفقه والقانون، د/ مصطفى السباعي، (ص: ٩٤- ٩٥)، ط٧، ١٩٩٩م، المكتبة الإسلامية ببيروت.

الحرية في قبول الزواج به أو رفضه، فإذا قبلت هي وقبل أهلها الزواج به عن طيب خاطر، كان دليلا على أن هذا الوضع لا ينطوي في نظرها ولا في نظرهم على ضرر ولا ضرار)[1].

٧- إذا تزوج الرجل بزوجة ثانية، ولحق بالزوجة الأولى ضرر فلها حق الطلاق،فإن أبى الزوج رفعت الأمر للقاضي والذي يطلقها رغما عن زوجها، وذلك عند عدم عدله أو إنفاقه أو إساءة عشرتها، أو حتى عدم احتمالها الصبر على اقتران زوجها بزوجة أخرى.

٨- هؤلاء الملحدون وأترابهم من الغربيين والمستغربين والذين يعيبون إباحة تعدد الزوجات في الإسلام ويعدونه عنصرية وسادية، وإهانة للنساء، نقول لهم قارنوا بين نظام تعدد الزوجات في الإسلام وفوضى الخليلات عندكم وستجدون الآتي:

أ- تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي يقع باسم الزوجات، لكنه يقع في المجتمع الغربي باسم الخليلات والصديقات.

ب- تعدد الزوجات يقع في المجتمع الإسلامي بصورة علنية، لكنه يقع في المجتمع الغربي بصورة سرية.

جـ- تعدد الزوجات في المجتمع الغربي يحصل بطريق حرام غير شرعي، ويحصل في المجتمع الإسلامي بطريق حلال شرعي.

د- تعدد الخليلات في المجتمع الغربي يكون غير محدود ولا محصور بعدد معين من النساء، أما نظام تعدد الزوجات في الإسلام فيكون مقتصرا على أربع نساء لا يزيد عن ذلك.

هـ- مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام يجري وفق نظام يضمن حقوق الزوجة والأولاد من الضياع أما تعدد الخليلات فيجري بغير نظام بل فيه ضياع للخليلات والأولاد.

و- تظل الزوجة في عصمة زوجها سواء مرضت أو كبرت، بخلاف الخليلة فإن الرجل ينصرف عنها عندما لا يجد ما يرغِّبُه فيها.

إن هؤلاء الجهلة من ملحدين وغيرهم، والذين يعيبون ذلك التشريع، يتعامون عما يحدث في مجتمعاتهم من فجور وأمراض وتشرد، هؤلاء أولى بالشفقة للأمراض العقلية والنفسية التي أصابتهم بدوار أفقدهم الوعي بالواقع الذي يعيشون فيه، وربما بعض عذرهم، أنهم لم تتح لهم الفرصة لاستشعار الحلال والجمال والعيش في كنف الطهر والعفاف،والاطلاع على أحكام الإسلام وأقوال المنصفين لا المزيفين، فراحوا يطعنون بحقد وجهل.

---

(١) المرأة في الإسلام، (ص: ١٣٦).

ويتضح: أن الإسلام لم يبح التعدد لإهانة المرأة وإذلالها، وإنما أباحه وضبطه، لا كما يزعم الملحدون والمستشرقون: من أن تعدد الزوجات جاء به الإسلام، وأن محمدا أباح التعدد ليستجلب به الرجال إلى دينه. فقد كان موجودا قبل الإسلام، ولازال موجودا إلى الآن بصور وعادات مختلفة في أفريقيا وآسيا وغيرهما، ولكنه الجهل والحقد والتعصب الأعمى .

تفنيد الشبهة الثالثة: ميراث الأنثى نصف ميراث الرجل.

ويشتمل الرد على عنصرين:

الأول: ميراث المرأة عند غير المسلمين.

الثاني: ميراث المرأة في الإسلام.

العنصر الأول: ميراث المرأة عند غير المسلمين.

لم تعرف الأنثى صغيرة كانت أو كبيرة، حقوقا لها إلا في رحاب الإسلام، ذلك أنه لم يهبط بمنزلتها في جانب من جوانب حياتها الخاصة والعامة كما هبطت في كافة الحضارات قبل الإسلام وبعده، ولكنه ارتفع بها ليحقق لها إنسانيتها المهدرة، وليرد لها حقوقها المهضومة، وكرامتها الملطخة بالإهانة.

(كانت المرأة في الحضارة الرومانية تابعة لها حقوق القاصر، أو ليست لها حقوق مستقلة على الإطلاق)[١].

ومن مظاهر هضم حقوقها في ظل الحضارة الرومانية: (كان رب الأسرة هو رئيسها الديني، وحاكمها السياسي، ومديرها الاقتصادي، فإليه ترجع الحقوق كلها، فهو الذي يملك، وهو الذي يبيع ويشتري، ويتعاقد ويتصرف في كافة شئون أسرته، أما المرأة فلم يكن لها إلى جانبه شيء، إذ لم تكن لها أهلية أو شخصية قانونية فقد كان القانون يعد «الأنوثة» سببا أساسيا من أسباب انعدام الأهلية، كحداثة السن والجنون)[٢].

(ترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها، لذلك كان رئيس العائلة عند اليونان، والرومان، والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته، وكان يملكها كما يملك الرقيق، بطريق البيع والشراء بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة شراء وبيع، فكان الرجل يشتري زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر، فإذا مات انتقلت من تركته إلى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم)[٣].

ولم تكن المرأة أسعد حالا عند اليهود، فكانت تجرد من أبسط حقوقها، وتعامل معاملة السلع المنقولة وذلك أنها: (تجرد من أبسط حقوقها المدنية وتكون تحت ولاية أبيها، وأهلها قبل زواجها، وتحت ولاية

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، أ/ العقاد، (ص: ١١٤).

(٢) انظر: الإسلام والمرأة المعاصرة، البهي الخولي، (ص: ١٢)، دار القلم الكويت ط٤، ١٩٨٤م، وانظر أيضا: حقوق الإنسان في الإسلام، د/ علي عبدالواحد، (ص: ٢٩)، نقلا من مبادئ القانون الروماني، د/ محمد عبدالمنعم بدر د/ عبدالمنعم البدراوي، (ص: ٢٤١).

(٣) المرأة الجديدة، قاسم أمين، (ص: ٣)، مطبعة الشعب القاهرة ١٩١١م.

زوجها بعد زواجها، وتنزل في كلتا الحالتين منزلة تَقْرُبُ من منزلة الرقيق بل إنها لتبيح للوالد المعسر أن يبيع ابنته بيع الرقيق نظير ثمن يفرج أزمته)[١].

(وكان لأبيها الحق أن يبيعها وهي قاصر، ولا ترث إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين)[٢].

والميراث عند النصارى: امتداد لما في العهد القديم حيث لا يوجد نص ينظم أحكام الميراث في الإنجيل، وإن كان البعض منهم يساوي بين الذكر والأنثى فهذا مرده الاجتهاد، وارتضى كثير من النصارى في مصر توزيع التركة وفق أحكام الشريعة الإسلامية. وكذلك كان حال المرأة العربية قبل الإسلام، فكانت لا ترث بل كانت تورث كمتاع لأقارب زوجها المتوفي، وكانت تحرم من مهرها فكان للولي أن يأخذ مهرها ولا يعطيها شيئا[٣].

والخلاصة: أن المرأة قبل الإسلام كانت مجردة من الحقوق المالية، وتعد عبئا على أسرتها يغتمون لميلادها، ولا حظَّ لها في مال أبيها بعد موته. وإذا تزوجت لا ترث حتى لا يذهب مال أبيها إلى شخص غريب، بل كانت تُورث في بعض المجتمعات كما تورث الأمتعة، وفي وسط ذلك الظلام أشرق نور الإسلام، ونزل قول الله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[٤]، وقول الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾[٥].

فعن جابر بن عبدالله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا ولا تُنكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت: آية الميراث، فبعث رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى عمهما، فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك»[٦]. فكان هذا أول توريث للبنات عرفته العرب، (وحجتهم في منع توريث البنات والصغار، أنهما لا يشاركان في حرب ولا يحملان سلاحا ولا يحوزان غنيمة)[٧].

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، (ص: ٢٨)، مرجع سابق

(٢) الحقوق العامة للمرأة، صلاح عبدالغني محمد، (ص: ٤١)، الدار العربية للكتاب ١٩٩٨م، القاهرة، ط٢.

(٣) المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، (ص: ٢١)، دار القلم الكويت ١٩٨٦م.

(٤) النساء: ١١.

(٥) النساء: ٧.

(٦) رواه أحمد، ح. رقم (١٤٧٩٧)، الترمذي، أبواب الفرائض عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في ميراث البنات، ح. رقم (٢٠٩٢)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٦٧٧).

(٧) موسوعة بيان الإسلام، (١١/ ٢٥١)، إشراف عام: داليا محمد إبراهيم، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة، ٢٠١١م.

العنصر الثاني: ميراث المرأة في الإسلام.

يردد المغرضون من الملحدين، والمبشرين، والعلمانيين، وأترابُهم أن الإسلام ظلم الأنثى في الميراث، وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين بإطلاق وتعميم، ولو علم هؤلاء حِكم ودقائق التشريع الإسلامي في الميراث لعلموا أن الأنوثة والذكورة، ليست هي المعيار في التفاوت بين أنصبة الوارثين، وإنما المعايير الحاكمة لذلك هي:

١- درجة القرابة بين الوارث والمورث، فكلما كان الوارث أقرب كان ميراثه أكبر، والعكس صحيح دونما اعتبار لجنس الوارثين.

٢- موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال، فالأجيال التي تستقبل الحياة وتستعد لتحمل أعبائها عادة يكون نصيبها من الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة، وتتخفف من أعبائها، بل وتصبح أعباؤها شرعا مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة، والأنوثة في الوارثين والوارثات، فبنت المتوفي ترث أكثر من أمه، وكلتاهما أنثى وكلتاهما ترث، وكذلك يرث الإبن أكثر من الأب وكلاهما من الذكور.

وفي هذا المعيار من الحكم، والأسرار ما يخفى على الكثير من الذين جعلوا التفاوت بين الذكور والإناث في بعض الحالات شبهة ينالون بها من الإسلام.

٣- العبء المالي الذي يوجب التشريع الإسلامي على الوارث تحمله، والقيام به إزاء الأقربين، وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتا ظاهرا بين الذكر والأنثى لكنه تفاوت لا يفضي إلى ظلم للأنثى، أو انتقاص من حقها، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ففي حالة إذا ما اتفق الوارثون في درجة القرابة، وفي موقع الجيل الوارث، مثل أولاد المتوفى، يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في تفاوت الميراث بين الأخ وأخته.

الحكمة في زيادة نصيب الأخ على أخته:

والحكمة في هذا التفاوت في هذه الحالة بالذات: (وهي أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى وهي زوجته وأولادهما، بينما الأنثى الوارثة أخت الذكر إعالتها مع أولادها فريضة على الذكر المقترن بها، فهي مع هذا النقص بالنسبة لأخيها الذي ورث ضعف ميراثها، أكثر حظا وامتيازا منه في الميراث، فميراثها مع إعفائها من الإنفاق الواجب هو ذمة مالية خالصة، ومدخرة لجبر الاستضعاف الأنثوي، ولتأمين حياتها ضد المخاطر، والتقلبات، وتلك حكمة إلهية قد تخفى على الكثيرين)[1].

(ومسوغ هذا التفاوت، أن الأخ مسئول عن نفقة أخته، وأن الابن يعول من لا عائل لها من أهله، وأن

(١) اميراث المرأة وقضية المساواة، د صلاح سلطان، ص:(٤)، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

رب البيت وهو الزوج، أو الأب أو الرشيد من الأبناء والأخوة هو العائل لها.

وتقرير وجوب السعي على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التي يظلمها من يساويها في واجبات السعي على المعاش، وعلى نهوضها بواجب الأمومة، والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية)[١].

ولو أخذت الأخت ميراثها ولم تتزوج، أو طلقت وعادت لبيت أخيها، فأخوها ملزم شرعا بالإنفاق عليها، بل في كافة أطوار حياتها يتكفل بالإنفاق عليها غيرها، ينفق عليها أبوها أو أخوها إن كانت بنتا، ثم زوجها إن تزوجت، ثم أبناؤها إن ترملت وهكذا.

بينما أخوها الذي أخذ ضعف نصيبها مطالب بإعداد منزل للزوجية، ودفع المهر، وتأثيث المسكن والإنفاق على زوجته وأولاده، أما أخته فلا تُلزم بشيء من كل هذا، (فنصيب الابن معرض للنقص بما ألقى عليه الإسلام من التزامات متوالية متجددة، ونصيب الأخت معرض للزيادة بما تقبض من مهر وهدايا وبما يدره من دخل إذا أثمر، مع إعفائها من أي التزام شرعي مالي لزوجها وبيتها وبنيها، فهل كان من العدالة أن يسوي الإسلام بينهما في الميراث ثم يلقى على الابن ما يلقى من الأعباء الثقيلة المستمرة ويعفيها من كل شيء؟)[٢]..

ومن خلال دراسة استقرائية قام بها بعض الباحثين خرج منها بعدة نتائج[٣]:

أ- الحالات التي يزيد فيها نصيب الذكر عن نصيب الأنثى أربع حالات فقط.

ب- وترث المرأة مثل الرجل تماما أضعاف الأربع حالات السابقة.

جـ- أكثر من عشر حالات يزيد فيها نصيب الأنثى على نصيب الذكر.

د- وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

تلك هي ثمرات استقراء حالات، ومسائل الميراث في علم الفرائض، التي حكمتها المعايير التي حددتها فلسفة الإسلام في التوريث، والتي لم تقف عند معيار الذكورة والأنوثة كما يظن البعض.

ثم نقول لهؤلاء وغيرهم: لم ير تاريخ البشرية تشريعا منظما دقيقا يجعل للأنثى نصيبا مفروضا كالذي جاء به الإسلام، وإلا فلا نرى إلا فوضى تشريعية فيما يتعلق بهذا الحكم لدرجة أن كثيرا من عقلاء الغرب حسدوا المرأة المسلمة على ذلك التشريع الذي أعطاها، ولم يطلب منها، وحماها ولم يتركها لطمع الذكور من إخوانها وغيرهم.

---

(١) المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد، (ص: ٦٥- ٦٦)، نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة.

(٢) الإسلام والمرأة المعاصرة، البهي الخولي، (ص: ٢٠٥)، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٨٤م.

(٣) ينظر مفصلا في :لمرأة وقضية المساواة، (ص:١٠ ومابعدها).

(وتعد مبادئ المواريث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية أو الإنكليزية، أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللائي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف حقوقا لا نجد مثلها في قوانيننا)[١].

وتقول الباحثة الإيطالية لورافيشيا فاكليري: (إن المرأة المسلمة بجانب تمتعها بحق الوراثة مثل إخوانها ولو بنسبة أصغر، ومن حقها ألا تزف إلى أحد إلا بموافقتها الحرة، وفي ألا يسيء زوجها معاملتها، وتتمتع بحق الحصول على مهر الزواج، وبحق إعالة الزوج لها، وتتمتع بكامل الحرية في إدارة ممتلكاتها إذا كانت مؤهلة لذلك شرعا)[٢].

- (وإن كان هناك ثمة ظلم واقع على المرأة في الميراث، فهو في الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية البعيدة عن المنهج الفطري الرباني)[٣].

وبذلك تسقط شبهة الملحدين وغيرهم ويظهر جهلهم بحكمة وأحكام الإسلام وتشريعاته.

(١) حضارة العرب، (ص: ٤٠٢)، مرجع سابق .

(٢) المرأة المسلمة من منظور غربي، (ص: ٣٤)، مرجع سابق.

(٣) موسوعة بيان الإسلام، (١١/ ٢٢٤)، مرجع سابق.

وأخيراً نسأل: هل يوجد إلحاد في أرض الكنانة مصر؟

سمعنا في الآونة الأخيرة، أصواتـًا تَدَّعي أن الإلحاد انتشر بقوة بين شباب أرض الكنانة، وصار ظاهرة عامة، مما جعل بعض نواب الشعب بالبرلمان المصري ينتفضون غيرة على مصر وشعبها وعقيدة أبنائها، حيث قدم أمين سر اللجنة الدينية بالبرلمان طلب إحاطة، ومشروع قانون يجرم الإلحاد والدعوة إليه، وقد اجتمعت اللجنة الدينية، وبحضور ممثل الأزهر الشريف، والإفتاء والأوقاف.

ومما قاله فضيلة ممثل الأزهر: (إن الإلحاد طارئ على المجتمع المصري ولم يرق إلى حد الظاهرة، وليس منتشرا في مصر، فمصر في أمان إلى يوم الدين، فقولنا: ظاهرة، يعني أنه منتشر، فالإلحاد لم يصل إلى حد الظاهرة، حيث المساجد تقام فيها الشعائر، ويرفع فيها الآذان كل يوم خمس مرات، فستظل مصر في أمن وأمان لقوله تعالى ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[1] .

ودعا فضيلته إلى ضرورة تضافر جهود كافة مؤسسات الدولة دينية وإعلامية واجتماعية وثقافية لعلاج هذه القضية) وأشار إلى أن: (مرصد الأزهر الشريف يرصد هذا الأمر الطارئ على المجتمع المصري، ويعمل المرصد على مدار الساعة دون توقف)[2].

وواضح: أن الأمر لم يعد سرا، أو مججرد فكرة فردية عابرة، حتى يصل لمجلس النواب. وأمام ذلك التيار العاتي، والذي أصاب بعض فلذات أكبادنا، والذي ملأ سدنته وسائل الإعلام زيفا وإرجافا، لذلك بدأت أسئلة تَطْرَحُ نفسها بقوة:

١- هل يوجد ملحدون في مصر؟

٢- وما نسبتهم؟

٣- وما مصداقية النسب التي تطالعنا بها بعض المراكز المتخصصة بالإحصاء؟

٤- وما سر الحضور اللافت للملحدين عبر وسائل الإعلام ومنصات الحوار والمواقع والمنتديات المختلفة؟

٥- وهل تقتصر مواجهة التيار الإلحادي على المؤسسات الدينية فقط؟

أسأل ربي أن يحفظ مصر وسائر بلاد الإسلام من الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن.

١- مصر والإلحاد:

نعم يوجد ملحدون في مصر، وفي سائر البلاد العربية والإسلامية، ولن تخلو أرض من منكري وجود الله

---

(١) يوسف: ٩٩

(٢) جريدة اليوم السابع، عدد ١٥/ ١/ ٢٠١٨م.

-تعالى-، وما كانت بعثة الرسل وإنزال الكتب والتأييد بالمعجزات، إلا لهداية الناس لمعرفة الله -تعالى.

ثم إن أول خطوة لعلاج الداء، الاعتراف بوجوده، ثم معرفة أسبابه ووسائل علاجه. أما إن أغمضنا أعيننا وتعامينا عن وجوده فذلك يفسح المجال لتمدد المرض واستفحاله، وربما صعوبة علاجه مستقبلا.

ومن مظاهر وجوده:

أ- الملحدون الذين يعلنون عن أنفسهم عبر وسائل الإعلام المصرية ووسائل التواصل الاجتماعي، والتي تحوي مواقع وصفحات لملحدين مصريين.

ب- الآراء الصادمة والمتنافية تماما مع النصوص الدينية، والأحكام الشرعية التي يلقيها البعض بين الحين والآخر عبر كتابات، أو مقابلات وغيرها.

ج- إقرار المؤسسات الدينية بوجود ملحدين في مصر.

د- دعاوى الطلاق والفرقة بسبب إلحاد أحد الزوجين، والمرفوعة أمام محكمة الأسرة[١].

ه- اقتراح، أمين سر اللجنة الدينية بمجلس الشعب المصري لمشروع قانون لتجريم ظاهرة الإلحاد، وإدراجها في مواد قانون تلحق بازدراء الأديان[٢]. ما سبق دليل على وجود ملحدين في أرض الكنانة.

٢- نسبة عدد الملحدين بالنسبة لعدد السكان: .

ظهرت في السنوات الأخيرة إحصاءات لمراكز بحثية، ودينية وغيرها، أظهرت نسبا لأعداد الملحدين في الوطن العربي تحوي تضاربا كبيرا فيما بينها، فبعضها يهوِّل في أعدادهم، وبعضها يهون من نسبتهم، وأعرض بعض النتائج الإحصائية بشيء من الإيجاز.

- نقل مرصد الفتاوى التكفيرية التابع لدار الإفتاء المصرية عن مركز (ريدسي) التابع لمعهد (جلوبال) أن مصر الأعلى عربيا في نسب الإلحاد حيث إن بها ٨٦٦ ملحدا[٣].

- أجرت مؤسسة (برسون مارستلر) الأمريكية بحثا على الشباب من بين أعمار (١٥-٢٤) سنة بالتعاون مع معهد (جالوب) لاستطلاعات الرأي، وجامعة (إيسترن ميتشجان) بالولايات المتحدة، وذلك بتمويل من مؤسسة (فورد) وقد أجرى البحث العالم (منصور عادل) بهدف تحديد عدد الملحدين، وأظهرت النتيجة أن نسبة ٣٪ من الشعب المصري غيروا مواقفهم من الدين خلال عام ٢٠١٢م[٤].

(١) نشر موقع قناة الحرة، نقلا عن جريدة الصباح، في٨/ ٣/ ٢٠١٧م، أن دعاوى الطلاق أو الخلع بسبب إلحاد الزوج، أو تغيير العقيدة بلغ ٦٥٠٠ قضية عام ٢٠١٥م.

(٢) جريدة الوطن، ٢٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

(٣) جريدة الوطن ١٧/ ١٠/ ٢٠١٧م.

(٤) جريدة الصباح، ٢٠/ ١١/ ٢٠١٣م.

وتوجد إحصاءات أخرى تبالغ كثيرا في أعداد الملحدين في مصر والدول العربية.

٣- مدى مصداقية النسب السابقة لأعداد الملحدين

توجد عدة ملاحظات على النسب المذكورة أهمها:

١-كون هذه الاستطلاعات في معظمها غير مصرية ولا عربية، وإنما أمريكية وأوربية، مما يعني عدم القدرة على الخروج بنسب حقيقية دقيقة، أو حتى تقريبية للإلحاد.

٢- وجود هوة كبيرة بين المهوِّنين والمهولين، تجعل المطالع لتلك النسب في شك حيث يغيب اليقين.

٣- لم تحدد لنا تلك المراكز -حسب علمي- ضابط ومفهوم الإلحاد من الوجهة الإسلامية خاصة وأن الاستطلاع يخص بلدا، أو بلدانا معظم سكانها من المسلمين، وحتى النصارى فيؤمنون بوجود الله -تعالى-.

٤- النظر لاستطلاعات المراكز الغربية بعين الريبة والحذر، حيث أشار أحد الاستطلاعات أن نسب الإلحاد في المملكة العربية السعودية ما بين ٩-٥ ٪ وهي من أكثر البلدان محافظة على الإيمان، حسب نشر موقع (فرانس٢٤)، وبدون شك توجد مبالغة في تلك النسبة.

٥- من العسير جدا تحديد نسب حقيقية بعدد الملحدين في مصر والدول العربية -على الأقل في الوقت الراهن-، حيث لا يصرح الكثير منهم بإلحاده لجملة من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأمنية.

والذي يظهر: أن الإلحاد موجود في مصر، وبين الشباب بصفة خاصة، وأن تحديد عددهم بصفة أقرب للواقع ليس بالأمر الهين، لعدم إفصاح الكثير منهم عن حقيقة إلحاده كما أن النسب السابقة تمثل صافرة إنذار وتحذيراً لكافة المؤسسات ذات الصلة، ابتداء من البيت، مرورا بالمؤسسات التعليمية والدينية والثقافية والرياضية والإعلامية والمعلوماتية.

والذي أراه: أن عدد الملحدين يزيد على الـ٨٦٦ -بدون شك- لكن لا يصل يقينا إلى لـ٣٪ من عدد السكان كما أشارت بعض الاستطلاعات. ثم كم تساوي نسبة ال ٨٦٦ من أكثرمن ١٠٠ مليون مصري .

مفهوم الظاهرة عند علماء الاجتماع:

يقـول «إميل دور كايم (١٨٥٨-١٩١٧م): (الظاهرة الاجتماعية: كل سلوك يعم في المجتمع، وكان ذا وجود خاص مستقل...)[1]، فالظاهرة الاجتماعية كما يبدو من التعريف تعتبر نوعا من أنواع السلوك

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع صـ٦٩، أميل دور كايم، ترجمة: د/ محمد قاسم، د/ السيد محمد بدوي، دار المعرفة، الإسكندرية ١٩٨٨م.

المجتمعي تجاه أمر أو قضية ما، حيث يصبح هذا السلوك كالعرف. فهي ظاهرة عامة وليست فردية فكرية أو نفسية، وتكون كالعرف بين أفراد المجتمع، وإذا أردنا أن نسقط تعريف الظاهرة الاجتماعية على الإلحاد في مصر، فهل يمكن لعاقل أن يزعم أن الإلحاد في مصر يمثل سلوكا يعم المجتمع، وأنه ظاهرة فكرية عامة وليست فردية؟ بل الظاهرة المجتمعية العامة تتمثل في أن المسلمين في مصر يذهبون لمساجدهم كل يوم خمس مرات ويؤدون الصلوات في جماعة ويقرأون القرآن ويتضرعون إلى ربهم ويعتمدون عليه في كل شئونهم.

فالإلحاد: لا يمثل ظاهرة اجتماعية لا في مصر ولا في أي قطر من الأقطار العربية، حيث إن إطلاق وصف الظاهرة يحتاج إلى ظهور وانتشار ذلك الفكر -عياذا بالله- وتبنيه من شريحة غير قليلة من أفراد المجتمع، وذلك ليس كائنا ولن يكون إن -شاء الله-. لكنه يمثل ظاهرة غوغائية دعائية في العالم الافتراضي الخيالي، عالم وسائل التواصل الاجتماعي وليس في العالم الحقيقي الواقعي.

فالملحدون، يقومون بعمل منظم مدعوم بكتائب إليكترونية مكونة من مجموعات من المُدَرّبين والمزَوَدِين بقوالب من الأسئلة والأجوبة المعدة سلفا، والتي يحشدونها في مواقعهم ومنتدياتهم، وبسبب المشاركة الفاعلة والحية من هؤلاء يظهر للمتابع أن عددهم كبير، وأن الذين يمرون على صفحاتهم ومواقعهم بالآلاف وهذا على خلاف الحقيقة فمعظم الزائرين لصفحاتهم هم أنفسهم، ولكن بأسماء مستعارة، ومشاركات مختلفة ومتنوعة، فمردُّ ظهورهم اللافت الخداعُ والإيهام والتضليل.

كما أنه ليس من المستبعد أن يلج تلك المواقع غيرُ المسلمين بأسماء إسلامية بغرض زعزعة ثقة المسلمين في دينهم، والإيهام بكثرة المتشككين والتاركين للدين.

٤-العلاج :إن مواجهة الإلحاد والانحراف الفكري تحتاج إلى منظومة متكاملة تعمل بالتوازي وفق خطة محددة مدروسة سلفا لا يشوبها تضارب، بل تنسيق وتعاون تلك المنظومة يكمل بعضها بعضا، ولا يستغني بعضها عن بعض.

لا يستطيع علماء الأزهر، والأوقاف، والإفتاء القضاء التام على الإلحاد ما لم تتعاون معهم كافة وسائل الإعلام، والتي تتيح لهم الفرصة للتوضيح والبيان، مع غلق النوافذ الإعلامية أمام هؤلاء الملحدين، والذين يصر البعض على استضافتهم وتلميعهم، والترويج لفكرهم بدعوى الرأي والرأي الآخر، وحرية الفكر والإبداع والتنوير... إلى غير ذلك من العناوين المضلِّلَة.

ولا يستطيع الأزهر بعلمائه القضاء على الإلحاد بعيدا عن مناهج تعليم تغرس القيم الدينية وتؤكد عليها، مع معلم مؤمن برسالته قادر على إيصالها لطلابه.

وبالتنسيق مع النوادي الرياضية والثقافية، لاستغلال الأحداث الرياضية والثقافية بتوجيهات إيمانية

مباشرة، وغير مباشرة، تربط الشباب بربهم ودينهم ووطنهم.

وبالتنسيق: مع الجهات الأمنية، والتي هي أكثر قدرة على التقاط شوارد الفكر ونوازع التطرف، للعلاج قبل استفحال الأمراض.

وبالتنسيق: مع الجامعات والمدارس لتكثيف محاضرات وندوات ومناهج دراسية ترسخ للإيمان بالله، وتفنِّد الشبهات والأباطيل التي يرددها الملحدون، وبأسلوب هادئٍ مبني على المنطق والبرهان.

وبالتنسيق: مع وزارة الاتصالات لغلق منافذ الملحدين والتي يبثون سمومهم الفكرية عبرها، دون أن نعرف من وراءها.

وبالتعاون: مع الجهات التشريعية، لسن القوانين المنظمة لذلك العمل، والمُجرِّمة لازدراء الأديان.

إن علاج الأمراض والمشكلات الفكرية -خاصة- ليس بالأماني ولا بالخطب العصماء وإنما بوعي وفهم وعلم وتخطيط، فنحن أمام تيار له منظموه وداعموه، فليقابل الفكر بالفكر، لنظهر زيف الملحدين، وضعف حجتهم، وتهاوي أدلتهم، بالعلم والفهم والوعي.

ومصر قادرة على ذلك بعلمائها وأزهرها... حفظ ربي مصر وشعبها، وإيمان أهلها، وسائر المسلمين أجمعين... اللهم آمين.

الخاتمة

وتشتمل على أبرز النتائج وأهم التوصيات

أولاً النتائج:

١- لم يثبت أن العرب قبل الإسلام أنكروا وجود الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت:٦١).

٢ - كان ظهور الإلحاد في الغرب قديما نتيجة الفلسفات المادية، وتحريف العقيدة النصرانية، وممارسات الكنيسة ورجالها.

٣- لم يظهر الإلحاد في المجتمعات الإسلامية في صدر الإسلام، حيث كان العرب الخُلَّص، وإنما وفد إليهم مع فتح بلاد فارس، وظهور النزعة الشعوبية والزندقة، حيث أظهر بعضهم الإسلام وأضمر ماكان عليه من أفكار مانوية وثنوية.

٤- إن جملة من المشكلات الاجتماعية مثل: الفقر، والبطالة، والخلافات الأسرية من الأسباب التي قد تؤدي للانحراف الفكري والعقدي.

٥- من أهم أسباب الانحراف الفكري لدى الأولاد، عدم قيام الوالدين بدورهما من ناحية التربية الإيمانية، والسلوكية، واستشراف نوازع الانحراف وأسبابه.

٦- من أسباب الانحراف والإلحاد: قلة أو انعدام الجرعات الإيمانية بالمناهج الدراسية، بل ربما تكون بعض المناهج العلمية دافعة للإلحاد، وليست حامية منه.

٧- ضعف الخطاب الدعوي، وعدم مواكبته للمستجدات العلمية والتقنية، جعلته غير مجارٍ للعصر، وغير مقنع لكثير من الشباب، والذين لا تتاح لهم فرصة لمعرفة الدين إلا من خلال خطبة الجمعة.

٨- لا يمثل الإلحاد في البلاد الإسلامية ظاهرة، حيث المظهر الديني هو سمت المسلمين العام، كما أن حرص المسلمين على إقامة شعائر دينهم من صلاة وصوم وحج لأكبر دليل على تأكيد ظاهرة التدين وليس العكس.

٩- إن الإلحاد يمثل ظاهرة في الغرب، وإن أعداد الملحدين في الغرب متزايدة لأسباب دينية وفلسفية.

١٠- كثرة مواقع الملحدين، وصفحاتهم على الشبكة العالمية، والتي توحي بكثرتهم في العالم الافتراضي، تكذبها قلة أعدادهم في العالم الحقيقي.

١١- على الرغم من الفوائد الكثيرة لوسائل التواصل الاجتماعي، إلا أنها أصبحت عالم الملحدين المفضل، فَعَبْرَهَا ينثرون أفكارهم وينفثون سمومهم، ويستدرجون بعض أبنائنا من خلال مواقعهم، ومنتدياتهم.

١٢- يعد المنهج القرآني في تقرير العقيدة، وتقوية الإيمان بالله -تعالى- هو المنهج الأمثل، حيث الردود بالأدلة المفحمة للمجادلين ومنكري وجود الله، والمكذبين بالبعث بعد الموت.

١٣- كل شبهات الملحدين ما هي إلا رجع صدى، وترديد لما قاله المرجفون والمبشرون قديما.

١٤- القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الخالدة، والباقية والمحفوظة بحفظ الله تعالى، ولا زال تحدي القرآن قائما لكل البشر أن يأتوا ولو بسورة من مثله، وأن الإعجاز التشريعي، والأخلاقي، والعلمي الذي حواه؛ لأكبر دليل على ربانيته، وليس كما زعم الملحدون وأضرابهم من أنه نتاح لهلاوس وصرع.

١٥- وسَّع الإسلام منافذ تحرير الأرقاء، وضيق أسبابه ومداخله، ورغب في فك الرقاب طوعا وفي الكفارات، وبهذا المنهج الرباني الهادئ كان تحريرالعبيد، وليس كما يزعم الملحدون وأضرابهم من أن الإسلام هوسبب الرق، فالرق كان سابقا على الإسلام.

١٦- إن تعدد لزوجات في الإسلام من الأمور المباحة وبضوابط، وأكْرَمُ للمرأة أن تكون زوجة في عصمة رجل برغبتها، بدل أن تكون خليلة لكل الرجال، كما أن التعدد عالج كثيرا من المشكلات الاجتماعية للمسلمين قديما والتي عانى منها الغرب نتيجةً لحروبه الكونية التي راح ضحيتها ملايين الرجال.

١٧- يوجد ملحدون في مصر، لكنهم قلة قليلة لا يمثلون ظاهرة كما هو الحال في الغرب، وأن مصر ستظل عَصِيَّةً على الإلحاد وغيره من صنوف الانحراف والتطرف، لأنها بلد الأمان، قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩)، ولوجود قلعة العلم في مصر والعالم الإسلامي الأزهر الشريف.

ثانيًا: التوصيات:

١- العناية بالرسوخ العلمي الذي يناقش تفاصيل القضايا العقدية والفكرية القديمة والمعاصرة، وهضم المسائل الفلسفية، والأفكار الإلحادية بدراسات جادة، ومتخصصة في هذا المجال.

٢- تفعيل وتنشيط المراكز والمراصد المتخصصة في رصد الأفكار الإلحادية والمتطرفة، والتي تنتشر عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل الحديثة، ومعالجتها، والرد عليها من قبل المتخصصين في المجالات الشرعية، والفكرية، والعلمية.

٣- رصد ونشر الحقائق العلمية الحديثة، والتي تفضح كذب الملاحدة، وتَمَسُّحهم المزعوم بالعلم.

٤- ضرورة تضمين كافة المناهج التعليمية، ولكافة المراحل الدراسية جرعات إيمانية ترسخ الإيمان القائم على التأمل العقلي، والذي يمثل تحصينا تتحطم على جدرانه أباطيل المرجفين وشبه الملحدين.

٥- إنشاء مواقع إلكترونية متخصصة، تحوي ثلة من الخبراء المتخصصين في العلوم الشرعية، والفكرية، والإنسانية؛ وذلك لتفنيد وإبطال شبه الملحدين، والمبشرين، وأضرابهم، وتكون مرجعا سهلا للشباب المسلم، والذي أضحى شديد الارتباط بوسائل التواصل الحديثة.

٦- إعادة تقييم المواقع الموجودة للرد على موجات الإلحاد، والتي في معظمها مواقع شخصية يشرف عليها شخص، أو عدد من الأشخاص، والذين أنشأوها بدافع الغيرة الدينية، ويعتري مردودها بعض النقص، وخاصة أنها تخوض في مسائل دقيقة وحساسة.

٧- ضرورة التنسيق والتعاون وتبادل الزيارات والخبرات بين كافة المراصد والمراكز ذات الشأن؛ وذلك استثمارا للوقت والجهد، وزيادة في النتائج المرجوة.

٨- ضرورة التنسيق بين المراصد والمراكز المتخصصة في الرد على الملحدين، والمراكز المتخصصة في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، والاستفادة من النتائج التي توصلوا إليها؛ لتكون وسيلة لترسيخ الإيمان لدى المسلمين، ودحض كذب الملحدين.

٩- عقد ندوات في كافة المدارس، والجامعات، والمراكز، والأندية الشبابية، يشارك فيها علماء متخصصون في التيارات الفكرية المعاصرة، والعلوم الإنسانية.

١٠- ضرورة إعداد دعاة مزودين بدراسة وفهم الأفكار الإلحادية، وغيرها بجانب القدرة على التعامل مع وسائل التواصل الحديثة، مع القدرة على الحوار والمناظرة.

١١- إعداد فريق عمل من الشباب المهيأ دينيا، وعلميا، وتقنيا للولوج لمواقع الملحدين، والمبشرين، والرد عليهم وإفحامهم؛ حتى لا يغتر بعض ضعيفي الإيمان بخداعهم، وكذبهم... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

المقدمة..... ٨
حول مفهوم الإلحاد ١٠
الباب الأول: أسباب الإلحاد وجذوره عند الغرب والمسلمين ١٤
الفصل الأول أسباب الإلحاد قديما ١٥
المبحث الأول: أسباب الإلحاد قديما..... ١٦
المبحث الثاني: خصائص الإلحاد قديما..... ٢٢
الفصل الثاني: جذور الإلحاد في الغرب..... ٢٤
المبحث الأول: جذور الإلحاد في الغرب ٢٤
المبحث الثاني: أسباب الإلحاد في الغرب ٢٩
الفصل الثالث: جذور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية ٣٣
المبحث الأول جذور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية ٣٦
المبحث الثاني: الأسباب التي أدت إلى ظهور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية ٣٩
الباب الثاني: أسباب انتشار الإلحاد في العصر الحاضر وسبل الوقاية ٤٨
الفصل الأول: غياب دور الأسرة..... ٤٩
المبحث الأول: مظاهر ونتائج غياب دور الأسرة ٤٩
المبحث الثاني: اهتمام الإسلام بالأسرة وشدة العناية بها..... ٥١
الفصل الثاني: المشكلات الاجتماعية ٥٧
المبحث الأول مشكلة الفقر ٥٨
المبحث الثاني: مشكلة البطالة ٦٣
المبحث الثالث: التفكك الأسري..... ٦٧
الفصل الثالث: ضعف مواكبة المناهج الدراسية..... ٧٠

المبحث الأول: أهمية المناهج الدراسية ٧٠
المبحث الثاني: أهمية مواكبة المناهج الدراسية..... ٧٥
الفصل الرابع: ضعف مواكبة الخطاب الدعوي ٧٩
المبحث الأول: مفهوم الخطاب الدعوي وأهميته..... ٧٩
المبحث الثاني: مظاهر ونتائج ضعف مواكبة الخطاب الدعوي ٨٤
المبحث الثالث: حول تجديد الخطاب الديني ٨٧
الفصل الخامس: وسائل التواصل الحديثة ٩١
المبحث الأول: مفهوم وسائل التواصل الحديثة ٩١
المبحث الثاني: ايجابيات وسلبيات وسائل التواصل الحديثة ٩٣
الباب الثالث: أهم شبهات الملحدين المعاصرين والرد عليها ٩٧
الفصل الأول: انكار الملحدين المعاصرين وجود الله والرد عليهم ٩٨
المبحث الأول: إنكار الملحدين لوجود الله وقولهم بقدم العالم والرد عليهم..... ١٠٠
المبحث الثاني: الرد على زعمهم أن الكون نشأ صدفة ١٠٧
المبحث الثالث: اعتماد الملحدين على نظرية التطور دليلا على مزاعمهم..... ١١٣
الفصل الثاني: انكار الملحدين المعاصرين وجود الملائكة والرد عليهم ١٢١
الفصل الثالث: طعن الملحدين في الكتب السماوية ١٢٨
المبحث الأول: شبهة الملحدين والرد عليها..... ١٢٨
المبحث الثاني: الرد على ما أثير من شبهات حول القرآن ١٣٠
الشبهة الأولى: القرآن من تأليف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٣٠
الشبهة الثانية: بالقرآن تناقضات ولا تتفق مع معطيات العقول والعلوم ١٣٥
المبحث الثالث: مكانة الكتب السماوية من الوجهة الإسلامية ١٤٥
الفصل الرابع: انكار الملحدين بعثة الرسل والرد عليهم..... ١٤٧
المبحث الأول: تصوير الشبهة وتفنيدها..... ١٤٧

المبحث الثاني: الإيمان بالرسل من الوجهة الإسلامية ١٥٩
الفصل الخامس: طعن الملحدين في أحكام الشريعة الإسلامية والرد عليها. ١٦٤
شبهة الإسلام يحث على الرق ١٦٤
شبهة الإسلام وتعدد الزوجات ١٧٢
شبهة الإسلام وميراث الأنثى ١٨٢
هل يوجد ملحدون في مصر؟..... ١٨٧
الخاتمة..... ١٩٢
فهرس الموضوعات..... ٢١٢

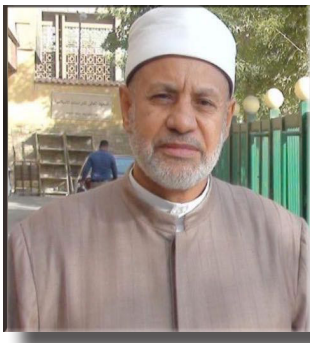

المؤلف في سطور

محمد عبد الفتاح إسماعيل

مواليد مركز كفر صقر محافظة الشرقية – مصر – 1959م.

حفظ القرآن الكريم والتحق بالأزهر الشريف .

تخرج من كلية أصول الدين جامعة الأزهر .

تخصص في العقيدة والفلسفة .

له اهتمامات فقهية حيث شارك في أكثر من دورة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي .

عمل بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

عمل واعظا دينيا بالقوات المسلحة لدولة الامارات العربية المتحدة، ثم واعظا بوزارة الأوقاف ورئيسا لقسم الوعظ بالمنطقة الغربية بدولة الامارات .

عمل مستشارا شرعيا للمجموعة القطرية للجودة واعداد القادة .

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق لمديرية أوقاف القاهرة والآن بالمعاش .

متفرغ لإلقاء الدروس والمحاضرات داخل مصر وخارجها حيث سافر للعديد من الدول العربية والأوربية والصين، واستراليا وغيرها من الدول .